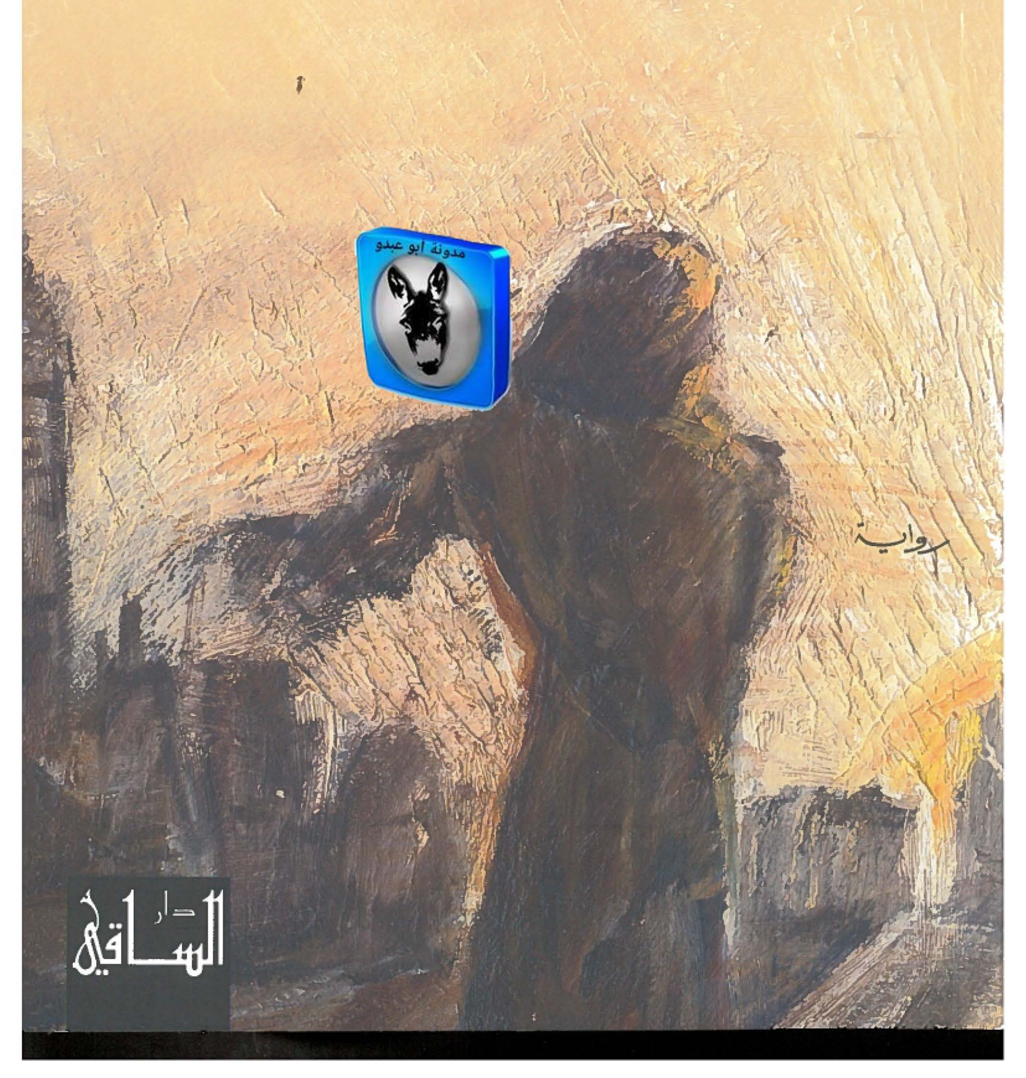
إيمان حميدان

خمسون غراماً من الجنة



خمسون غراماً من الجنة

صدر للمؤلفة:

- **باء مثل بيت مثل بيروت**، ط١، دار المسار، بيروت ١٩٩٧؛ ط٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.
- **توت بري**، دار المسار، بيروت ٢٠٠١.
- **حيوات أخرى**، دار الراوي، بيروت ٢٠١٠.

تُرجمت أعمالها الى الإنكليزية والألمانية والفرنسية والهولندية والإيطالية.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

إيمان حميدان

خمسون غراماً من الجنة



الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-880-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

"الزمانُ مكانٌ سائلٌ، والمكانُ زمانٌ متجمّد..."

محي الدين بن عربي (١١٦٤-١٢٤٠م)

(١)

بيروت آب ١٩٧٨

ارتخت ساقاها وكادت تقع على أرض الرصيف، رغم ذلك تابعت نورا السير بوتيرة مسرعة. دقات القلب ترتفع كنقرات طبل، كأن قلبها يسكن أذنيها ويصيح. ما عادت تسمع شيئاً سوى خفقات قلبها الخائف تمتزج مع تصاعد لهاثها المتوتر. ما عادت تسمع أحداً ولا حتى صوت الرجل الذي بدأ بمطاردتها منذ أن خرجت من السفارة بعد أن طلب منها الموظف العودة في اليوم التالي.

سيارات تعبر بسرعة جنونية، ووهج الشمس ينعكس على هياكلها المعدنية الساخنة ويزيد من حرارة الجو كأن جهنم تبتلع نور النهار وما فيه. إطلاق رصاص يأتي من أمكنة بعيدة، يقترب ثم يبتعد كأرجوحة صوتية، رسم إيقاعُها المتكرّر خطوطاً في الفضاء. رشقات نارية وجيبات عسكرية وصفارات إنذار. ترددت نورا بين الانتظار في مكان قريب أو الاسراع في العودة إلى البيت. لكن فكّرت أن الإنتظار لا يُجدي، ذلك أن لا موعد لابتداء أو انتهاء العنف، الذي

يبدأ وتتوسع دوائره ثم ينتهي. تحت مظلته أتقن الناس إدارة حياتهم بمهارة.

لا بدّ أن تجد سيارة أجرة توصلها إلى بيت صباح حيث طفلها. لم تكن بعيدة كثيراً عن السفارة حين فوجئت بذلك الرجل يقود سيارته بمحاذاتها. فكّرت أن بإمكانه توقيف سيارته والنزول باتجاهها إلّا أنه بدا كما لو أنه يتلذّذ بإخافتها. تباطأت قليلاً. "وين مفكّرة حالكِ رايحة؟ رح طالِك ولو وصلت للنجوم يا جاسوسة"، قال لها وهو يمدّ رأسه من نافذة سيارته قريباً من الرصيف الذي تقف عليه... "رح إرميك للكلاب يا شرموطة". رغم خوفها كادت أن تبتسم. أرادت أن تقول له إنها ستكتب ولن تتوقف، وإنها تزوجت وأنجبت وإنه رغم وظيفته المخابراتية لم يستطع معرفة ذلك وإنها استطاعت أن تنجو منه، وستنجو هذه المرة ولن يطالها. تعاود السير متجهة نحو الطريق العام تبحث عن سيارة أجرة. فكّرت في الأمكنة التي تركتها منذ غادرت سوريا. في نزهات المشي الطويلة التي كانت تقوم بها في سهول الكرمة في بلدة رمانة في جبل العرب، حيث العشب ربيعيّ رطب. فكّرت أيضا في لقاءاتها مع رفاق الجامعة في دمشق، في أولئك الذين وصلها خبر اعتقالهم منذ عامين، في حبيبها السابق سهيل الذي زارها في بيروت وساعدته لينجو بنفسه ويهاجر كلاجئ سياسي إلى السويد، في الأصدقاء الذين اضطروا للهجرة هرباً من الموت، في والدها الذي خرج من السجن نصف رجل، في جدتها التي يرافقها صوتها رغم رحيلها منذ سنوات. تسترجع سنة وصولها إلى بيروت والسنوات التي تلت، وأيام العطل التي قضتها في البلدة

الصغيرة في بيت جدتها لأمها قبل مجيئها إلى بيروت. تفكر في شقيقتها هناء التي انتحرت هناك ذات صيف. أخفى الأهل انتحارها وصاروا يشيعون أنها ماتت بسبب لدغة سامة لثعبان كان مختبئاً في "الباكه" حيث وُجدت جثتها. "الباكه" تلك الغرفة حيث يضعون المعدات الزراعية والمبيدات ويؤون الحيوانات في فصل الشتاء. لكن نورا تعرف الحقيقة، تعرف كيف ماتت أختها. وجدت رسالتها الطويلة في سريرهما في بيت جدتهما شهلا، أو شاهاني كما تحب دائماً أن تناديها. قرأت نورا الرسالة وأخفتها في عمق الدُرج بين ملابسها الداخلية وحين عادت بعد الدفن من المقبرة كانت تشعر بالإختناق، ترغب بالصراخ لكن كان عليها أن تبقى صامتة كأن سبب انتحار أختها عار عليها إخفاؤه. علاقة مع ضابط سبّبت جنيناً. قال لها تخلصي منه هذا عارك. تخلصي منه! قال ثم غاب وما عاد يردّ على اتصالها. تخلّصت من حياتها. في الليلة التي سبقت انتحار هناء استيقظت نورا على بكاء مكتوم قربها. كانتا تتشاركان السرير، قالت لها إنها آلام الطمث وصدّقتها. تعانقتا ثم عادت نورا إلى النوم تاركة يدها تعانق بطن أختها حيث اعتقدت أنه مكان الألم، المكان نفسه الذي دفع بأختها في اليوم التالي إلى الانتحار.

تذكّرت نورا كل ذلك، فيما رمت بنفسها في سيارة الأجرة، وشاهدته من النافذة جالساً في السيارة المركونة جنب الطريق، وحين أدارت رأسها إلى الخلف رأته يقلع بسيارته ويبدأ اللحاق بها.

"أنت لا تستحقين الحياة!" فكّرت في كلامه الذي ردّده مرات. وشعرت بغضب جارف باستطاعته، لو تحوّل إلى قوة، أن يدمّر

المقعد الذي تجلس عليه، أو أن يقتل ذلك الرجل خلفها. لحظة مثل هذه أعادتها إلى واقع اعتقدت أنها تجاوزته، إلى ماض توهمت أنها تخلصت منه وأنه صار وراءها. لكن لا، فهي الآن أمام باب مسدود ولا تستطيع الإفلات.

نزلت من سيارة الأجرة وأسرعت في الدخول إلى زقاق ضيّق متفرع من كورنيش المزرعة. لم تشأ أن يوصلها السائق إلى بيتها إذ لا تريد أن يعرف ذلك الذي يتعقبها العنوان. دخلت إلى محل سمانة وغابت لدقائق. أرادت الاتصال بصباح لتتأكّد من أنها ذهبت إلى شقتها كما طلبت منها صباحاً وأحضرت كل أغراضها وثياب طفلها وطعامه. أرادت أن تقول لها إنها خائفة وإنها لن تعود إلى شقتها لأنه من الممكن أن يكون من يطاردها قد تحرّى عن مكان إقامتها وعرفه. رنّ الهاتف مراراً ولم يرد أحد. ألقت السمّاعة ثم خرجت قائلة لنفسها إنها ستستقل سيارة ثانية حالما تنجح في تضييعه. لكن فجأة تمهّلت في المشي فيما راحت تستعيد لحظات بداية النهار حين فتح طفلها عينيه بينما كانت صباح تأخذه من بين ذراعيها، نظر إليها لثوانٍ، ثم ابتسم لأول مرة ليعود بعدها إلى النوم.

ثقل يشدّها نحو الأسفل ويمنعها من متابعة السير. فكّرت أنها تدفع ثمن ماضٍ يعود إليها لم تحسن تصفية حسابها معه. لكنها لا تستطيع أن تتابع حياتها بالركض، بالهروب. عليها أن تتوقّف قليلاً لتفكّر وترى ما ستقوم به. أصبحت أمّاً ومستقبل ابنها سيرتبط بماضيها على نحو ما، وهي لا تريد أن تورثه ماضياً مؤذياً. ستتوقف عن السير، فكّرت، وستستدير نحو السيارة التي تتبعها على مهل،

ستضع عينيها في عيني السائق مباشرة وتقول له إنها لن تكتفيَ بنشر قصتها عن هناء، بل ستكتب عنه هو مرة ثانية وثالثة، ستنشر ما كتبته عن السجون التي اختفى في حُفَرها المظلمة الأصدقاء، عن أولئك الذين كانوا زملاء لها في الجامعة حين كانت ما زالت في دمشق، والذين اختفوا بعد ذلك، ولم يجرؤ الأهل على السؤال عنهم.

ربما توقفت عن السير، ربما قالت كلمة أو كلمتين. ربما لم تُنهِ التفكير في كلماتها الأخيرة... ربما عيناها لم تنظرا مباشرة في عينَيه... ربما استدارتها لم تكتمل، ربما فكرت أنّ ما تمرّ به كابوس وستستيقظ منه بعد قليل، أو أنّ زلزالاً وقع وشلّها عن الكلام...

حدث كل هذا في ثوانٍ...

أرادت أن تقول لهناء الّتي أنهت حياتها قهراً إنها نشرت قصتها وإنها استردّت حقاً لها... أرادت أن تقول لها إنهم قتلوها مرة ثانية حين عرفوا الحقيقة وصمتوا بل تواطأوا. أرادت أن تقول لجدّتها شاهاني التي رحلت إنها لم تنس وصيتها أنّ الحياة حقّ. أرادت أن تقول. لكن لم تقل. لم تستطع. لن تستطيع بعد اليوم.

من نافذة السيارة أجهز عليها بكاتم للصوت. رصاصة دخلت رقبتها رمتها أرضاً وأسكتتها. طار المُغلّف الذي كانت تحمله، وطارت الأوراق التي خرجت منه، ارتفعت قليلاً في فضاء يلعب فيه هواء ضعيف ساخن ثم تناثرت على الرصيف الضيّق، ومعها صورة شمسية لطفل رضيع.

خرج رجل المخابرات من السيارة ووقف ينظر اليها ممدّدة على الأرض. اقترب منها ورفعها من ذراعيها ثم جرّها نحو السيارة، رفع

جسدها ودفع به إلى الداخل. أجلسها في المقعد الخلفي وأسند رأسها إلى حافة الباب المغلق. كانتَ دافئة. عيناها مفتوحتان، تنظران باتجاه وجهه وترمشان ببطء. رفع يدها وصار يحاول نزع خاتم ذهبي على شكل ثعبان ملتفٍّ حول أصبعها. شعرت بالألم يسري في أوصالها وهي تحاول بوهن شديد طيّ أصابعها داخل راحة يدها. لا تريد أن تفقد هذا الخاتم بالذات. أغمضت عينيها ورأت ذلك اليوم الربيعي حين تمدّدت على رمال الشاطئ الرطبة. كانت السماء زرقاء وغفت فيما رذاذ الموج يصل إلى شعرها ورقبتها. دفع القاتل بيدها الباردة إلى صدرها كأنه يرميها بعيداً عنه، فيما صدر عنها أنين خافت بينما وضع الخاتم في جيب قميصه. كان الشارع مقفراً، أو هكذا بدا لها، لم يقترب أحد منهما. بيروت يحكمها الخوف والصمت. يذلّها ضابط مخابرات سوري كما أذلّها وسيذلّها الجندي الاسرائيلي، كما ستذلّها الميليشيات في ما بعد، وفي ما بعد. قاد السيارة على مهل ودخل في شارع متفرع في محيط منطقة الجامعة العربية ثم ركنها إلى جانب الطريق مقابل مطعم صغير يؤمه العمّال وسائقو الأجرة. ترجّل من السيارة بعد أن أخذ مسدسه وأغراضه الشخصية ورحل.

انفجار سيارة مفخخة في منطقة الفاكهاني في بيروت. حرائق وسحب دخان. رتل طويل من السيارات المحاذية للمبنى المحترق تشتعل هي الأخرى. إحدى السيارات المتوقفة في أول الشارع الضيّق تناثر زجاج نوافذها وانهمرت عليها الأتربة والحجارة. على مقعدها الخلفي جسد ممددّ لامرأة ميتة، الدماء غطّت رقبتها ولوّنت قميصها القطني الأزرق، رأسها تدلى من المقعد فيما تناثرت قطع

الزجاج المهشّم على شعرها وجسدها.

خبر تلفزيوني يصوّر مكان التفجير وينشر أسماء الضحايا. يقول إن بين الضحايا امرأة في بداية العقد الثالث من العمر قتلت داخل سيارة جراء إصابتها بشظايا الانفجار.

انتهى الخبر.

لم يعرف أحد كيف وصلت تلك المرأة إلى داخل سيارة بيجو مسروقة دون لوحات. لم يعرف أحد أنها أتت إلى بيروت لتلحق بالحرية. لم يعرف أحد أن الصمت الرهيب الذي أرادت كسره أوصلها إلى الموت.

(٢)

حزيران ١٩٩٤

"لوين مدام؟" سألها سائق التاكسي بصوت عالٍ وهو يوقف سيارته قربها وينتشلها من أفكارها التي جعلتها مسمّرة على الرصيف متردّدة إلى أين ستذهب.

مضى شهران على وصول مايا من باريس إلى بيروت. أمور كثيرة حدثت في شهرين. رأت زوجها المصاب بمرض السرطان ينطفئ ويُدفن في بلدته الجنوبية كما طلب. هي وحدها الآن مع ابنها شادي، وعليها أن تقبل بهذه الحقيقة. كأنّه مرّ أكثر من عام على وجودها هنا.

"الأشرفية؟" أجابته مايا، ليأتي جوابها بصيغة السؤال كأنّها تعلم مسبقاً الجواب. أقلع السائق بسيارته محرّكاً بضيق واضح رأسه إلى الأعلى أي رافضاً نقلها. بين شارع الحمراء في بيروت الغربية والأشرفية في بيروت الشرقية مسافة تقلّ عن ٥ كيلومترات، يرفض غالباً سائقو السرفيس اجتيازها مفضّلين نقل الركاب المتوجهين إلى الجهة الجنوبية من بيروت والتي تبعد أكثر من ذلك. يختارون

الذهاب باتجاه جنوب المدينة رغم المسافة البعيدة، ورغم الازدحام هناك. خط التماس بين البيروتين، وإن أُزيلت آثاره منذ انتهاء الحرب، بقي راسخاً في رؤوس الناس.

ما زال جرح فقدان زياد نازفاً. وصلا مع ابنهما شادي إلى لبنان وبعد أسبوعين مات في المستشفى. لم تدرِ كيف تدير حياتها وحياة ابنها منذ علمت بمرض زياد. كأن الموت صار بينهم وباتوا لا يفعلون شيئا سوى انتظاره. أضاف المرض الى عائلتها المؤلفة من ثلاثة أفراد رقماً جديداً. المرض كالضيف الثقيل، موجود بالقوة، نحسب له حساباً ونحلم بالتخلص منه، وحين نعي حقيقة بقائه أكثر مما نحتمل نبدأ بالتعامل معه بشكل مختلف. في بداية الأمر صارت تعمل بشكل آليّ، تطبخ بشكل آلي، توصل شادي إلى حضانة الأطفال، ثم ترافق زياد إلى جلسات العلاج الكيميائي، ثم تعود وتبدأ عملها اليومي. كانت حينها تعمل في البيت كباحثة ومساعدة لمخرج فرنسي يقوم بإعداد أفلام تسجيلية عن المدن العربية. صارت أحيانا تقف في وسط المطبخ لدقائق تحدّق في الفراغ من نافذته الضيّقة. ترفع نظرها ليصطدم في الجهة الأخرى من الشارع ببنايات رمادية عالية. تشعر بعجز تام. شيء ما يشبه الشلل يمنعها لوقتٍ قصير من الخروج لشراء أغراض تحضير الطعام.

أخيرا توقف أحدهم. تململ حين فتحت مايا باب السيارة الأمامي لتجلس قربه. جلوس سيدة في المقعد الأمامي قد يسبّب خسارة راكب خامس في حال امتلأت المقاعد الخلفية الثلاثة. كثير من الرجال يشعرون بالحرج ويتردّدون قبل الجلوس في المقعد الأمامي

قرب امرأة. انطلق بعصبية قبل أن تنتهي من إغلاق باب السيارة بحيث مال جسدها بقوة إلى الخارج. "يا الله" سمعت نفسها تقول، وأرادت أن تعاتب السائق على سلوكه العدواني، إلّا أن نظرة واحدة منها إلى وجهه العبوس جعلها تَعدل عن ذلك. بدا كبرميل بارود يوشك أن ينفجر. حدث كل ذلك بلحظة، ودون أن يهتم السائق أو أن يقول أيّ كلمة كالاعتذار مثلا. تفكر أحياناً أن الكلام ما عاد ينفع وأن الصمت في جو مشحون ومتوتّر، كجو بيروت الخارجة من نفق حرب طويل، هو حلّ مثالي للإقتصاد العصبي.

لكن ذلك الاقتصاد العصبي الذي اختارته مايا لم يُثمر، إذ فجأة انطفأ محرّك السيارة وسط الجسر الذي يؤدي إلى ساحة السوديكو. خرج السائق وبدأ بالسباب وهو يرفع الغطاء الأمامي للسيارة. ثم عاد إلى مقعده، ودون جدوى حاول أكثر من مرة أن يعيد تشغيل المحرّك.

"يلعن هالنهار... ما هُوّي مبين عاطل من أوله، شو جابني لهون"! قال ثم خرج ثانية من السيارة وبدأ بتفقّد المحرك مرة جديدة محاولاً تشغيله. بعد دقائق اقترب وفتح باب السيارة من جهة مايا قائلاً لها بنبرة حاسمة لا تُساوم:

"يا اختي انزلي هون، الله يسهّلك وهاي الألف ليرة اللي دفعتيها...".

كانت مايا قد بدأت بالتفكير أن أمراً ما سيحدث قبل وصولها إلى المقهى الذي افتتحته صديقتها سارة. لذا حين سمعت صوته، لم تحتج، بل بدأ جسدها المستنفر بالتراخي، وتحرّك بتلقائية صوب

الخارج كما لو أنه كان مستعداً لذلك. أمسكت بحقيبة يدها تاركة النقود على المقعد، وسارت صوب تقاطع بشارة الخوري السوديكو وهي تنظر إلى أشكال الغيوم المبعثرة التي تركها الربيع خلفه في سماء حزيران.

لم يخطئ نازار مصلّح الأحذية في بناية الستراند حين قال لها بالأمس: "كلو هون... هون بالراس... بالراس... بيروت بعدها مقسّمة هون... هون..." وهو يشير بسبابة يده اليمنى إلى صدغه. أتت تأخذ أحذيتها القديمة التي قام بطلائها وإعادتها "جديد متل ما كان" كما يحلو له أن يقول، وهو يضيف بلكنته الأرمنية المحببة "بيروت مقسوم مش بس لَتنين... لَميّة بيروت... انتَ وحظّك وين بتوقع...".

هون هون بالراس يقولها دائماً نازار ليس فقط ليصف بيروت بل حين يحكي أيضاً عن يريفان عاصمة أرمينيا بلاد الأجداد التي زارها مؤخّرا والتي عاد بعدها إلى بيروت مع شعور كبير بالفقدان. بقي يحلم بها لمدة ٦٠ عاماً هي عمره تقريباً الذي قضاه في بيروت. زيارة واحدة لها كانت كافية كي يعلم أنه خسرها إلى الأبد.

يريفان تلك التي يحلم "هون هون بالراس..." قال لمايا بصوت منكسر أفقدت الخيبات صاحبه الكثير من العناد والثقة.

ازداد نازار سمنة وصلع رأسه تماماً. أخبر مايا التي عادت إلى لبنان، أنه فقد أمه منذ عامين. كان يعيش معها في شقة قرب فندق ماي فلاور ليست بعيدة عن عمله. صار وحيداً. تذكُر مايا المرة الأولى التي دخلت مبنى الستراند تفتش عن محله. نصحتها سارة

به. سألت الناطور في الطابق الأرضي عنه، "نازار الأرمني؟" أجاب بصيغة السؤال. لا يعلم أحد اسم عائلة نازار، يكفي القول إنه أرمني كي تتحدّد هويته. الأرمن لبنانيون منذ أكثر من ٧٠ سنة إلاّ أن هذا الأمر لا يغيّر شيئا لمن لا يستطيع العيش إلّا خلف جدران تحدّد درجة التواصل، وترسم الحدود بين الناس.

كانت تزور نازار دائماً قبل سفرها، تجلس على كرسيّ خشبي خاط له غطاءً جلدياً أحمر اللون، تراقبه وهو يعمل وراء ماكينة خياطة الأحذية أو قرب الطاولة الصغيرة المليئة بكل أنواع الصباغ. يطلب لها قهوة ويدعوها للبقاء لوقت أطول. كان يكفي طرح سؤال صغير كي يبدأ بالإجابة ولا ينتهي. تعلم أن ذاكرتها ضعيفة لذا تجد نفسها أحياناً تدوّن جملة قصيرة أو جملتين مما قاله. اليوم أعطاها عدداً قديماً من مجلة لبنانية تصدر بالفرنسية حَوَت ملفاً عن أرمينيا. قال لها إنه احتفظ لها بالعدد كي تقرأه، ثم طلب منها العودة بعد ساعتين لأخذ الأحذية.

طالما رغبت مايا بتصليح أحذيتها عند نازار. ترمي الحذاء حين يحسم نازار أن من الصعب تصليحه. تفكر أن علاقةً ما تنشأ بين الأحذية وأصحابها. علاقة مختلفة عن علاقة الفرد بمحيطه الحميم من الأشياء. ترنّ كلمات صديقها المخرج الفرنسي برونو حين وصلت لاهثةً إلى مكتبه الباريسي بحذائها المبلل بالمطر والثلج كيف أن الحذاء يأخذ شكل قدم صاحبه ويحمل تاريخها، رغم ذلك تبقى للأحذية ذاكرتها المستقلة عن ذاكرة الناس، إذ تعيش التجربة وترى العالم من مكان مختلف.

نزلت درج الستراند نحو شارع الحمراء، مشت باتجاه مقهى الويمبي. إنه نهار لطيف رغم انتهاء فصل الربيع. تغير الشارع منذ تركها لبيروت. احتضر لسنوات، وبدا الآن كأنه يستعيد جزءاً من حياة سابقة، شيئاً من وهجه بعدما تحوّل في الحرب إلى أوكار للمخابرات ومراكز لتصفية المخطوفين، أو مكاتب لميليشيات محلية تمتهن السرقة.

شعرت بغبطة أن الحياة تستعيد نبضها ولو ببطء فيما كانت تعبر الشارع وتتفرج على واجهات محلات جديدة تحمل أسماء عالمية. رأت في نواحٍ مختلفة ومحيطة إصلاحات وإعادة بناء. لن تعلم في تلك اللحظة أن المقهى الذي تتوجه اليه والذي قاوم سنوات الحرب سيهزمه السلم وسيغلق ليتحوّل إلى بوتيك كبير للملبوسات الجاهزة. واجهات تأخذ رونقاً جذاباً إلا أنها تخفي وراءها ذاكرة طافحة بالفقدان. بيروت معمل تصليحات عملاقة ليس فقط للأحذية والأبنية. الناس أيضاً يخرجون إلى شوارعها بوجوه وأجساد جديدة. رغم شبابها المشغول والمستعاد بمشرط، تحمل الوجوه ذاكرة ألم سابق يصعب محوه. بيروت مدينة الميتامورفوزيا. ميتامورفوزيا ليس بالواقع فحسب بل بالرمز أيضا. ولسبب ما، يحمل الوجه الجديد، الذي يخرج به المرء، عنف الماضي وذاكرته المرفوضة. كأنّ تلك الذاكرة تصير، برفضها، أكثر حضوراً وقوّة، ويجد العنف طريقه إلى الخارج ويصير أكثر شراسة.

بدا انعكاس جسدها على زجاج واجهة الملابس كطيف صديق لم تره منذ زمن. كم مرّ من الوقت دون أن تلمسه يد رجل. تابعت

إلى المقهى وهي تتحسّس وجهها، تمرّر عليه أصابعها كأنها تريد التأكد أنه لم يتغيّر بعد، وأنه ما زال مرآة روحها. لكن كيف لها أن تعلم أن وجهها ما زال هو، وأن المرأة التي كانت، ما زالت تستطيع التعرف إليه؟

دخلت الويمبي وطلبت فنجان قهوة وعلبة سجائر جيتان لايت بعد أن جلست في مكان قريب من الواجهة الزجاجية. ما زال الوقت مبكرا لوصول داني، زميلها القديم منذ أيام الجامعة في بيروت، والذي تتعاون معه الآن لتصوير فيلم عن إعادة إعمار وسط بيروت. أخرجت من حقيبتها الدفتر الذي بدأت تكتب عليه خطوطاً عريضة لسيناريو الفيلم. في الجزء الأوّل من الدفتر مقاطع من بحث تقوم به حول حياة أسمهان. عليها أن تترك كل كتابة جانباً والتفرّغ لإنجاز الفيلم أوّلاً. لكن كل مرة تحاول الكتابة تجد نفسها تكتب عن حياتها هي، عن رفض زياد لها ولأنوثتها منذ أن حملت بابنهما شادي. الآن تكتب عن رحيل زياد، وعن موتٍ تقاومه في داخلها منذ عودتها. فكرت أنها لن تستطيع أن تكتب سيناريو حول إعادة إعمار المباني، لن تستطيع أن تقوم بعمل مماثل وهي مشوّشة إلى هذا الحد. ربما عليها أن تقول ذلك لداني حين يصل.

تشعر بذنبٍ وطأته أثقل من فقدان زياد. هل تستطيع أن تكمل حياتها إن لم تستطع أن تتصالح مع موته. أسابيع ستة مرّت على رحيله. قلبها مثقل بشيء ضبابي، كأنّه مليء بالخسارة، تفكر بحياتها الماضية والحاضرة، بجفاف ما يقارب الأربع سنوات عاشتها دون أي لمسة حسية مع الرجل الذي يشاركها الفراش، بالكلام الكثير

الذي بقي معلّقا في حلقها ولم تقله. تفكر بكل ذلك وبما ستفعل غداً وبعد غد واليوم الذي يليهما.

"من الصعب أن نفكر بالغد ونرتبط بالحياة إن لم نتعلم أولاً كيف نحيا مع الفقدان"، تكتب.

قرّرا العودة من فرنسا إلى لبنان لأنّ زياد أراد الموت في قريته. أراد أن يُدفن الى جانب أمّه. إنها المرة الأولى التي يصرّ فيها على قرار ولا يتراجع. لم تعترض مايا على قرار زياد بالعودة، لم يصدّق خطورة مرضه في بداية الأمر. كان يقول لها سأنهض من جديد، وكان يذبل كل يوم. لكنه استسلم بعد حين وبعد تكرار جلسات العلاج الكيميائي الموجعة دون نتيجة. لم تشعر في حياتها بالضعف كما شعرت به منذ أن أعلنت لهما الطبيبة نتائج الفحوصات. "قد يعيش سنة أو أقل بقليل. هذا كل ما عندي". قالتها الطبيبة هكذا ببساطة ودون أيّ مقدمات. لم يكونا، لا زياد ولا هي، مهيّئين لسماع حقيقة كهذه. كانا مشغولين في تحضير انفصالهما وفي إلقاء كل واحد اللوم على الآخر لفشل علاقتهما التي لم يدم وهم سعادتها أكثر من ٧ سنوات سبقت حملها. ولادة شادي كانت الحدث الأهم في حياتها، ليس فقط لأنها أصبحت أمّاً، بل لأن زياد بدا رجلاً آخر لا يشبه الرجل الذي التقته قبل ٩ سنوات.

كان كل مرة يؤجل الحديث الذي تبدأه حول رغبتها بإنجاب طفل. وكانت تصمت دون حماسة بعد أن تسمع جملته: "منحكي مرة تانية" وبدأت تقرأ أن الحمل في سن متأخرة قد يكون ضاراً بالطفل فضلاً عن أنها كانت تخاف أن تفقد الرغبة بالإنجاب

وبالأمومة اذا طالت مدة رفض زياد للفكرة. الآن تتعجّب من أنها لم تسأله فعلاً وبالعمق عن أسباب رفضه، بل اكتفت بسماع حجج عديدة كرّرها مراراً كالقول إنّ شقتهما المؤلفة من غرفة نوم وصالةً هي أصغر من أن تتّسع لثلاثة، وإنّ ما يجنيانه لا يكفي لتغطية حاجيات طفل.

ترعبها فكرة أن يأخذ أهل زياد يوماً ابنها منها. تعلم أنّ العلاقة معهم شبه منقطعة. في البداية لم تكن تهتمّ، أما الآن، وبعد موت زياد، فصار من الضروري التعاطي معهم مباشرة دون وسيط، فهي تخاف خسارة شادي. الشّرع الإسلامي يقول إنّ حقّ حضانة الطفل الذي بلغ السابعة يعود لأهل الزوج، للجد والعم، بعد موت الأب. هذا يعني أنّ شادي سيبقى معها حتى سنّ السابعة ثم سيأخذونه. هذا هو السبب الوحيد الذي قد يدفعها للعودة إلى فرنسا. ستنفذ قرارها هذا دون شك قبل أن يبلغ شادي السابعة، وبطريقة أسرع بكثير من قرار سفرها لأول مرة، حين بقيت لسنوات تفكر بالهجرة قبل أن تحزم حقيبتها وتصل إلى المطار. تتأخر باتخاذ القرارات. تؤكد أمّها عايدة ذلك الطبع الذي أصبح جزءاً من شخصية مايا. قالت إن بطء ابنتها قديم منذ أن كانت في رحمها، إذ ترددت قبل أن تنزل إلى العالم الذي تَكشّف لها ظلامه وهي تجتاز عتبة مراهقةٍ ترافقت مع حربٍ طالت ولم تنته.

كأنّ حياتها هناك في فرنسا كانت حلماً. ١٠ سنوات مرّت كزمن وهمي. بدا حقيقياً فقط بعد ولادة طفلها. بقيت ٧ أيام في عيادة الولادة في باريس وأسبوعاً آخر في البيت بانتظار وصول أمّها التي

تأخرت بسبب إجراءات الفيزا في السفارة الفرنسية في بيروت، وهي تعد الأيام لا بل الساعات. لم تكن تعرف كيف تعتني بطفل. ملأت أحد الرفوف كتباً عن كيفية الاعتناء بمولود جديد إلا أن قراءتها لم تمنحها ثقة بالنفس. لم تهتم سابقاً بالكتب المتعلقة بالأطفال. اهتمامها الاساسي هو في اقتناء الكتب القديمة التي نفدت وفُقدت من المكتبات. تفتش عنها لدى صاحب مكتبة إبن سينا في باريس، وتبحث في سوق البرغوث وفي مكتبات وأماكن شعبية لا تعدّ. هي الصغرى في عائلتها المؤلفة من بنتين وصبي. لم تر في بيت العائلة طفلاً ولم يسبق أن اعتنت بطفل. حين عادت من المستشفى مع مولودها إلى شقتها الصغيرة بقيت تنظفه بقطنة مبللة باللوسيون وماء كولونيا الأطفال. لم يتعرف طفلها إلى الماء منذ أن خرج من رحمها. كانت تخاف أن تضعه في المغطس الصغير. تعتقد انه قد يمرض مثلا، أو أن تصيبه الرطوبة بداءٍ صدري لا يشفى منه. وحين وصلت عايدة من بيروت أول ما قامت به هو أن خلعت عن شادي ملابسه وسكبت عليه الماء الدافئ وتركته يحرّك رجليه في الماء فرحاً، ويصدر أصواتاً كشهقات متقطعة بينما يداه ترسمان شبه دوائر في الهواء.

جلست مايا على كرسيّ واطئ قرب عايدة التي بدأت تمرغ الصابون السائل على جسد شادي وهي تردّد بصوت لا يخلو من حنان:

"كيف ولد بدّو يربّي ولد"!

أنا مش ولد يا ماما. ما تنسي صار عمري ٣٧ سنة. اللي متلي بالضيعة بلبنان ناطرة تصير تيتا!

تقاطعها مايا معترضةً، لكن عايدة لا تصغي لكلام مشابه، إذ الأولاد لا يكبرون بالنسبة لها ويبقون أولاداً حتى لو تجاوزوا الثلاثين وصاروا آباءً وأمّهات. كانت سعيدة أن ابنتها تركتها تهتم بشادي أثناء إقامتها عندها في باريس. مدة كافية كي تتخلص من خيبةٍ عاشتها حين وُلدت الطفلة الأولى لابنها نديم. سافرت إلى مونتريال معتقدة أن زوجة ابنها الكندية ستفرح بوجودها واهتمامها بالمولودة الجديدة. إلا أنها منعتها من لمسها. خشيت الشابة أن تلتقط ابنتها الرضيعة أي "ميكروب" حملته الجدة في أنفاسها من لبنان الذي تشتعل فيه الحرب وتنعدم معها الخدمات الصحية والشروط الأساسية للعيش.

كانت مايا سعيدة بوجود عايدة رغم ترتيبات خاصة اتخذتها كي تتّسع الشقة الصغيرة ليس فقط لمولودها الجديد بل لأمّها أيضاً. أعطتها غرفة النوم الوحيدة لتنام في سرير الزوجين، قريباً من سرير الصغير، بينما انتقلت هي إلى الصالة مع زياد للنوم على كنبة كبيرة تتحوّل إلى سرير عريض اشترياها خصيصاً قبلِ وصول عايدة. لم يكن هذا الترتيب عملياً لمايا وقت إرضاع شادي من ثديها أثناء الليل، لكن هذا التدبير لم يزعجها، بل غمرها شعور عميق أن طفلها في أيدٍ أمينة تثق بها.

تحوّلت الشقة الباريسية الصغيرة خلال اقامة الأم إلى بيت ترنّ فيه الضحكات وتصدح أغاني أسمهان وفيروز في فضائه الصغير فيغدو أوسع وأكثر رحابةً، بينما تنتشر في المطبخ روائح التوابل والنكهات الشرقية التي حملت عايدة موادّها من بيروت. تعرفت عايدة إلى جيران عرب يقيمون في الشارع نفسه، وكانت مايا تعجب من سرعة

أمها الهائلة في التعرف إلى الناس وفي دعوتهم إلى تناول المغلي وشرب القهوة. وحين يعود زياد من عمله يجد الصالة مليئة بضيوف لم يرهم من قبل سوى أمام المصعد أو في الطرقات القريبة لمبنى ١٠ شارع جاندارك حيث شقتهم. يحييهم من أمام باب الصالة دون أن يقترب ثم ينسحب بصمت نحو غرفة النوم التي يجد بابها مغلقاً كي لا توقظ أصواتهم شادي، فيعود ويدخل المطبخ ويجلس هناك يشرب الشاي في المساحة الوحيدة الخالية. بدا زياد حينها كالغريب، وسط أناس وُجدوا بمناسبة ولادة الطفل الذي رفض لسنوات فكرة إنجابه. كان فخوراً بنفسه أنه تلّقى رسالة جوابية بالموافقة على طلبه بإضافة ساعات لتعليم اللغة العربية في الجامعة، ولم يجد فرصةً لإطلاع مايا، المأخوذة بأمور أمومتها الجديدة، على هذا الأمر.

(٣)

تموز ١٩٩٤

أوقفت مايا السيارة على كورنيش المنارة جهة البحر. ترجلّ ابنها شادي بغضب كأنه مرغم. كانت قد بدأت تفقد صبرها، فهو لا يريد المشي ولا يريد أن يكون بجانبها، ولا يريد أن يصغي لما تقول. وقفت قرب السور الحديدي تشير له بيدها إلى السفينة البعيدة التي تبدو كأنها معلّقةٌ على خط الأفق. قالت له إنّ السفينة ستبقى هناك منتظرة كي يهدأ البحر. تابعت أنها هي أيضاً، كالسفينة تلك، ستنتظره هنا كي يهدأ ويصغي إليها. كان الموج يرتفع ويضرب السّور الأخضر الذي تحوّل لونه إلى بنيّ صدئ. تراجعا قليلاً كي لا يصل رذاذ الموج إليهما. قال لها معترضاً وهو على وشك البكاء إن هذا البحر صغير، وإنه وسخ أيضا وهو لا يحب المكان هنا، وإن مياهه مالحة.

لكنّ كلّ مياه البحور مالحة، قاطعته.

لم يجبها. أفلت يده من يدها فجأة، وصار يركض باتجاه معاكس لوجهة سيرهما وهو يصرخ حانقاً

je n’aime pas ici, je veux retourner chez nous...

لا أحب هنا، أريد العودة إلى بيتنا

توقف واستدار ناحيتها، نظر إليها بغضب وقال لها بصوت منكسر

إنه لا يحبها هي أيضاً!

ثم ازداد بكاؤه.

بدي تيتا عايدة!

أراد شادي العودة للبقاء مع جدته. رفض متابعة السير معها. فكّرت مايا قليلاً ثم قررت أن تعود إلى السيارة وتصطحبه إلى البيت.

رح نرجع!

قالت له بجدية في السيارة فيما كانت تربط له حزام الأمان في المقعد المخصص للأطفال. إنها ليست المرة الأولى التي يعبّر فيها شادي عن ضيقٍ وعصبيّة. تفهم مايا كلّ ذلك، وتفهم أيضاً أن الأطفال، ولو في سنّ مبكرة، يشعرون بالفقدان، يشعرون أيضا بالخسارة وانعدام الحب بين والديهم. تذكّرت مايا ما قاله لها زياد في المستشفى الباريسي قبل عودتهم إلى بيروت مغالباً نعاساً قويّاً بعد أن أعطته الممرّضة مهدئ الألم.

"لا أفهم لماذا ما زلتِ هنا؟ أنت طلبتِ الطلاق!".

فَكّرتْ بما يقوله ولمَ تجب. لم يفهمَ حينذاك أنّ انفصالهما في تلك المرحلة الحرجة من وضعه الصحيّ لم يعد يعني لها شيئاً وأنها ما عادت غاضبةً منه، وأنها تريد فقط أن يغفر لها إن سبّبت له الأذى، وأن لا يشعر هو أيضاً بالذنب تجاهها. لم يدرك أنها كانت تستطيع أن تختلف معه وتفترق عنه حين كان ما زال يملك غَدَه، كانت تستطيع هجره دون رحمة وهو في كامل صحته بعيداً عن شبح الموت. لكن

كيف بوسعنا التخلّي عمّن لا غد له؟

في تلك الليلة لم تستطع تركه في المستشفى والعودة إلى البيت. بقيت مسمّرةً على الكرسي البلاستيكي أمامه. كانت تفصل بينهما أمتار قليلة في الغرفة، هي المساحة التي يحتلّها سريره والآلات الطبية التي تحيط به. كانت تنظر إليه كما لو لم تره من قبل. شكل عينيه، تدويرة وجهه، ولون شعره، تشاهد المعدّات حوله والكيس الشفّاف الذي يصل المصل بشرايينه عبر يديه. فكرت أنها لم ترَ يديه بتلك الدّقة من قبل. لم تنتبه لهما، بقيتا تعانقانها في السرير لسنوات قبل ولادة شادي. رغم ذلك لم تنتبه كم أصابع يديه نحيلة ورقيقة وهو مستلقٍ على سرير المستشفى. نقضي سنوات مع آخر ولا ننتبه لشكل يديه إلا لحظة الفراق، تفكر مايا وهي تراقب نقاط المصل تنزل من الكيس المعلّق فوق رأسه، يلمع النور على جوانبه ويعكس ألواناً متماوجة يطغى عليها اللون الرمادي. تسيل النقاط في الأنبوب المطاطي الطويل المتصل بشريانه، عبر إبرة صغيرة غرزت في ظاهر يده التي اصطبغ جلدها بلونٍ أزرق مائل إلى البني.

تُغيّر عبوة المصل كما علّمتها الممرضة، رغم ذلك تضغط على زر الجرس بعد انتهائها. ليست متأكدة من كمية السائل الذي يدخل في عرق يده اليسرى. ليست متأكدة أنه كاف. ليست متأكدة من وضع الإبرة. تقول لنفسها إنها ليست متمرنة فلماذا يُطلب منها القيام بذلك وهو ليس عملها. أنا لست ممرضة ردّدت حينها بصوت مسموع، وانتبهت فجأة إلى أن ما قالته قد يكون أزعج زياد.

التقت عيونهما للحظات صامتة ثم افترقت.

(٤)

سنوات باريس

في بداية حملها بشادي، وكانت ما زالت في فرنسا، استيقظت مايا فجراً لتجد أن زياد قد بدأ تقريباً بممارسة الحب معها وهما ما زالا شبه نيام. كان حلمها ما زال عالقاً في رأسها: تنفض كتباً قديمة وجدتها بين أكوام هائلة من الردم والدمار. ترتّب الأوراق الممزّقة وتحاول إعادتها للكتاب. تجمع ملابس طفل من على حبل غسيل فوق سطح بيت أهلها الجبلي في لبنان، ثم حين تنتهي لا تعود تجد الدرج للنزول. بدأت تحكي له ما رأت في نومها، فيما راح عضوه يشي بفقدان رغبته. اقترب بعد قليل وقبّلها على رأسها وهمس لها أنه سيحبها إلى الأبد. شعرت أنه يقوم بمجهود كبير كي يقول كلماته تلك، كأنه يقنع نفسه أن حبَّه لها لن يتغيّر رغم حملها أو رغم حياة أخرى له تجهلها. شعرت بكل ذلك ولم تعرف كيف تعبّر عنه.

"لكن لا نستطيع أن نتحكم بعواطفنا"، قالت له كأنها في مكان آخر. نظر إليها مستفسراً ومستغرباً ردّها. كلماتها أخافته، ربما كانت

مرآة لمشاعره التي لم يشأ الاعتراف بها. لا بد أنها آذته بطريقة أو بأخرى، ذلك أنه يشعر في أعماقه أنها تقصد عواطفه وتبدّلَها. طال الصمت بينهما، قطعته بعد لحظات لتقول إنها لا تدري ما الذي دفعها إلى إجابة مماثلة وإنها ليست على ما يرام.

"ربما جوابي لم يكن سوى لهّاية لقلقي" قالت.

"Tétine pour mon angoisse"

قلق انتهاء الحب، فكرت.

مرّر أصابعه على صدرها العاري وهو ينظر إلى وجهها. بدا كأنه ينظر في الفراغ. أدارت ظهرها تحاول استعادة النوم. كانت مجروحة من أمر لا تحسن التعبير عنه وعلى وشك البكاء. كانت المرة الأخيرة التي تعانقا فيها وهما عاريان.

تذكر تلك الليلة جيداً، إذ بعدها ما عاد يقترب منها. رغم ذلك بقيت توهم نفسها أنّ كلّ شيء على ما يرام. كأن تقول إنها سعيدة بما تحمل في أحشائها ولا تشعر بحاجة إلى أن تشارك أحداً هذا الحب الذي ينمو. الحب موجود، فكّرت مايا، "زياد همس به مرّات في أذني أثناء الحب حين كان يبقى في داخلي ولا يخرج مني إلّا حين أطلب منه وسط نعاسي". لكن بعد ولادة شادي فقدَت ذلك الشعور الفريد بالبهجة. صار زياد يبتعد أكثر، ثم انتقل للنوم في غرفة الجلوس. كان ذلك الابتعاد أشبه بتآكلٍ بطيء لمعدن العلاقة الذي تحوّل مع الزمن إلى ذاكرة صدئة. التجأت إلى صديقهما الفرنسي برونو في شقته ذات مساء وبدأت بالبكاء بعد أن خلعت ملابسها، فيما راحت تسأله بصوت عالٍ: "هل أنا امرأة؟ أينقصني شيء؟ ما

الذي حدث حتى تحوّلت الشهوة كل مساء إلى رماد بيننا، وبتنا مع كل صباح نقتل الحب، وهل كان علينا قتله كي نؤكد وجوده؟".

وقف برونو مشدوهاً أمام عريها وأمام غرابة الموقف، فيما استمرت في السؤال وهي تجهش كطفل "هل أنا امرأة؟ أجبني!"

وقفت مايا لتخرج من غرفة المستشفى في باريس إلى الرواق الطويل اعتقاداً منها أن زياد قد نام. لمعت في رأسها ذكرى لقائهما الأول، بل موعدهما الأول. ذلك أن اللقاء الأول بادر إليه برونو، المخرج الذي بدأت العمل معه وهو صديق لزياد. أرادا مشاهدة فيلم "تحت البركان" الذي صوّر في المكسيك، والتقيا أمام مدخل السينما واكتشف وهو يضع يده في جيبه أنه نسي محفظته في بنطلون الجينز الذي كان قد بدّله قبل الخروج. بدا قلقاً وخجولاً. في تلك اللحظة أحبّت قلقه وشعرت كم هو هشّ وضعيف. أخذت النقود من حقيبتها ودفعت بها إلى الشابة الجالسة خلف شباك التذاكر. كان سلوكها تلقائياً ولم تفهم لِمَ عليه الاعتذار. ثم نسيا الموضوع بعد وقت وعاد زياد إلى هدوئه. خرجا ثم مشيا لأكثر من ساعة من الحي اللاتيني إلى المدينة الجامعية حيث غرفة مايا، وتحدثا عن الفيلم وعن المكسيك التي زارها زياد للتعرف إلى عمه المهاجر وأبناء عمه الذين ولدوا هناك. عن يوم الموتى وعن أعياد المكسيكيين وعن الرضوض التي تحفر في روح المرء وتغيّر حياته.

العلاج الكيميائي الذي خضع له زياد في باريس كان يبقيه ليلة واحدة بعد كل جلسة في المستشفى. لم يستطع جسده تحمّل تأثيرات كل جرعة. كان عليه أيضاً أن يتلقى علاجاً لمنع التقيؤ. اسودّ

لون جلده، وكلحَت سحنته. هالة كبيرة داكنة أحاطت بعينيه وغيّبت حدّة نظرته وإشراقتها. تعانقه مايا وتشعر أنها تفتش عن ماضٍ لم يبق منه سوى أثر صغير.

لبست معطفها ونهضت لتعود إلى البيت، إلا أن شادي أراد البقاء مع زياد الذي بدأ يتوتر من نقاش الاثنين في غرفته. منذ مرض زياد صار شادي عصبياً وعدوانياً. قال لها مرة وهو يبكي:

"إنت ما بتحبي البابا...".

خرجت الى شرفة غرفة المستشفى الضيقة تاركةً شادي يلهو بسيارته الصغيرة على السرير قرب زياد. نقاط المطر تبلّل سور الشرفة المعدني. تركت الرذاذ يصل إلى شعرها وكتفيها، اندفعت دموعها دافئةً على وجهها فيما نفثت دخان سيكارتها في هواء المساء الثقيل. الضباب يغطي المسافة بين الشرفة والأشجار الكبيرة التي تملأ حديقة المستشفى. شتاء لا شمس فيه رغم حرارة دافئة لم تشهدها باريس منذ سنوات. مسحت دمعها وفكرت للحظة ببصلات الزنابق التي زرعتها في أواخر تشرين الأول والتي رأت براعمها هذا الصباح تخرج إلى النور في الأصص الموزعة على شرفة الشقة الصغيرة. لم يأت الربيع بعد، لكن الطبيعة فقدت عقلها وصارت تزهر في الشتاء. أطفأت السيكارة ودخلت الغرفة ثانية. هدوء في الداخل. لا يريد شادي العودة إلى البيت رغم أنها السابعة مساء. أحياناً تشعر بعجز تام يفوق قدرتها على مواجهته. تسيل نقاط وتنزل في الأنبوب لتدخل شريان زياد وتختلط بدمه. صار عليه الاعتماد على المصل كتغذية له، إذ لم يعد بمقدوره تناول الأطعمة بشكل دائم.

سمعت رنيناً يأتي من حقيبتها، راحت تفتّش عن الهاتف النقّال في قعر الحقيبة ولم تجده. صَمتَ الهاتف، فتنفست الصعداء، إلّا أن صمته لم يتجاوز دقيقة واحدة قبل أن يعاود الرنين ثانية. مَنْ ذلك الذي يصرّ على الإتصال؟ وجدت المحمول وأخرجته بعناء، ونظرت إلى الرقم، أختها ندى تتصل من بيروت. خرجت ثانية إلى الشرفة كي لا تزعج زياد. أجابت وقالت إنها في المستشفي وإن زياد كما هو. عليها كل مرة البدء من الصفر مع ندى، أن تخبرها عن حالة زياد من البداية.

"وأنت كمان بوسي الماما"، أنهت حديثها وشعرت بالانقباض. كل مرة تهاتفها ندى تداهمها مشاعر مشوّشة من الخيبة والندم لا تعرف كيف تتعامل معها. ساءت علاقتهما خريف العام الماضي حين أتت مع زوجها إلى باريس، وأخبرتها مايا عن رغبتها بالطلاق. حدث هذا قبل اكتشاف مرض زياد.

التقتا حينها في مقهى، وفاجأتها ندى بأسئلتها التي لم تتوقف:

"بيضربك شي؟"

أجابت مايا بسرعة، متعجّبة من سؤالها:

"لا طبعاً لا...!"

"بيبخل عليك؟"

تردّدت ثم قالت:

"لا!"

"بيحشّش؟ بيتعاطى؟ بيصاحب عليك؟ قمرجي؟"

"القصة مش هون يا ندى... انت مش عم تفهمي وضعي".

كأنها لم تسمع ما قالته مايا، تابعت ندى أسئلتها وهي تخفض صوتها كأنّ ما تقوله سرّ:

"ما بيقوم معو؟ أو يمكن العكس بيطلب منك إشيا ما بترضي فيها بالفرشة؟"

رغم توتّرها وضيقها تفاجأت مايا بتلك الأسئلة الأخيرة وأخفت خجلها خلف ضحك متواصل عالٍ. لم تتوقّع أن تصل ندى إلى موضوع الفراش والعلاقة الجنسية. هما أختان صحيح إلا أن فارق السن بينهما لم يسمح لمايا أن تتخذ من ندى صديقة لها، ناهيك عن سفر مايا وابتعادها عن البيت والعائلة. واصلت ضحكها المتوتّر فيما أبدت ندى تعجبها وهي تقول:

"كوني صريحة معي، نحن أختان!"

توقفت مايا عن الضحك. بدا أنها فقدت أي رغبة بمتابعة التحدث مع ندى. شبكت كفيها خلف رأسها فيما راحت تنظر إلى السماء.

كانت الشمس تسطع في فضاء باريس، بدا كيوم تاريخي بالنسبة لمايا. مضى شهر كامل لم تر الشمس فيه، ليس غير اللون الرمادي الغامق وسماء واطئة ثقيلة على القلب وعلى العين تكاد ترتطم بسطوح المباني. أرادت أن تستعيد بهجةً، ولو قليلة، ذلك اليوم، كحيوان أليف ينفض عنه رطوبة كئيبة ويبحث عن الدفء. لكنّ أسئلة ندى كانت ضاغطة بحيث شعرت مايا معها كأن رأسها تحت الماء. رفعت وجهها إلى الأعلى تأمل أن تنهي ندى كلامها، أن تتوقف عن حديث يزيد من إحساسها بالوحدة ومن شعورها أنها سترتطم بحائط مقبل لا مفرّ منه، وما عليها سوى مواجهة ما تمرّ به وحدها، فيما

تابعت الأُخرى أسئلتها التي بدت لمايا كأنها لا تشبه ندى بشيء. الصورة التي حملتها عن شقيقتها حين تركت بيروت بدأت بالتبدّد والانحلال. كأنّ ما تذكره عنها لا علاقة له بما ترى وتسمع الآن.

"أفضل نوقّف هون! بيكفّي!"

قطعت مايا كلام ندى بنفاذ صبر.

"خلينا نستمتع بالشمس، مش أحسن... حاسة إنك عم تحققي معي وتحطي اللوم عليّ كأنو أنا المذنبة. تماماً متل ما بيعمل شرطي مع مرا إجت تشكيلو عنف زوجها. أنا مش عم اشكي. أنا بس قرّرت طلّق".

لم تقتنع ندى بما سمعته، فتابعت أسئلتها بصوت عالٍ هذه المرة:

"فإذاً شو؟ أكيد في شي مخبايتيه عني. مصاحْبِة؟ قوليلي! قتلتِ حالك لتتزوجيه... بيت عمي بطّلوا يحكوا مع إمّي لأربع سنين بسبب زواجك من رجّال برّات الطايفة... وهلق ببساطة بدّك تطلقيه... أقلّ شيء رح يقولوه: "يللي طلّع الحمار عالمئذنة خليه ينّزله"... ما حدا من العيلة رح يوقف بجنبك و..."

قاطعتها مايا بحدّة كأنها اضطرّت للرد بعد اتهام ندى الضمني لها بالخيانة:

"زياد بطّل يحبني... و..."

لكنّها لم تستطيع أن تكمل جملتها، شعرت بالاختناق. توقّفت قليلاً ثم تابعت وهي تحرّك رأسها:

"كيف بدِّك ياني إبقى مع رجّال ما بيقدر يلمسني... ما قرّبلي من تلات سنين... من وقت حملي بشادي... خلص!"

بدت منهكة. أخذت نفساً طويلاً كأنها خرجت للتو من مكان لا هواء فيه. نظرت في وجه ندى ووجدتها تحدّق فيها باستغراب وقسوة.

"ما عاد يحبّك...! بس هوّي ما طلب الطلاق، إنت اللي طلبتيه. ليه؟ وين مشكلتك انت؟ عيشي كأنو مش موجود، كأنو ميت. بتقولي إنو ما بيحبك، شو علاقة الحب بالزواج؟ شو الزواج لعبة؟"

حينها غاب صوت ندى. ما عادت تسمعه، ولا تسمع أيّ صوت حولهما.

"أشكر ربّي أن باستطاعتي أن أغلق أذنيّ عن حديث جارح وعنيف". قالت مايا في سرّها.

كأن جداراً عازلاً ارتفع بين صوت ندى وأُذُنَي مايا. كلام ندى، رغم ذلك، أعاد مايا بطريقة ما، إلى بداية علاقتها بزياد. لم تعد تذكر تفاصيل سنواتهما الأولى، ولا حتى سنوات الحرب في لبنان قبل سفرها إلى فرنسا والتقائها به. "لا بدّ أنّ الذاكرة قصيرة كلحظة فرح. نذكر أننا اقترفنا حياة كاملة من الأخطاء في الحرب وخارج الحرب، لكن الحياة غمرتنا بلحظات سعادة لا تُحصى أيضاً". فكّرت مايا.

"رح إرجع مع شادي على لبنان بعد الطلاق. زياد رح يبقى بباريس. قررنا الطلاق هون لتكون حضانة شادي إلي. هيك اتفقنا".

"شو...!" علّقت ندى بتهكّم...

"كمان لحقتوا تاخذوا قرارات بخصوص شادي... يعني ما في داعي نتناقش بالموضوع. هيأتك حاسمتيها! بس من وين رح تعيشي انت وابنك قوليلي؟ فكرت بهالموضوع مثلا؟ بيّك مات وتقريباً ما

تركلنا شي. دفعنا كل اللي عنده قبل موته فواتير للمستشفى. بتعرفي القصة أكيد وما في داعي كرّرها. أمي باعت الأرض لتدفع أقساط دراستك ودراسة نديم. ومتل ما بتعرفي معاشها التقاعدي ما بيكفيها وأنا عم ادفع معاش خادمتها. نديم ما بيدفع شي ولا بيرد عالقفا من وقت اللي تجوّز بكندا. فكرتِ بكل هالأمور قبل ما تاخذي قرارك؟ أم انك معتمدة على الـ ٤٠٠ ألف ليرة مصاريف شادي واللي الشرع بيفرضهم على الأب؟".

ندى التي درست المحاماة وتوقفت عن ممارستها منذ زواجها من رجل يكبرها بعشرين عاماً، تحاضر الآن في القانون... فكّرت مايا بمرارة ولم ترد.

هناك لحظات لا نعود نفكّر كبقيّة البشر. الحسابات التي تبدو مصيرية للبعض تغدو سطحية وغير مهمة لنا. كله يتوقّف على ماذا نشعر، أين نحن من شرطنا الإنساني ومتى، وما هي قدرتنا على تحمّل فقدان ذلك الشرط. فكّرت مايا بكل ذلك وقالت بصوت متوتّر على حافة البكاء:

"ندى افهمي...! اكتشفت إنّو الرجّال اللي عايشه معو من تمان سنين ما بعرفو... ما بفهمو، بتقدري تعيشي مع رجّال بهيك وضع؟".

"شو يعني ما بتعرفيه؟ يعني أومو؟"

سألتها ندى.

"ما بعرف... يمكن...!" صرخت بها مايا وتابعت غاضبة:

"إذا بيريحك هيك جواب، بقول انّو أومو".

أيقنت ندى أن مايا بدأت تغضب. بدأت تعبّر عن ضيقها عبر

مزاحها الأسود الذي يعرفه الجميع في العائلة. نظرَتْ في وجهها لبرهة، ثم تناولت حقيبة يدها من على الكرسي قربها، أخرجت منها كمية من الفرنكات ووضعتها على الطاولة وهي تقول: "اعملي اللي بدّك ياه"، ثم خرجت من المقهى مودعة مايا بإيماءة طفيفة من الرأس ودون كلام تقريباً.

عادت مايا من المستشفى الباريسي مع ابنها شادي إلى البيت. قبل أن ينام قال لها إنها تؤلمه وتضيق على صدره. قال ذلك فجأة دون مقدمات بينما كانت تحوطه بذراعيها وهي جالسة على فراشه تقص عليه ككل مساء حكاية قصيرة. تابع أنه نعس ويريد أن ينام. أرخت ذراعيها، قبّلته وقامت من على سريره، أطفأت النور وخرجت إلى صالة الجلوس حيث تنام. تعلم أن شادي غاضب وتعلم أيضاً أن أسباب غضبه صعبة وشائكة وأنه يلومها على المشاكل التي شهدها بين والديه، ويلومها أيضا على مرض أبيه. تشعر بحيرة أمامه، لا تدري ماذا عليها قوله أو القيام به. تصمت أمام غضبه. تصمت وتلين وتبتعد. أمام باب غرفته كانت نوسة الهرّة الصغيرة التي أتت بها منذ أشهر تنتظرها. نظرت نوسة إليها رافعة رأسها إلى الأعلى فبدت البقعة البيضاء الوحيدة الموجودة على عنقها وسط فروها الأسود اللمّاع كأنها واحة نور. تريدها أن تحملها وأن تملّس على فروها الناعم، في تلك اللحظات كانت لمايا رغبات مماثلة. رغِبت أن تضع رأسها على كتفٍ ما وتغمض عينيها وتنام. ماءت نوسة مرة واحدة مواءً طويلاً خافتاً يشبه أنين امرأة. كان صوتها بطيئاً ومجروحاً. هي أيضاً تعبة، تعبة من الانتظار، من الصمت الذي يرسل ذبذبات قلق دائم،

ومن غياب مايا عن البيت الصغير معظم النهار.

كانت مايا تنهي سنتها الجامعية الأولى في باريس حين التقت بزياد، ولم تكن قد تآلفت بعد مع الجو الغريب ولا مع الجامعة. لم تفكّر أبداً أنها ستعود إلى الدراسة في باريس بعد أن أنهت ليسانس الآداب في بيروت. حملت حقيبتها يوماً وسافرت مع صديقتها سارة. سرعان ما عادت سارة إلى بيروت إلّا أن مايا بقيت وبدأت حياة أخرى في فرنسا. التقت بزياد للمرة الاولى في أيار ١٩٨٥. كان حينها يكتب أطروحة الدكتوراه ويعطي في الوقت نفسه دروساً في اللغة العربية. لن تنسى ذلك اليوم حين اتصلت بها سارة صباحاً من بيروت تخبرها أن الباحث الفرنسي ميشال سورا خُطف في اليوم السابق على طريق المطار. كانت سارة قد تعرفت إليه في أحد اللقاءات مع أصدقاء فلسطينيين يعملون معها. قالت لا أحد يعرف عنه شيئاً حتى الساعة. منظمة الجهاد الإسلامي أعلنت أنها الجهة الخاطفة. سيمضي وقت طويل يختفي خلاله الكثيرون، قبل أن تخرج إلى العلن تقارير دولية تقول إن خطف الأجانب في لبنان كان معظمه يجري تحت مظلّة المخابرات السورية وبتنفيذ من مجموعات محلية.

ذلك اليوم كانت على موعد غداء مع برونو المخرج الفرنسي الذي تعمل معه بدوام جزئي. كانت تقوم حينها، بطلب منه، ببحث حول مدينة القاهرة في النصف الأول من القرن العشرين، وقبل الفترة الناصرية. بحث حول مسارحها وفنانيها وحياتها الاجتماعية والثقافية. سمح لها ذلك البحث بالحصول على كتب ومقالات تناولت حياة وموت أسطورتها التي تحب: أسمهان.

رغم زخّات المطر المتكرّرة أطلّت الشمس معلنةً بخجلٍ دفء الربيع. نظرت من نافذة الباص، المتجه صوب بولفار سان جرمان، إلى قوس القزح الذي ظهر لدقائق في الأفق، ثمّ ما لبث أن تبدّد واختفى وراء الغيوم التي تتقدّم إلى وسط السماء. فكّرت مراراً بالنزول من الباص والعودة إلى البيت. الحديث مع سارة التي غدت صلتها شبه الوحيدة مع ما يجري في بيروت، أشعرها بالحزن. تتخيّل في أيّ حالة هي الآن. لم تكن هذه المرة الأولى التي تفقد كل واحدة منهما، أناساً في الحرب. قد لا يكونون أصدقاء وقد تكون الخسارة غير جارحة، لكن يكفي التعرف إلى الشخص، إلى رؤية عينيه تشعان حياة وسماع صوته وهو يحدّثك عن أحلامه كي تشعر أنك بغيابه فقدت صديقاً. في تلك اللحظة لم يعد لديها رغبة في رؤية أيّ من الناس. أرادت العودة والاتصال بأمها. لم تتصل بها منذ أكثر من أسبوعين. تتصل بها عادة من كشك هاتفي لا يبعد كثيراً عن غرفتها في المدينة الجامعية حيث تسكن. تعلمت كيف تستعمل هذا الهاتف العمومي دون صرف مبلغ كبير. حيلة صغيرة أتقنتها بفضل زملائها الطلاب. نزلت من الباص ببطء وبدت كأنها لا تستطيع حمل جسدها. وصلت إلى مقهى دانتون متأخرة أكثر من ربع ساعة ووجدت برونو جالساً قرب النافذة الزجاجية العريضة وقبالته يجلس شاب مديراً ظهره لمدخل المطعم. ذلك الشاب كان زياد. تردّدت قليلا وهي تتقدم نحوهما. وقفا حين وصلت وتولى برونو مهمة التعارف بينهما، ثم تراجع قليلاً عن كرسيه وأشار لمايا أن تجلس مكانه وهو يقول مع ابتسامة عريضة متذاكية، ”لا بد أنك

اشتقت إلى حياة الحرب في لبنان وتريدين اصطياد الناس والمارة من هنا، من خلف زجاج النافذة. هيا أخرجي سلاحك من حقيبتك واجلسي مكاني! تماماً كما يحصل عندكم في بيروت... كما يفعل القنّاصة من فوق سطح مبنى برج المر!".

وتّرها كلامه وزاد من شعورها بالضيق.

"يبدو أنك متشوّق لتصوير فيلم عن حربنا، ولست مهتماً أن تسألني عمّا وجدت في بحثي حول القاهرة!"

أجابته بحدّة لم يعتدها برونو ولم يفهمها. وهي لم تكن مهيأة لهذا النوع من المزاح ولم تشأ أن تردّ بتلك الطريقة السوداء، لكن الأمور جرت دون توقّع منها. رغم يقينها أن برونو لم يقصد جرح مشاعرها، شعرت أنه هكذا يساويها بهؤلاء الذين خطفوا ميشال سورا، وهي لا تراهم سوى مجموعة من القتلة ليس إلّا. شعرت بالضيق أكثر لأنّ ذلك الشاب اللبناني الذي تعرفت إليه للتو أخذ يضحك عالياً جرّاء تعليق برونو وربما لم يسمع ردّ فعلها. توقعت أن حديثاً كهذا لا بدّ أن يُحدث عنده نوعاً من التوتّر، لكن أخذ منها الأمر وقتاً كي تكتشف أن زياد بعيد عن أجواء لبنان وأنه لا يتابع غالباً ما يحدث ويحاول أن يحصل على الجنسية الفرنسية ويستقر في باريس. كانت المرة الأولى التي تلتقيه ولم يترك لقاؤهما الأول أثراً لافتاً لديها. بدا لها شخصاً عادياً من التعليقات التي كان يبديها أثناء تناول الغداء.

(٥)

بيروت آب ١٩٩٤

عليها أن تسرع ولا وقت لشرب المتّي مع أمها، إذ تَعجب مايا كيف يمضي الوقت بهذه السرعة صباحاً، تركض من مكان إلى آخر في البيت ولا تجد أغراضها. قميصها الضائع في الخزانة، الحزام الجلدي الأسود الذي تركته على الكنبة بالأمس واختفى، الأوراق التي بدأت عليها الفصل الثاني من كتاب عن أسمهان، مفكرتها، الدفتر الذي كتبت عليه جزءاً من سيناريو الفيلم، مفاتيح السيارة، الهاتف الخليوي- ذلك الاختراع الجديد. أحياناً تشعر أنها تفتش دون طائل وأنها لن تجد أغراضها الضائعة. شادي يقول لها ببراءة مؤلمة أن تلك الأشياء غاضبة منها لأنها (أي مايا) لا وقت لديها لتلعب معها، وهي خرجت تفتش عن بيت ثانٍ تعيش فيه. تعلم مايا أن شادي يصف حاله بهذا الكلام ولا يعني الأغراض. معها حق صديقتها سارة حين تقول لها إنه لا يمكن الاستمرار هكذا وإن زياد مات وإن عليها أن تقبل موته، وأن تستعيد حياة هادئة. شادي

بحاجة لها أكثر من أي وقت مضى، أضافت سارة. منذ عودتهم إلى بيروت لم تجد مايا بعد نهاراً واحداً تقضيه مع شادي أو وقتاً قصيراً للعب معاً. عهدت، ودون قرار مسبق، بتلك المهمة لمعلّمة الحضانة ولأمها، كذلك لمالا عاملة المنزل التي أتت من سريلانكا إلى لبنان لكسب قوتها وقوت عائلة وأطفال لها يشتاقون إليها أيضاً. اكتشفت بعد سنوات ثلاث أنِ بالأموال التي أرسلتها إلى سريلانكا بنى زوجها بيتاً وتزوج امرأة أخرى وأرسل الأطفال إلى بيت أهلها. قررت البقاء سنوات أخرى في لبنان كي تسترد خسارتها، ثم تعود إلى أولادها الذين كبروا في غيابها ولم تشهد طفولتهم. تستيقظ مالا باكراً، تشرب الشاي، وتنتظر استيقاظ الجميع. هذا الصباح شعرت مايا بذنب مفاجئ حين رأت مالا تبتسم، وهي تعدّ لها القهوة وصينيّة المتّي لعايدة. حين انتهت راحت تساعدها بالتفتيش عن الأغراض وتسابق الوقت.

أوصلت مايا ابنها شادي إلى الحضانة، ثم واصلت طريقها إلى مقهى تشايز في الأشرفية. ستقابل داني لمتابعة التصوير في الفيلم الوثائقي حول إعادة إعمار قلب بيروت. كانا زميلين واستعادت صداقتهما منذ عودتها، بعد أن انقطعت أخباره عنها لسنوات أثناء اقامتها في باريس. اليوم سيكون معه أرنست أيضا شريكه في الحب وفي العمل. يعيشان معاً في شقة في سن الفيل. أوقفت السيارة أمام مركز البريد واجتازت الطريق نحو المقهى. جلست في الخارج بعد أن طلبت قهوة وكرواسان. كان صباحاً لطيفاً رغم حرارة حزيران. انتظرت ربع ساعة، نصف ساعة، ولم يأت أحد. أخرجت الهاتف

من حقيبتها. اتصلت بداني ... لا يردّ. ربما ما زال في بيته، فكرت، لكن رقم البيت لم يكن مسجلاً على هاتفها. أخرجت دفتر الهاتف الصغير ووجدت رقم داني. طلبته. ليس من عادته أن يتأخر عن موعد عمل بيننا، قالت لنفسها.

تطلب الرقم. يأتيها الجواب سريعاً.

– "آلو،" تقول.

– "آلو،" يجيب رجل على الطرف الآخر

– "مين داني؟" تسأل.

– "مين؟" يسأل صوت متعجباً.

– "بدّي داني أو أرنست من فضلك".

"لحظة". يقول متردّداً ويعطي السماعة لأحدهم

– "آلو". تسمع صوت رجل آخر

– "آلو... لو سمحت بدّي إحكي مع داني، أو مع أرنست إذا داني مش موجود".

– "مين طالبة حضرتك يا ست؟"

– "طالبة داني".

– "أي رقم طالبة حضرتك؟"

– "طالبة ٤٨٠٩٩٤ ... إيه... طيب إنت شو رقمك؟"

– "هون الضاحية يا إختي... الضاحية الجنوبية... هون الرقم بيبلّش بـ٨٤٠، ما في هون لا أرنست ولا داني".

– "عفواً أنا طالبة... ما تواخذني، النمرة غلط...".

أعادت الهاتف النقَال إلى حقيبتها وهي تقول "يلعن داني على

إرنست على التلفون"، وأخرجت أوراقها لمتابعة العمل وقرّرت الانتظار إذ ليس بإمكانها أن تفعل أيّ شيء آخر. عليها أن تنجز فيلماً قصيراً عن وسط بيروت بطلبٍ من شركةٍ ستقوم بإعادة الإعمار. منذ بدء العمل، وجدت مايا نفسها تقتفي حكايات الناس الذين كانوا يعيشون في وسط العاصمة وفي المنطقة المحيطة به. تؤخذ بذكرياتهم وتاريخهم. فكرت بأهميّة إجراء مقابلات معهم وإدخال بعضها في الفيلم. لم تفهم لماذا طلبت منها الشركة تسجيل ذاكرة الأمكنة، وما تراه هو أنهم يقومون تماماً بمحو تلك الذاكرة. نقاش طويل دار مع داني في اللقاء الأخير بينهما حين قال إن من السهولة استعمال المقابلات كمادة تخدم هدف الفيلم. أضاف أن صناعة الأفلام أمر خطير وذكي، يستطيع المخرج أثناء المونتاج إعادة تركيب ما يريد قوله وليس مهمّاً إضاعة الوقت على مقابلات طويلة مع المقيمين هناك.

"هي مسألة تقنية صحيح"، قاطعته مايا، "لكنها تتعدى ذلك أيضاً، إذ من المستحيل فصل ذاكرة المكان عن ذاكرة البشر. أنت تعلم أن الاستماع إلى الناس وتسجيل ما يقولون أمران أساسيان في عملي".

دقائق عديدة مرّت قبل أن تسمع صوت داني من خلفها يحييها بمرح خجول. شاحنة معطلة في وسط الأوتوستراد عرقلت السير وسبّبت زحمة. قريباً منه وقف أرنست صامتاً واضعاً يديه في جيبي بنطاله القصير كأنه يعتذر عن ذنبٍ ليس بمسؤولٍ عنه. بدَوا كصبييّن تأخّرا عن الصف ويخشيان العقاب.

نظرت مايا إلى داني بعتاب لا يخلو من الغضب. "موعدنا كان منذ ساعة"، قالت بحزم لا ينقصه الودّ. رأته يبتسم في وجهها ويعتذر تكراراً. خفّ غضبها وجلس الإثنان معها لتناول القهوة. أخبرتهما عن المكالمة التي أجرتها للسؤال عنهما. تبدّد التوتّر، وغرق الثلاثة في الضحك.

كان عليهم زيارة البيوت القريبة من ساحة رياض الصلح صعوداً نحو زقاق البلاط ثم شرقاً باتجاه البسطة والمناطق المحيطة بشارع بشارة الخوري. الخريطة التي في حوزتهم شبه كاملة. ورشة إعادة الإعمار بدأت والجرافات تعمل ليلاً نهاراً، كذلك التحضير لمشاريع الترميم. ساحة الشهداء مليئة بالناس والباعة. أصوات صبية يلعبون بالطابة وصراخ. أحدهم قال لمايا إجابة عن سؤال، أن تمثال الشهداء البرونزي والذي نخر الرصاص جسدَه، هو لشهداء حركة أمل، فيما كان داني يصور الصبي وهو يكلمها. تابعوا السير في وسط المدينة. مناطق داخلية مُجاورة يُمنع الاقتراب منها لأنها لم تنظَّف بعدُ نهائياً من الألغام والقنابل غير المنفجرة التي زرعها مقاتلو الميليشيات بهدف رسم الحدود في ما بينهم. أغراض شخصية وأثاث مخلّع وممزّق خلّفها السكّان وراءهم حين غادروا، بقيت على الأرصفة وفوق تلال التراب المرتفعة هنا وهنالك، وفي البيوت التي احتل معظمها المقاتلون. بدأ داني بتصوير الطريق التي تصل ساحة رياض الصلح بالمناطق المحيطة صعوداً. مبانٍ مدمّرة مهجورة ما زالت واقفة تقاوم السقوط. شقة مواجهة في الطابق الأرضي لمبنى انهارت واجهته الأماميّة بحيث صار من الصعب الدخول إلى عمق

الشقة وغرفها الداخليّة. مبنى قديم من طابقين تعرّض سقف طابقه الأول لتدمير كامل، بقيت جدرانه واقفة هشّة وعارية تواجه الفضاء. حافظ الطابق الأرضي على بنيانه. بدأت الجرافات تعمل اليوم في محيط المبنى. رُفعت الأنقاض من أمام المدخل بحيث تسنّى لمايا الدخول برفقة الشابين. تابع داني تصوير مدخل المبنى ودخولهم إلى الشقة في الطابق الأرضي. كانت الكاميرا وراء مايا التي سارت في المقدّمة. لم يكن في الحسبان أن تكون أمام الكاميرا، لكن في رأس داني مشروعاً تركه مفاجأة لها، وهو أن تكون داخل الكادر أثناء التصوير. طار جزء من باب الشقة وما بقي منه ثبّت بمسامير وحجارة كبيرة. تربة وأكياس رمل وبقايا مفروشات منزلية توزعت في المدخل، وبصعوبة استطاعوا الوصول إلى عمق الشقة. باب المطبخ في نهاية البهو الرطب بقي على حاله. ثمة درج حجري صغير، يرتفع من أرض المطبخ نحو قسم علويّ يجاور السقف. فَقَد المطبخ كل محتوياته ما عدا جزءاً صغيراً من مجلى رخامي بقي معلقاً في الجدار كلوحة سوريالية. "كم هو واسع وكبير! أنظرا إلى السقف، رسومات وزخرفات بهتت ألوانها. يا الهي، يحتاج السقف إلى سلّم بمئة درجة للوصول اليه!" علّق داني. جال قليلا ثم قال إن المكان غير مأهول منذ زمن بعيد، وإن عليهم متابعة التصوير في مناطق أخرى من وسط بيروت. استدار للخروج، فيما كانت مايا مشغولة باكتشاف إلى أين يؤدي ذلك الدرج الصغير. "هذه التتخيتة!" هتفت بصوتٍ عالٍ لم يسمعه داني الذي صار خارج المبنى، فيما كانت تصعد عتبات الدرج المتدلية كأنها معلقة في الهواء وصوت دقات قلبها بلغ

أذنيها. مشى أرنست وراءها تاركاً داني يتابع تصوير محيط المبنى والمدخل.

أرض التتخيتة تكسوها الأتربة والأوساخ والكتب والجرائد المتآكلة التي أصابها العفن. في وسطها بقايا رماد، تجمعّت حولها إفرازات بشرية وجرذان ميتة. فردة حذاء رياضي مهترئة ومقلوبة في زاوية المكان الذي غطت جدرانه رسومات بالفحم وكتابات بالأسود والأحمر. رسم لامرأة عارية وبين فخذيها جملة كتبت بشكل عامودي تقول "الموت هنا". قريباً من الرسم جملة "أبو الجماجم باقٍ فينا"، وعلى الجدار المقابل "لا إله إلا الله". كلمات كثيرة كُتب معظمها بالأسود والأحمر، شعارات دينية وسياسية، أسماء ميليشيات حاولت مايا أن تفكّ بعض أحرفها الباهتة ولم تفلح. في نهاية التتخيتة كنبة طويلة تراكمت على وجهها الأتربة والأوساخ. على جانب منها أغطية مهترئة وملفوفة تحوّل لونُها إلى بنيّ غامق ومن الصعب معرفة لونها الأصلي. لا بد أن أحدهم كان ينام هنا، فكّرت مايا. اقترب أرنست ورفع الأغطية التي تحوّلت إلى كتلة متآكلة ورماها على الأرض. تطاير غبار أثار سعالهما. "تمهّل!" قالت مايا وهي تسدّ أنفها بإصبعيها. الكنبة من النوع الذي يضمّ صندوقاً خشبياً توضع فيه الأغطية وأشياء أخرى. أشارت مايا بيدها إلى أرنست الذي بدأ يرفع المقعد لرؤية ما في داخله. سرعان ما انتشرت في الجو روائح العفن. أتربة ونفايات وحيوانات صغيرة ميتة تيبّست جلودها ملأت جوف الكنبة. في إحدى زواياها حقيبة جلدية بهت لونها البني، أصغر حجماً من التي يحملها المسافر داخل الطائرة، مغطاة بالأتربة

ومبقورة من أحد جانبيها. اقمشة ملفوفة على شكل كرة صغيرة عالقة من الخارج بأسفلها، وحولها تناثرت الأوراق الصفراء. حاولت مايا إزاحتها ورفعها متسائلة عما في داخلها. راح داني يناديهما من أمام المبنى كي يخرجا. وقف أرنست ينظر إلى مايا المأخوذة بما وجدت وهو يتردّد بين الاثنين. هل يبقى معها أم يعود إلى داني؟ تركها بعد إصرار داني وراح ينزل ببطءٍ على الدرج وهو يردّد أنه آتٍ، بينما أخرجت مايا الحقيبة ووضعتها على الأرض. كان من الصّعب فتحها إذ كان قفلاها على الجهتين الأماميتين من المعدن الذي صدأ، لذا بات من الصعب تحريكهما. لكنها توصلت بعد جهد إلى فتح الحقيبة لتجد فيها لفافات من الأوراق الملتصقة بعضها ببعض أكلت الرطوبة جزءا كبيراً من أطرافها. أوراق تستدعي قراءة ما كتب عليها نوراً أقوى من نور النهار الذي بالكاد يصل من نافذة التتخيتة الصغيرة والتي غطتها الأوساخ. كانت لحظة فيها من الخوف بقدر ما فيها من الإثارة واكتشاف المجهول. "لن أتركها هنا!" قالت مايا لنفسها، "لا! ربما هي كل ما أبحث عنه، ربما سأجد هنا قصص أناس رحلوا وهي الأثر الوحيد والشاهد على حياتهم، من يعلم، ربما هذه الحقيبة انتظرتني لسنوات لأُخرج ما فيها إلى النور والعلن".

رغم النور الشحيح، استطاعت مايا أن تميّز بين أكوام الأوراق مغلّفات فيها رسائل وصور غيّرت الرطوبة لونها وجعلت منها كتلاً متراصة. في قعر الحقيبة أشياء كثيرة لم تستطع تمييز بعضها. قميص قميص قطنيّ شبه متحلّل، أقمشة صغيرة تبدو ملابس طفل، علّاقة مفاتيح وقصاصات جرائد ودفاتر صغيرة فقدت أغلفتُها لونَها

الأصلي. أعادت كلّ شيء إلى الحقيبة، أغلقتها ثانية، نفضت الغبار عنها وحملتها نحو الدرج الحجري الذي يصل إلى أرض المطبخ الفسيح. بدت وهي تنزل الدرج كشبح يهبط من السماء، وجهها وشعرها كتلة من غيوم كثيفة، بينما غطّى ملابسها لون طيني باهت.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، ولم يكونوا قد تناولوا الغداء بعد. مشى أرنست وداني نحو شارع بشارة الخوري حيث مطعم فلافل شعبي قريب. لم تشأ مايا مرافقتهما خوفاً من أن تتأخر عن الوصول إلى الحضانة لاصطحاب شادي إلى البيت. سارت حاملة الحقيبة نحو سيارتها التي ركنتها بعيداً عن المكان. سلكت الطريق صعوداً وسط تلال الأتربة والحصى التي تغطي الطرقات، كي تصل إلى الطريق العام. كانت مأخوذة بما وجدت كغنيمة وأرادت أن تسرع إلى البيت لتبدأ بالقراءة. هناك كنز من ورق رطب وحبر غائر اللون في الحقيبة، قالت لسارة على الهاتف وهي تمشي بسرعة نحو السيارة، هناك صور وقصاصات جرائد بهت لونها والتصق الغبار والتراب عليها. وضعت الحقيبة في صندوق السيارة، ثم جلست وأدارت المحرك. عليها أن تصل إلى الحضانة بأسرع وقت، الساعة الثالثة والنصف وشادي بانتظارها. لكن كيف ستصل وسط هذا العذاب البيروتي اليومي الذي اسمه زحمة السير؟ فتحت نوافذ السيارة كلها لإخراج الحرارة المحتبسة داخلها. إنه شهر آب، وبيروت بدأت لا تطاق. فكّرت في ملابسها التي اتّسخت كلها تقريباً ولا كهرباء لغسلها. تأتي الكهرباء في وقت متأخر من الليل تكون فيه قد نامت وكهرباء المولّد التي تصل إلى الشقة لا تكفي

لتشغيل غسالة. فكرت في أغراض بيتهم في فرنسا، في الأشياء التي تحب أن تبقى معها، في الكتب القديمة التي جمعتها خلال مدّة إقامتها هناك والتي رَمّمت بعض أجزائها، في القصاصات الصحافية والكتب التي جمعتها حول حياة وموت أسمهان. فكرت في نقل كل ذلك إلى بيروت وفي المبالغ الكبيرة التي عليها دفعها والتي لا تملكها. عليها تدبّر أمرها لتسجيل شادي في المدرسة ولاستئجار بيتٍ صغيرٍ لهما، وكي... القائمة طويلة ولا تنتهي. الآن تقيم مع أمها في بيت العائلة ريثما تجد حلّاً. لكن هل من الضروري التفكير بكل هذا؟ تساءلت، والآن في هذه اللحظة وفي تلك الزحمة التي لا تُحتمل!

جلس شادي في المقعد الخلفي. قال لها إنه رسم اليوم شمساً وسماءً وأن المعلمة طبعت له نجمة ذهبية على يده وعلّقت ما رسمه على الجدار. مدّ لها يده مزهوّاً ليريها النجمة. نظرت إلى يده بسرعة وهي تطلق صوتاً فرِحاً ثم التفتت إلى الأمام محاذرة السيارات المسرعة التي تمرّ من على جانبي السيارة. في بيروت القيادة جنون وليست فناً، قالت لنفسها.

في مكان ليس ببعيد عن البيت ركنت السيارة. رائحة الفلافل المقلية المنبعثة من المطعم الصغير لها نكهتها. "ألا تستأهل هذه الرائحة البقاء في بيروت لأجلها؟" سألت نفسها وابتسمت. بادلها الرجل الجالس وراء ماكينة الحساب ابتسامتها، مردّداً طلبها بصوت عالٍ: "سندويشين مع كتير خضرة وطَرَطور للست...".

تركت شادي مساءً يلهو في أرض الغرفة بقطع الليغو الملونة

ويبني منها بيتاً كبيراً وهو يشير لجدّته عايدة أن "هذا هو بيتنا في باريس". فكّرت مايا أنّ لشادي ذكريات طفولة في مكان آخر، مكان لا يحمل ذاكرة طفولتها، وأنّ بيته هو هناك وليس هنا. جلست على شرفة المطبخ وفتحت الحقيبة التي وجدتها في الشقة المهدمة ثم بدأت بإخراج كل ما فيها. وضعت الأوراق التي بحالة جيدة في صندوق كرتون. قامت من وقت لآخر بمسحها من الغبار بفوطة صغيرة وبدأت بقراءة كل ورقة ما تزال كلماتها واضحة. أسماء عديدة لأشخاص مجهولين ورسائل شخصية معظمها باللغة الانكليزية وصور، ومفكرة باسم نورا أبو صوان ودفتر عناوين ودفاتر يوميات سميكة ومجموعة مفاتيح في علّاقة معدنية صدئة وبطاقة هوية ووثيقة سفر منتهية الصلاحية وقصاصات صحافية من جرائد ومجلات عربية وأجنبية عن رائد الفضاء الروسي يوري غاغارين، وأشياء أخرى.

كان على مايا أن تقوم بتحضير خطة تصوير اليوم التالي، إلا أنها نسيت الفيلم وعملها ونسيت المشروع بأكمله. أخذتها تلك الحقيبة ومحتواها وبدت كما لو أنها قامت بكل ما قامت به بهدف العثور على تلك الحقيبة وها هي وجدتها. باتت مستغرقة في القراءة، وأخذتها الأسماء العديدة الموجودة على قفا الصور، وتلك التي وردت في الرسائل واليوميات: نورا أبو صوان، هناء أبو صوان، هدى، شوقي، شاهاني، كمال فِرات، صباح كرابوز، فوزية كرابوز، أحمد كرابوز، عطا، تيمور، سهيل وآخرون. كأن تلك الأسماء كانت تنتظر مايا أن تُخرجها من العتمة والصمت. كأن الحكاية وجدت من يحكيها. لكن من هي صباح؟ من هو كمال؟ من هي نورا؟ من هو تيمور؟

من هو أحمد الذي تردّد اسمه أقل من أسماء الباقين؟ تضع الرسائل جانباً وتبدأ بالتفرج على الصور العديدة أغلبها بالأسود والأبيض والقليل منها ملوّن. على قفا الصور أسماء كُتبت بخط مبتدئ. ثم تنتقل إلى الرسائل التي كانت في ظرف كبير كُتب عليه بخط اليد كلمتا "رسائل اسطنبول"، ومنها تعود لتصفّح يوميات نورا أبو صوان التي توزعت على دفترين، غلافاهما من الكرتون المقوّى. يوميات تعكس حياة غنيّة لصاحبتها. تعود للرسائل مرة أخرى، رسائل حب كتبها كمال فِرات إلى نورا أبو صوان باللغة الانكليزية وبعض الجمل القليلة بالعربية أو التركية، أغلبها مصدره اسطنبول.

معظم الرسائل تُوّجت بتواريخ مختلفة خلافاً لليوميّات التي قلّ ما ظهر على صفحاتها تاريخ يوم معيّن أو شهر. معظم ما وجدته كُتب في أواسط السبعينات. اسم كاتب الرسائل تكرّر أكثر من مرة في يوميات المرأة. "لكن من هي تلك المرأة؟" تتساءل مايا مرة ثانية. كتبت عن مراهقتها ثم مجيئها إلى لبنان والتقائها كمال وما سبق هذا اللقاء من حياة مرتبكة وغنية في دمشق وفي بيروت، ثم توثيقها لحياة يوري غاغارين رائد الفضاء الروسي الذي قُتل في ظروف غامضة، لتحضير كتاب عنه. "لا بد أنها كانت كاتبة" فكّرت مايا. لكنها لم تسمع بها من قبل، ولم تقرأ كتاباً عن غاغارين يحمل اسمها. ثم لماذا اختارت غاغارين؟ تساءلت مايا. بدا غريباً أن يصدر هذا التساؤل عن مايا بالذات خاصة أنها قضت وقتاً طويلاً في باريس تهتم بالتفتيش عن كتب قديمة نفدت وبجمع قصاصات عن حياة اسمهان التي ماتت في ظروف غامضة مثل ظروف موت غاغارين.

على أحد المغلّفات القديمة الصفراء وجدت مايا إسم صباح كرابوز وعنواناً في بيروت: بناية الحا...ي- الخندق الغميق. اسم المبنى غير واضح تماماً. يبدأ بحرف الخاء أو الحاء، أو ربما بحرف الجيم... ثم أكل الاهتراء والزمن الأحرف التي في الوسط. بدأت مايا كل مرة بإضافة حرف من حروف الأبجدية لتصل إلى الاسم المجهول للمبنى. بدا الاسم في معظم محاولاتها غريباً، كأنه خارج من إحدى روايات أغاثا كريستي.

كان ليلاً طويلا، لا تذكر فيه عدد المرات التي انتقلت بين شرفة المطبخ والكنبة في غرفة الجلوس. ولا في أي ساعة، بعد مطلع الفجر، انتقلت إلى غرفة نومها وهي تسير متمايلة كأنها ثملة. تذكر أنها جلست في السرير وتابعت قراءة رسائل كمال إلى نورا.

على الجدار المقابل لسريرها صورة كبيرة لأسمهان بقيت معلقة في المكان نفسه منذ سنوات الجامعة. أهدتها إياها سارة صديقة الطفولة في عيد ميلادها الثامن عشر. كانت سارة تعلم تعلّق صديقتها بأسمهان واستماعها الدائم لأغانيها. في بداية الحرب في لبنان، وقبل سفرها إلى فرنسا، كانت صورة أسمهان من الأشياء القليلة التي طالما بدّدت شعور مايا بالوحشة والحزن.

لم تنم تقريباً طيلة الليل. ليست حرارة الصيف ولا رطوبة بيروت في غياب الكهرباء هما السبب فحسب، بل أيضاً تلك الرسائل واليوميات التي وجدتها في الحقيبة والتي استمرت في قراءتها على ضوء الشمعة بعد توقف المولد الكهربائي عن العمل عند منتصف الليل. بقيت مايا تنتقل من صفحة إلى أخرى، تقرأ ثم تتوقف وتقوم

عن الكرسي نحو حافة الشرفة علّها تشعر بقليل من الهواء اللطيف. كان أكثر ما يوتّرها عدم تمكنها من قراءة الرسائل كاملة بسبب بهتان الحبر فضلاً عن الرطوبة التي أكلت بعض أجزائها. استطاعت أن تنقذ أجزاء منها، فيما رسائل أخرى كانت تالفة بالكامل.

لم تتوقف عن القراءة طوال الليل. كان عليها كل مرة أن تنتقل من رسائل كمال فِرات إلى يوميات نورا ابو صوان لتربط بين الحوادث والأزمنة، كي تَولد الحكاية. مع أول خيوط الشمس حضّرت ركوة من القهوة فيما أحست بجسدها كآلة تتحرك بين الشرفة والمطبخ.

هذا الأسبوع ستبدأ بالبحث عن عنوان غير كامل في الخندق الغميق، وعن تلك المرأة التي اسمها صباح، فكرت مايا وهي تشعل أول سيكارة صباحية. ربما عليها أولا الاتصال بداني وتأجيل متابعة التصوير ليوم آخر.

ثم عادت ثانية إلى قراءة رسائل اسطنبول...

(٦)

رسائل اسطنبِول

اسطنبول، ٧ كانون الأول ١٩٧٥

سيدتي نورا،

أثناء زيارتك لاسطنبول وفي لقائنا الأول، طلبتِ مني أن أكتب لك جزءاً من قصة حياتي. وقد وعدتك أنني سأكتب رغم أنني لم أعرف (ولا أعرف حتى الساعة) كيف قبلت ووعدتك، ذلك أنني كنت أفضّل أن أتابع الحديث معك وجهاً لوجه. لكن أثق جيداً أن ما تقومين به هو لصالحنا في تركيا وأن ما سنقوله لك سيصل لكثير من القرّاء هنا وفي العالم. لذا ها أنا أقوم الآن بما وعدتك به. أعذريني أن كانت رسالتي الأولى لك لا تفي الشرط الكرونولوجي حقه. سأكتب ما تسعفني به ذاكرتي وإن قامت القصص والوقائع التي سأذكرها باللّعب في أروقة الزمن بنزقٍ طفولي.

ذات بعد ظهر يوم ولم أكن قد تجاوزت الثمانية أعوام، كان أبي يقصّ شعره عند حلاق الحي في إزمير حين وصل جيب عسكري

ترجل منه جنديّان ودخلا صالون الحلاقة واقتاداه. لم نعرف إلى أين أخذاه إلّا بعد ٤ أيام. وُضع في سجن انفراديّ لأنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي المحظور. كان الوضع مشتعلاً في تركيا العسكرية إبان حكم رئيس الوزراء عدنان مندريس الذي ألغى قوانين تتعلق بالآذان واللغة، كانت وضعتها السلطة الأتاتوركية من قبل. ذهب أبي وكثير غيره ضحية الصراعات السياسيّة في تركيا الخمسينات. سُجن أبي لمدة ١٠ سنوات كبرتُ خلالها وسافرت إلى فرنسا للدراسة بمنحة استطعت الحصول عليها من الليسيه الفرنسية. هذه الحادثة رسمت حياتي ولم أكن أعلم حينها أن يوماً ما سيكون انتمائي السياسي شبيهاً بانتماء أبي. حين أتممت دراستي في باريس، عدت إلى تركيا لأعمل محرراً مسؤولاً في القسم السياسي في وكالة الصحافة الفرنسية. أما أبي فقد كان خرج من السجن شبه مدمّر، مريضاً وكحوليّاً.

في سنوات مراهقتي الأولى كنت أحلم كثيراً. أحلم أن أعود يوماً إلى بيت أهل جدي في أنطاكيا. آه أرأيتِ كيف أقفز من زمن إلى آخر؟ أهلي أتوا من أنطاكيا، أقصد بيت أهل جدي كان هناك. بعد الحرب العالمية الأولى أصبحنا أتراكاً بين ليلة وضحاها. لم يكن من مكان نذهب إليه. فكّر جدّي بالانتقال إلى سوريا إلا أن العائلة قررت البقاء أسوة بالجميع. أصرّ جدّي على تعليم أبي وعمي العربية. كذلك جدتي التي كانت تتكلم الكردية إلى جانب العربية. أبي كان تركياً أما جدّتي لأبي فكانت من أصول كردية سورية. لقد كبرتُ وسط ثلاث لغات أتقنها رغم أن المدرسة منعت أي لغة عدا اللغة التركية. انتقلت عائلتي بين المناطق التركية وذلك بسبب ظروف عمل أبي

أو الأفضل أن أقول بسبب ظروف بطالته. ولدتُ في إزمير وعشت سنوات طفولتي ومراهقتي قرب البحر، بدّلنا منازل كثيرة في أزمير، وبعد أن سُجن أبي انتقلنا إلى اسطنبول حيث يقيم خالي.

ظلّ أبي يحلم بوطن لنا جميعاً، وطن يجتمع فيه كل الأتراك، من أكراد وأرمن، وأي قومية أو بلد أتوا. وطن يتميّز بغنىً ثقافي يجعل من حياتنا أكثر إنسانية. تركيا فيها كثير من الأعراق، وتاريخ طويل من الصراعات الدموية أيضاً. يكفي أن أحكي قصة عائلتي من جهتَي الأب والأم كي يظهر كم من الصعب صهْر كل الناس هنا تحت مظلة ثقافة واحدة وهوية واحدة. أعتقد أن ما أكتبه لك عن تركيا ينطبق بشكل ما على بلدان المنطقة. أراد أتاتورك بناء أمة لكنها قامت على حساب حريات الناس، وعلى حساب إثنيات وأقليّات كثيرة غيّرت هويّاتها ومصائرها بالقوة والعنف اللذين اتخذا اشكالاً عدّة. هل تعتقدين أن المجازر التي ارتكبت بحق الأرمن في بداية هذا القرن كانت خاتمة لجرائم تاريخنا الحديث؟ لا! لم تتوقف. حين يبدأ نظام ما بخيارات دموية من الصعب أن يتوقّف، بل من المستحيل. يعتاد على العنف ويجده حلاً سهلاً. هكذا يقول لنا التاريخ. العنف أخذ أحجاماً أصغر وغرفاً خلفية. ثم هل تعرفين ما معنى أن يُمنع شخص من التحدث بلغة تعلّمها وهو لم يبلغ العاشرة بعد؟ هذا ما حصل مع أبي. صدر قانون عام ١٩٣٤ والذي أجبر الناس على التحدث بالتركية وعلى تغيير أسماء العائلات كي تناسب القومية الأتاتوركية الجديدة. لم يسمح لجدي التحدّث بالكردية التي علمته إياها أمه في البيت. كذلك اللغة العربية التي

علمته إياها جدته. كأنّ الأوطان لم تُبنَ يوما الّا على حساب شعوب عديدة. هذه حقيقة لا تُكتب في كتب التاريخ! وجيلنا تربى على أغاني تعظيم الأوطان. الأوطان، تلك التي قتلتنا باسمها، والتي بناها من انتصر، ولا مكان للمهزومين فيها. اكتشفت أن "الوطن" هذا يا عزيزتي نورا يستمد حياته من القوة ومن رفض المختلف، لذا كرهته. وصرت، كما يبدو، مثل أبي، رغم كرهي له هو الآخر، أحلم بوطن مختلف أربي فيه أولادي وأزرع أشجاري وأصطاد سمكي، وأكّن الودّ لجاري الذي لا يشبهني ولا يحكي لغتي، جاري الذي أتعلّم منه ثقافة أخرى. أحلم بمكان لا حروب فيه ولا سلاح. لكني بتّ أعلم أن حلمي هذا مستحيل، وأنني سأضطر مرغماً إلى أن أُعلّم إبني يوماً، إن صرت أباً، حمل السلاح للدفاع عن نفسه وعن اختلافه لأنه لن يشعر بالانتماء لا للعسكر ولا لهؤلاء الذين يحلمون بأمجاد الإمبراطورية العثمانية البائسة عبر تحويل تركيا إلى مشروع ديني، لكنني لا أريد هذا المصير لابني. لا أريده أن يضطر إلى العنف من أجل البقاء... رغم ذلك سأحكي له قصة جدي ثم قصة جده وقصص أولئك المسالمين الذين كانوا شجعاناً وأُسيء إليهم واقتُلعوا من أرضهم وسُجنوا.

جدّي كان يتكلم لغات عدة ويسميها كلها لغاته "الأم"، يتكلم العربية بطلاقة. ما زلت أذكر أغنيته لنا حين يقيم في بيتنا أياماً: "حو حو يا بردي... قشقش حطب ما عندي... عندي بنت زغيورة... بتدق على الطنبورة". أسمع أيضا أمي تغني لأختي التي ولدت بعدي بثلاث سنوات، بالكردية وأحياناً بالتركية.

كان الأطفال الذكور الذين تلدهم أمي يموتون بعد أسابيع من الولادة. قالوا إن عائلة أبي هي المسؤولة، ذلك أن لعنة أنطاكيا لاحقتها. هي لعنة عائلة الشاب الذي قتله عم أبي دون قصد. اضطر إلى الهرب قبل التوصّل إلى حل بين العائلتين أو دفع فدية. وحين ولدت أنا بدأت أمي بالكذب، وصارت تقول للجميع إنها أنجبت بنتاً، حتى بلغتُ سنتي الرابعة، تناديني بالبنت وتلبسني الفساتين وتربط شعري وتضع الحلق في أذني. اضطُرَّت أن تقوم بذلك لأنها صدّقت ما أخبرتها إياه امرأة غجرية أنه لن يكون لأمي أولاد ذكور وسيموتون بعد الولادة.

ربّما من أجل ذلك، أقول ربما، وفي غياب أبي، لم ينمُ عندي إحساس بالذكورة والتي يشعر معها الشاب المزهو بنفسه أنه يمتلك المرأة بل كنت أريد فعلا أن أكون امرأة مع شعور قوي برغبتي الجنسية نحو النساء. لكن ربما هذا ليس ما تريدين معرفته عني، على الأقل ليس في الوقت الحاضر!

في إزمير انتقلنا من بيت جدي إلى بيت خاص بنا وأنا في الرابعة من عمري. أذكر أبي يحمل حقيبة كبيرة ملونة ويمسك بيدي وأنا ألبس فستاناً كالفتيات، بينما أمي تحمل شقيقتي الصغيرة. منذ وصولنا غيّرت أمي ملابسي وألبستني ثياباً عادية كما يلبس الأولاد الصبيان في الحي: سروالاً وقميصاً فضفاضاً. أقمنا في حي عمالي يقطنه الأتراك المهاجرون من الأرياف وأغلبيتهم من فلاحي المناطق النائية من الأكراد الأتراك أو الذين أتوا من سوريا. كان بيتنا عبارة عن غرفتين متلاصقتين وكنا نأكل ونقيم في الغرفة التي

ننام فيها، أما الغرفة الأخرى فكانت لسهرات أبي. أحببت بيتنا، ذلك أنه ما إن أخرجِ منه وآخذ الطريق حتى أصل إلى بيت عمي المواجه للبحر تماماً. هناك كنت أترك قاربي الصغير الذي اشتراه لي أبي في ما بعد بمناسبة عيد ميلادي السادس. صرنا نذهب مع عمي لصيد السمك في هذا القارب. أحببت البحر وأحببت إزمير. في بيتنا الجديد صارت أمي تخرج للعمل في ليسيه سان جوزيف الفرنسية والتي صرت أدرس فيها أيضاً، تهتم بالأولاد في الملعب، ثم تعود إلى البيت تطبخ وتنظف كل يوم.

تنتهي السنة ويجتمع رفاق أبي عندنا في البيت، هرج ومرج ودخان كثيف وكحول. يشرب أبي الراكي حتى يتعتعه السكر ولا يعود بمقدوره إخراج الكلمات من فمه بسهولة. لكن هذا لا يمنعه من السخرية من أمي أمام أصدقائه كلما أحضرت لهم شيئاً ليأكلوه.

أغطي رأسي باللحاف في سريري كي لا يصلني صوته ولا أسمع ما يقول. أشعر بيد أمي على رأسي وهي تقبّلني وتقول لي "لا تدع السعادة تهرب منك". أغمض عيني وأحلم بسنة جديدة وأقول إن السعادة مختبئة بذيل السنة التي ستنتهي بعد ساعات وإن عليّ هذه المرة التفتيش عنها جيداً وألّا أدعها تهرب مني، وصرت صائداً للسعادة التي لم ألتقطها قطّ. أمي علّمتني القراءة والكتابة قبل أن أذهب إلى المدرسة، بما فيها كتابة اسمي بأكثر من لغة. كانت رفيقة لأبي في الحزب. لكن بعد الزواج تحولت إلى زوجة وأم.

كان عمي أفضل من أبي، وكان يزورنا باستمرار حاملاً بيده

كاميرا. كلّ صوري وأنا صغير التقطها عمّي. كان يحب تصوير أمي ويقول إن لها وجهاً تحبه عين الكاميرا. لا بدّ أن عمي كان يكنّ مشاعر ودّ عميقة لأمي وكان يزورها أحياناً في غياب أبي ويريد تصويرها. إلّا أنّ أمي لم تحبّ صورها يوماً. أعتقدُ أنها لم تكن تحبها لأنها في أغلبها كانت محاطة دائما بنا، أختي وأنا إلى جانب أبي. طالما كرهتْ أمي صورها مع أبي ومعنا. كان هناك شيء حزين في عينيها في تلك الصور التي بقيت لديّ. كان هناك شبه ظل ارتباك دائم على سحنتها، كأنها تقيم في حالتين معاً: حالة المرأة التي تحلم بشيء خاص لها، والتي لا تحتاج إلّا لجناحين كي تطير، وحالة المستسلمة لوضعها كقَدَرٍ لا يتغير. لم تشأ تعليق أيّ صورة من صورها مع العائلة على الحائط، ولا وضعها على الطاولة في البيت. أذكر ما قالته يوماً حين كانت تنظر إلى إحداها: حتى في الصور علّي تحمّل وجوده قربي! كانت تقصد حينها أبي.

زاد أبي من نشاطه الحزبي بعد أن وجدت أمي عملاً بمردود ماديّ مقبول، وأول عمل قام به توزيع مناشير الحزب علانيةً في الشارع فما كان من الجيش التركي إلّا أن اعتقله كما ذكرت لك في بداية رسالتي. كنت قد وصلت لتوي من المدرسة حين أتوا لاعتقاله. ولما لم يجدوه دخلوا وقلبوا كل شيء، الأسرّة والخزائن والرفوف التي عليها كتبي المدرسية وكتب أبي السياسية. مزّقوا كل الكتب، وسألوا أمي عن مخبأ السلاح.

"سلاح!؟" سألتهم أمي بغضب،

"ألا يكفي ما تفعلون بنا، من يتجرّأ على اقتناء السلاح في بيته؟".

قتلوا كلبي بارود الذي بدأ يعوي حين رآهم يقتربون من مدخل البيت بأسلحتهم وأحذيتهم الثقيلة. أحدهم صوّب عليه السلاح وأطلق رصاصة واحدة كانت كافية للقضاء عليه. هوى بارود على الأرض فيما تحوّل عواؤه إلى أنين.

الكتابة صعبة. هي ليست لا شيء. هي ليست من العدم! الألم يحضر بمجرد التذكّر، فكيف يكون أمري حين يتحوّل هذا الألم إلى كلمات وصور أمامي. لا أستطيع تجاهل رضوضي. هي هنا وأشعر بها كل لحظة. طالما فكّرت أن النسيان رحمة.

حين انتهوا، خرجوا وتركوا أمي تضرب رأسها بكفّيها وتنقذ ما أمكن إنقاذه من التلف الذي أصاب مفروشات البيت. أما أختي فقد عقد الخوف لسانها واختبأت في سريرها وهي تبكي... فيما رحت أمرّر يدي على رأس كلبي بارود الذي يحتضر أمام الباب، أحدّثه وبي رغبة جارفة للصراخ لكنني لم أفعل. لم أستطع البكاء.

على شاطئ البحر كسروا زورقي الصغير قطعاً صغيرة تناثرت على الرمل. لم يتركوا شيئاً لم يخرّبوه شأنهم شأن العسكر في هذه المنطقة. لا شكّ أنّكِ تعلمين عمّا أتكلم وأنت الآتية من بلد صادرت السلطةَ فيه جماعةٌ تَحكمه الآن بالقمع والمخابرات.

كبرت ذلك اليوم ولم أعد صبيّاً. كبرت دفعة واحدة. الغضب جعل منّي رجلاً يريد أن يحاسب وينتقم. رجلاً أحسّ بالإهانة والخجل والعجز أمام قوّة غاشمة لا تعرف العدل ولا الرحمة. ذلك الغضب أفقدني كمال الذي كنت!

أعترف أن الأمر الوحيد الذي قلّل من حزني ذلك اليوم هو

أنهم اعتقلوا أبي وأنه لن يعود مساء إلى البيت، وأننا أمي وأنا مع أختي الصغيرة سنعيش ربما بسلام أكثر. كان أبي الشيوعي يحضر الإجتماعات ويناقش ويتصدّى ويطالب بحقوق المرأة وبتحسين وضع العمال والطبقة الفقيرة. لكن حين يعود إلى البيت يبدأ بالسباب ويطالب بمعاملته كملك ليس فقط من أمي بل من صغاره أيضاً. كان هذا التناقض يخيفني ويفقدني الأمان. في الحقيقة كان يخاف أمي فهي كانت أطول قامة وأقوى منه بدنيا. يشتمها في غياب الضيوف بصوت خفيض كي لا تسمع ثم يقوم بغمزي كأنه يريدني أن أتواطأ معه ضدها. كان جباناً، لكنه كان شديد الذكاء، ذلك الذكاء الذي يتميّز به ثعلب مجروح، وكان يعرف كيف ينتقم منها عبر وسائل مختلفة أكثرها اجتماعي وتضطر هي إلى أن تصمت درءاً لنميمة لا تنتهي في الجيرة وفي الحي. لم أكن أحب أبي، لكن ربّما عليّ الآن أن أكون أكثر رأفة حين أكتب عنه، فهو رغم كل ذلك لم يخسر نفسه، لم يشِ برفاقه ولم يصبح مخبراً لدى جهاز الأمن التركي بعد خروجه من السجن.

لم أرد أن أصبح شيوعياً مثل أبي ربما لاعتقادي أن كل الشيوعيين هكذا في الخارج يلعبون لعبة المناضلين، يناقشون ويحاورون، وفي داخل بيوتهم يعودون إلى طبيعتهم الأولى الممتلئة نزقاً ورغبة في السيطرة. لكن الحياة تدفع بنا إلى أمكنة لا نتوقعها ومصائر لم نخطّط لها سابقاً. وحين ألتفت إلى الماضي أفكر أنّ ما أنا عليه الآن قد افترقَ نهائياً عن الطفل الذي كنت، وأنّ الدفء الذي شعرت به في قلبي وأنا أنتظر السنة الجديدة كان حلماً، وأنه انتهى دون أن أدري.

سأتوقف هنا. مودة صادقة
كمال فِرات

***

اسطنبول، ١٨ شباط ١٩٧٦

عزيزتي نورا
ربما تساءلتِ عن سبب تأخري بكتابة رسالتي الثانية إليك رغم جوابك القصير الذي وصلني عبر وكالة الصحافة. كنت أنتظر سفر تيمور إلى بيروت كي أسلمه الرسالة، لا بدّ أنك تذكرينه. ربّما لم أقل لك حين التقيتِه في اسطنبول إنه زميلي في الوكالة وصديق أثق به وأعتمد عليه في كثير من الأمور. لا بدّ انك ستلتقينه مراراً.

سعيد بخبر زيارتك المقبلة لاسطنبول في عطلة الربيع. سيكون الطقس هنا قد تحسّن، وستكون مناسبة جيدة للقائك ثانيةً. بالنسبة لسؤالك، للأسف لن تجدي أيّاً من مقالاتي في وكالة الصحافة مترجماً إلى الانكليزية وبالطبع لن تجديها باللغة العربية. نحن من بلدين جارين ولا يقرأ أي منا ما يكتبه الآخر. قد تقوم أجهزة المخابرات فقط، في كل بلد من بلدينا، بهذه المهمة بهدف التجسس وليس لدعم حسن الجوار. لكن على الأقل أستطيع متابعة ما يُترجم أحياناً إلى الانكليزية مما تقومين به من برامج للإذاعة البريطانية. أرجو منك أن تتركي اسمي مغْفلاً كذلك أسماء رفاقي في البرنامج الذي تعدّينه عن المعارضة التركية. إنها مسألة حساسة

وأنت تعلمين العواقب هنا وازدياد التضييق على المعارضة يوماً بعد يوم خاصة بعد انقلاب ١٩٧١ العسكري، اقتيد معه وبعده العديد من الرفاق في الجامعات والمصانع إلى السجن. أشعر أحياناً أننا وقعنا في فكّي كمّاشة بل في فخ ذي أنياب ثلاث: سلطات موسكو، والعسكر المدعوم أميركياً، والصعود الديني المخيف. قوى أراها في النهاية متشابهة من حيث إبقاء تركيا في قبضة القهر وإسكات الحريات. تاريخ تركيا يتغيّر، كذلك تاريخ المنطقة، هناك جبل من الانهيارات أراه قادماً. علينا أن نجد صوتنا بعيداً عن تلك المطبات القاتلة رغم أننا ندرك الأخطار التي تواجهنا من الجميع والثمن الذي ينتظرنا.

ما يأتينا عبر الوكالة حيث أعمل عن حوادث لبنان غير مطمئن. لست مرتاحاً لما يجري. انتبهي لنفسك وأخبري تيمور رجاءً عن موعد رحلتك القادمة إلى اسطنبول. أرغب في استقبالك.

أقبّل رأسك وعلى أمل اللقاء

كمال

***

اسطنبول، ٢٠ نيسان ١٩٧٦

نورا

اسبوعان قضيناهما معاً في اسطنبول غيّرا حياتي. هل هذه هي السعادة؟ هل هذا هو الحب؟ لم أعرفه بعد رغم سنواتي التي تخطت

الثلاثين. كأنني كنت أنتظرك، أنت التي من عمر الأرض.

(...)

حين سافرتِ وجدت نفسي وحيداً، كذلك الشعور الذي ملأني في اليوم الأول من ذهابي إلى المدرسة، الشعور بالتخلّي، الوحدة التي عليّ مواجهتها. أن أتذكر كل ذلك في عمري الآن وبعد سفرك، يسمح لي أن أرى إلى أي درجة وجودك القصير هنا ربطني بك.

(...)

حين نلتقي المرة القادمة سأحكي لك عن أحلامي حتى الأكثرها جنوناً والتي قد تصبح واقعاً إن أنت وافقتِ. أنتظرك كل الوقت بثقة وصبر.

دعيني أقبّل عينيك

اسطنبول، ٢ ايار ١٩٧٦

نورا

(...)

أؤمن بك وبرحلة روحك. هناك بحّارة يسافرون ويتركون وراءهم ميناء يربطهم بالعودة ولكن يسافرون في أرخبيلات أحلامهم. هؤلاء يشبهوننا يا حبيبتي. أفكر بك وأحبك دائماً. أصبح معنى الهاتف أن أسمع صوتك وليس غير ذلك. كما أن قراءة كلماتك هي بلسم العذاب الذي يولدّه الفراق.

أكتب لك هذه الكلمات القصيرة وتيمور ينتظرني. أكتب لك فيما

شالك الذي تركتِه على السرير يوم سفرك ملفوفاً حول رقبتي. أمرّغ فيه وجهي وأتنفس عميقاً رائحتك وأعلم كم أحبك.

(...)

كمال

اسطنبول، ٢١ أيار ١٩٧٦

نورا

(...)

ثم أنتظر الأسبوع القادم وما عدت أطيق الانتظار. بطاقة سفري لا تفارقني منذ أيام. أحلم بلقائنا. لديّ الكثير أحدثك عنه في بيروت.

(...)

***

اسطنبول، ١٤ حزيران ١٩٧٦

نورا

(...)

... كان جسدك يغمرني بنور، نور جلدك المشعّ كهالة زرقاء حولنا وحول سريرنا. أليس هذا من رابع المستحيلات أن نجد بعضنا، أنت في بلد وأنا في آخر وبيننا فروقات الجغرافية والمجتمع. إنه الحب كأنني كنت أنتظرك منذ مئات السنين. أنتظرك أنت التي

من عمر المحيطات.

إنها تماما السعادة. تلك التي كثيرون منا لا يحسنون التعبير عنها إلا حين تغدو ماضياً. لكنني أراها في الحاضر وفي المستقبل

قلت لي انه لا يوجد لديك وصفة للسعادة، أما أنا فأعلم متى تكون، ومتى يكون الحب، مجبول دائماً بالشك والخوف واللايقين. إنه حين تندفعين إلى الآخر دون أن يجبرك أحد على ذلك. إنه الرغبة في أن تكوني هنا، في حالة الحب تلك. أن تكوني مع الحبيب.

هي تلك الرغبة، رغبة أن نكون بقوة، أن نكون معاً، هنا وفي هذه اللحظة بالذات.

سأعيد ما همسته لك في بيروت من كلام مولانا جلال الدين الرومي:

"أموت حبا بك كغيوم بعثرتها أشعة الشمس".

(...)

أنتظرك في اسطنبول.

***

اسطنبول، ٢٥ تموز ١٩٧٦

حبيبتي

غيابك مؤلم. قلت لنفسي هذا الصباح إن هذا البيت الذي

لم تطأ عتبته امرأة غيرك صار يحتاج إلى وجودك بشكل أساسي وأولي. كل غرفة فيه تحمل بصمة من بصماتك، وهواؤه يحمل عطرك. أعزّي نفسي بالقول إن غيابك عنه الآن ليس بفراغ. الغياب حاضر لكنه أقل وطأة: قميصك الذي تركته معلقاً في الخزانة بين ملابسي، وصورتك قرب السرير. تلك التي أخذتها لك وأنت أمام بيتنا القديم في اسطنبول. أردت أن اصوّرك هناك لتدخلي ليس في قلب حاضري ومستقبلي فحسب، بل في ماضيّ أيضاً.

(...)

سأنام الآن، وأفتش عن نظرتك وأجدها في أحلامي.

قلبي مغمور بحضورك

كمال

***

اسطنبول، ٨ أيلول ١٩٧٦

(...)

أسمع الأخبار الآتية من لبنان. أتساءل إن اتخذ النظام السوري قراراً بقضم ما تبقّى من استقلالية لبنان بمباركة عربية وربما عالمية. أتوقع أياماً سوداء...

أخاف عليك وأريدنا معاً.

(...)

سأغادر الآن إلى إزمير. كلما أردت الاختلاء بنفسي أترك اسطنبول إلى إزمير، هناك حيث ولدت، أحتاج لرؤية البحر، ستقولين لي ولكن اسطنبول لها بحر أيضاً، لكن بحر إزمير هو الوحيد الذي يعيدني إلى نفسي، إلى الصلة مع داخلي الأعمق. لا بدّ أن نذهب معاً إلى هناك يا حبيبتي. عشتُ البحر وأشعر أنني من البحر، هو بوّابة تعلّقي بالحياة. أبعث لك صورة. هذا هو الشاطئ قرب بيتنا، والبحر هو صورة الحياة. هو دائماً يحكم ويربح. حين أشعر بالضياع أعود إلى هناك، حيث البحر يعيد عليّ ما علّمني إيّاه مراراً. في الحياة كما في البحر، ما عليّ سوى تعلّم كيف أدير دفّة السفينة، عليّ أن أحترم الريح وأن لا أصدّق إلهاً أحمق أو نبيّاً دجّالاً قاسياً، بل أن أبحث عن معدن إنساني أصيل فيه تكافؤ الروح والمادة. أكتب كلّ ذلك وأفكر بنا معاً. هل تفكرين بي أنت أيضا؟ تلك المعادلة القديمة هي بوصلة الحب، الرغبة ورغبة الآخر، معاً. ثم أرانا كيف نتعلّم السير مع تلك المعادلة في محيط صعب. نتعلّم إدارة دفّة السفينة جيداً في أوقات الرياح والعواصف، وأحياناً في أوقات غيابهما...

سأحاول الاتصال بك اليوم كالعادة. كم أحب هذه الكلمة "كالعادة". أريد لحياتي معك أن تكون هكذا، كالعادة، ككل يوم.

(...)

أقبّل عينيك وفمك

اسطنبول، ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٦

نورا

(...)

في يومنا الأخير، حين رأيتك تستديرين لترك السرير اشتهيتك في تلك اللحظة، مرة جديدة. تلك الشهوة المؤلمة. نظرتي إلى جسدك العاري ولّدت لدي مزيجاً من الكآبة والشهوة، وخزاً في القلب، كأنك، باستدارتك تلك، كنت تدوسين على قلبي بقدمين عاريتين، تمشين على جسدي. شعرت أنك تتركينني على نحو ما.

لم أشأ أن تعودي إلى بيروت بهذه السرعة. رغبتُ في أن تمكثي لمدة أطول هنا. اللقاء ثم الافتراق ثم اللقاء يجعلني كمن لا يملك نفسه. أرغب في البقاء في دائرة عطرك التي ملأت البيت. مازلتِ هنا بمعنى ما.

أقبّل أصابع قدميك الشهيّتين

(...)

اسطنبول، ٥ كانون الاول ١٩٧٦

نورا،

إنه منتصف الليل هنا، وأنت هناك. لم أرتوِ من هاتفنا. أعطيك لذّة العالم الآن. فقط استقبليها بحبٍّ وكرم. أشعر بكرمك هنا رغم غيابك، وأنا بدوري أستقبل حبّك في هذه اللحظة بالذات.

إنّه الحب الذي يحوّلنا إلى آلهة.

(...)

اسطنبول، ٢ نيسان ١٩٧٧

حبي،

(...)

... وفي القاهرة ذهبت إلى خان الخليلي. هناك رأيت عطّاراً يبيع العطور بقوارير زجاجية هشّة انتظمت في جمال أخّاذ بألوانها المبهجة على الرفوف. شممت عطراً من قارورة صغيرة انعكست عليها ألوان قوس القزح، وأشرت له بيدي أنني أريده. فجأة سمعت العطّار يسألني بالإنكليزية

وبلكنة مصرية ظريفة:

How much you want Sir? Is fifty grams of paradise enough?

(كم تريد يا سيدي؟ هل خمسون غْراماً من الجنة تكفي؟)

خمسون غراماً من الجنّة...! صرت أردّد ضاحكاً سعيداً بسؤاله...

خمسون غراماً من الجنة!...

قال غراماً ولم يقل مليتراً... ماذا يهم، قلت في نفسي... يكفي أنه يعرض عليّ الجنة، وما يعرضه كثير عليّ يا حبيبتي... كثير. يكفيني غْرام واحد من جنّتنا معاً...

(...)

اسطنبول، ١٢ أيلول ١٩٧٧

(...)

قطعت الحدود مرّات عدّة بين تركيا وسوريا وبين تركيا والعراق... غريب كيف تختلف الحدود بجغرافيتها الوعرة من جهة وبانبساطها الصحراوي من جهة أخرى. قطعت الصحراء مرّة وكان صمت لا يشبه الصمت الذي نعرف. قلت لي مرّة يا حبيبتي إنني عبر الصمت أسمع صوت رغبتك...

رغبتك التي تُجَلجِل في داخلك حين تشتاقين إليّ وتريدينني. تذكرت ما قلته لي وأحسست أنه بالفعل صوت الرغبة. صوت رغبتك يقرّبني من الله، بل هو صوت الله.

(...)

اسطنبول، ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٧

(...)

ضائع أنا منذ عودتي من بيروت. أيامي أحسبها حين نكون معاً فقط... أسأل نفسي لماذا حتى الآن لم تتركي بيروت. لماذا لا تأتين للإقامة هنا؟ هل سنستمر هكذا؟

الآن أذكر ما قلتِه أن لكلّ منا حفرته السوداء...

حفرتي السوداء، يا حبيبتي، منذ التقينا، غدت حديقة ملونة...

(...)

اسطنبول، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٧

يا حبي،

أمامنا الكثير لنناقشه حين نلتقي. انتقالك من بيروت ثم عملك هنا في اسطنبول. تذكّري ما تحدثنا عنه بالأمس على الهاتف. علينا أن نختار إما الوجهة أو السرعة. لا نستطيع اختيار الإثنين معاً. ولا تهتمي لفارق اللغة يا حبيبتي، استطعنا أن نتجاوزها منذ أن التقينا.

نحن من منطقة واحدة. عقلية العسكر والمخابرات هي نفسها، الاستبداد نفسه، القهر نفسه، ولو بلغة مختلفة. لنا لغتنا، والمكان لا يحدّدها، بل حبنا.

(...)

الموت يزحف على الشرق الأوسط. العنف سيطال الكثير. لكنّنا سنكون معاً.

أنتظر حضورك بشوق

(...)

***

اسطنبول، ١ آذار ١٩٧٨

الحب يبطئ الزمن أم إنه يجعلنا لا نشعر بمرور الوقت... أم إن الوقت هو الذي يجعلنا لا نعود نشعر بالحب...

قرأت رسالتك مرات. نعم يا حبيبتي الحرب تستمر ولا تنتهي، والتفاؤل شجاعة يفتقدها الكثير من الناس حولنا. وكما كتبتِ في قصتك عن أختك هناء: الأمل يحتاج إلى شجعان.

لن أضغط عليك أكثر، رغم أنني أريدك أن تتركي بيروت اليوم قبل غداً. لكن أن تتركي بإرادتك وحدك، مع شعور أقل بالخسارة والفقدان.

(...)

اسطنبول، ١٥ اذار ١٩٧٨

(...)

حبيبتي

(...)

... أتابع ما يجري في جنوب لبنان. حتى الآن لم يأتنا أي خبر عن أي محاولة للجيش السوري بالرد على عملية الليطاني الإسرائيلية رغم أن الجيش السوري يحتل الاراضي اللبنانية! أتساءل ماذا يفعل هناك إذاً!

أعلم موقفك من مدير المكتب حيث تعملين. لكنني الآن أتفق معه أن ذهابك إلى الجنوب جنون.

أخاف عليك. لا تخاطري بنفسك وبالجنين. أنتما حياتي.

(...)

اسطنبول (دون تاريخ)

... أعلم أن رسالتي ربما لن تصل، رغم ذلك سأكتب لك، ورغم أن هاتفك في بيروت مقطوع وأن المطار مغلق وأن الوصول إليكِ مستحيل... سأكتب لك.

رغم كل الطرق المسدودة يا حبيبتي سأتخيل أننا معاً، وأن المطر الذي أسمعه الآن نسمعه معاً، نسمعه معاً من على سريرنا، سأتخيّلك تبتسمين حين تقرئين كلمة سريرنا وتقولين لي إنه "لم يصبح سريرنا بعد بل ما زال سريركَ وحدكَ فقط". ولكن يا حبيبتي لا أملك شيئاً خارجك أنت، كل ما لي هو لك، وحين أفتش عن أثاث للبيت هنا في اسطنبول أفكّر أنه لنا نحن الاثنين.

أقبّلك في كل جزء صغير من جسدك. قبّلي عني طفلنا، حبنا، الذي ينمو في داخلك.

(...)

اسطنبول، ٥ أيار ١٩٧٨

(...)

... بدأت أكتب عن الذكرى العاشرة لأيار ١٩٦٨... كما لو أنها البارحة لكني توقفت. كنت أتابع دراستي في باريس حينها وأتحضّر للعودة إلى اسطنبول. لم ندرِ في تلك اللحظات أن الحركة التي اعتقدنا أنها ستغيّر العالم ستختنق بعد زمن قصير.

كم تغيّر الوضع منذ ذلك الوقت. لم يبق من تلك الذكرى شيء سوى الـ٦٩...!
(...)

***

اسطنبول، ١٥ حزيران ١٩٧٨

(...)
في ممارستنا الأخيرة للحب من كان يصدق أنك حامل!
أنت بعيدة الآن يا حبيبتي، رغم ذلك نحن معاً. إنها المرة الأولى التي تقولين فيها إنك اقتنعت بفكرة مغادرة بيروت. كنت أنتظر كلماتك تلك. سنلتقي قريباً. أَعدك.
(...)

***

اسطنبول، ١٠ تموز ١٩٧٨

اعتقلوا بعض الرفاق اليوم فجراً. المكان يضيق هنا يا حبيبتي. بتّ أخاف الذهاب إلى الوكالة. إنهم يلاحقوننا. أردت أن أرعى الأمل هنا في اسطنبول، لكني سأضطر إلى ترك المدينة غداً أو بعد غد إلى إزمير وسيغدو من المستحيل العودة في ظرف كهذا. كما اتفقنا

على الهاتف في آخر حديث لنا، يجب أن تخرجي من لبنان، لكن ما عدت أشعر بالأمان هنا. لذا سنجد مكاناً آخر غير تركيا. تيمور، إن استطاع السفر هذا الأسبوع، سيخبرك بكل شيء. سأحاول أن أتسلّل من إزمير إلى بيروت في أقرب فرصة لأراك وندبّر أمر خروجنا معاً، أحاول إنجاز الأوراق هنا عبر السفارة الفرنسية. أتوقع منك الآن أن تقولي لي إنك ستشعرين بالغربة إن سافرنا إلى بلد ثالث تجهلينه، لكن شعور الغربة في بلداننا أكثر مهانة من أيّ مكان آخر (...)

سأدع رأسي يستريح في أقرب مكان من داخلك الحيّ، وسأشعر بيديك داخل شعري، ووجهي ملتصق بأكثر الأمكنة دفئاً وماءً فيك.

أحتاجكِ.

(...)

(٧)

الخندق الغميق

آب ١٩٩٤

مش عم بقدر نام... لشو كانت هالزيارة هيدي؟...

تحدّث صباح نفسها وتقصد زيارة مايا لها ظهر أمس، فيما تتقلّب على فراشها في الطابق الأرضي من المبنى في الخندق الغميق. ليس الحر هو الذي أيقظها هذه المرة، بل قلق يتغلغل في شرايين رأسها ويؤلمها. أرقام تمرّ داخل شاشة عينيها كأنها ما تزال نائمة وكأن ما تراه كابوس مزعج. أصوات وأحاديث وكلمات لنورا، اعتقدت أنها نسيتها، تتكرّر وتطنّ في رأسها. رجال بثياب مرقّطة يمرون أمامها يقفون قرب السرير ثم يرحلون. أحذية عسكرية وروائح نتنة وصراخ مكتوم. تُنزل رجليها من السرير، وتفتش بين أكوام العلب الكرتونية الصغيرة المنتشرة على الطاولة الصغيرة عن دواء. تجد "الكزاناكس" على الأرض قرب قائمة السرير، وتتناول حبة تبتلعها دون ماء. هكذا

قد يخفّ ألم رأسها قليلاً، قد يهدأ توتّرها أيضاً. تعتقد أنه منذ التوقّف المبكر لطمثها عن زيارته الشهرية والصداع يلاحقها.

"كلما بشوف الحكيم بيقللي معي ديبرسيون. شو هالمرض اللي ما بيخلص". تقول صباح فيما تقف وتقترب من بعض الأغراض المبعثرة والموزّعة حول سريرها وفي زوايا الغرفة. أغراض هنا وهناك. أكوام من الثياب، أكياس بلاستيكية مليئة بأشياء تعتقد أنها قد تحتاجها يوماً إلا أنها ملقاة هنا منذ سنوات، كرسي يحتاج إلى تصليح، مرآة مكسورة، إطارات صورٍ وجدتها يوماً إلى جانب الطريق، ستارة مطوية ممزقة من وسطها، علب بلاستيكية صغيرة. أصص فارغة، هاتف معطّل، أكداس من المجلات والجرائد في بعضها صور لها وعلى صدرها صورة باهتة لرجل بالأبيض والأسود. على الجدار قرب السرير علّقت صباح صورة الزوج المخطوف وألصقت حول إطارها أزهار قرنفل بلاستيكية.

تفكر دائماً أن عليها ترتيب شؤون بيتها وتنظيفه من أغراض كثيرة ما عادت بحاجة إليها، لكن حين تقرّر الشروع بالتنظيف يعاودها ألم الظهر ولا تفعل شيئاً في النهاية، بل تجلس وتنتظر. تنتظر من سيعود أولاً، أحمد الزوج أم أحمد حبيبها القديم، وتفكر بتلك الدماء التي سالت من معصميهما (هي وأحمد الحبيب) وبالقسم أنهما سيبقيان معاً مدى العمر، وتسأل ماذا حلّ به؟ كأن الحب لا يحتاج إلى أكثر من أيام معدودة لينتهي ولا يعود صالحاً كثمرة التوت الشامي. مواء قطّة يأتي من حديقة شقتها الأرضية وخربشة مخالبها على باب المطبخ. إنها زائرتها الوحيدة. تلفّ العباءة الصيفية الكبيرة حول جسدها

شبه العاري بسبب حر الصيف، تنتقل متمايلة، وهي تضم شعرها المصبوغ بلون أشقر بمشبك، من الغرفة الضيقة إلى الصالة الصغيرة ثم تنسى ما أرادت فعله هناك. تستدير باتجاه المطبخ وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة لتعبّر عن ضيق ما. تتوقف في الممر الضيق وتنظر قليلاً إلى بوستر كبير بالأسود والأبيض ملصق على الجدار. صورة لرائد الفضاء الروسي يوري غاغارين وهو يلّوح مبتسماً من نافذة طائرته. اصفرت أطراف الصورة وتمزّق جزء منها. تمعن صباح النظر في وجهه وتبدو أمامه، كتلك الصورة تماماً خارج المكان والزمان. ثم تدخل المطبخ وتفتح بابه الخشبي الذي يفضي إلى الحديقة الصغيرة، وتجد أمام الباب الهرة التي تعيش في الحديقة منذ سنوات، والتي بقيت بلا اسم، تنظر إليها وتموء، فيما صباح تتوقع كل يوم رحيلها دون عودة. كرحيل حبيبها أحمد وزوجها أحمد أيضا. كرحيل كل الناس الذين أحبت في حياتها، نورا وطفل نورا، كمال وتيمور والخواجه ابراهيم وصديقتها الوحيدة مريم. مريم التي كانت آخر الراحلين والتي واظبت صباح على زيارتها أثناء مرضها، تعطيها النقود كي تأتي ببعض الطعام. ما عادت تمشي بشكل جيد. وحين تزورها تراها ممددة على الفراش وأمامها راديو الترانزيستور على الطاولة الواطئة. باعت أثاث منزلها قطعة وراء أخرى. بقيت لوحة واحدة من كل ما كانت تملكه. ثم لم يبق لديها شيء على الاطلاق. تستعرض صباح في رأسها أسماء كل من غاب عنها إن بسبب الموت أو السفر. خيط رفيع غير مرئي يفصل بين السفر والموت يجعلها لا تحسن تذكّر سبب غياب كل واحد من هؤلاء.

كلهم رحلوا، ولم تشأ صباح أن تتعلّق بتلك الهرة التي تموء في الحديقة، ولا أن تعطيها اسماً. لترحل هي الأخرى قبل أن تحملها وتمرّر يدها على فروها الناعم، قبل أن تقبّلها وتحبها. لم تدعها تدخل المطبخ ولا غرفة النوم. تضع لها الطعام والماء قرب باب المطبخ فيما تتمتم "أنا إلي البيت وانت إلك الحديقة وهيدا بيكفيكِ". اعتادت أن تحادث نفسها منذ اختفاء زوجها. حين خرجت إلى الحديقة كان الوقت قد تجاوز الواحدة فجراً، إلّا أن ضوء القمر الكامل كان ينير البقعة المظلّلة بالأشجار الهرمة ويعكس ظلال أغصانها على الأرض كأنه شعاع شمس تغيب. جلست على كرسي تحت شجرة الأكيدنيا المائلة أغصانها بعيداً عن اتجاه البحر، وأشعلت سيكارة. بدت تجاعيد وجهها المرتسمة على بشرتها البيضاء البلورية المحاطة بشعر غزير ملون كخطوط رقيقة مظلمة في مساحة من نور. من يرَها يفكّر دون عناء أنها جميلة رغم سمنتها الملحوظة وتجاوز جسدها باستداراته المقاييس الراهنة للجمال. جمال يمر دون جلبة ودون أن يترك كبير أثر في ذاكرة من يراه. لكن استدارات جسدها ليست حديثة العهد، بل أتت بها من سنوات مراهقتها التركية في ماردين.

ألقت رأسها إلى الخلف بعد أن هدأ ألمه قليلاً. شعرت بندم فظيع أنها سمحت لتلك المرأة (مايا) أن تعيد فتح جروح قديمة حسبت أنها اندملت. لماذا حكت لها ما حكت؟ لا تعلم كيف حصل كل ذلك، كأن بركاناً في داخلها انفجر منذ جلوس الزائرة قربها. صارت تحكي ولم تتوقّف عن الكلام إلّا حين وقفت المرأة لتنصرف قائلة إنّ عليها اصطحاب ابنها الصغير من الحضانة.

عواء كلاب شاردة يرتفع وينتقل من مكان إلى آخر فيما صباح جالسة على الكرسي في ليل الحديقة وهي تتمتم. تلوم، بل تشتم نفسها مردّدة أنها غبيّة! وقفت ومشت صوب زاوية الحديقة المشرفة على وسط بيروت. ألصقت جسدها بالسور الصدئ الذي يطلّ من إحدى جهاته على جدران مدافن الباشورة التي لا تبعد عن بيتها سوى عشرات الأمتار. "مرمى حجر" يقول سكّان البنايات المحيطة بالباشورة، "الموت هنا مرمى حجر"، يضيفون. تقف صباح دائماً في هذه الزاوية، وتروح تفتّش عن أفضل مكان من الأرض المترامية والمليئة بالشواهد الرخاميّة. تبحث كل مرة عن أفضل مكان لائق لابن عمّتها وزوجها أحمد. مكان تستطيع أن تراه من هنا من زاوية الحديقة وهي واقفة ملتصقة بسورها. وتفكّر لو أنهم أعادوه لها ولو محمولاً لكانت دفنته في الجهة هناك، تلك التي تقع ناحية الشرق والتي تشرب من شعاعات شمس الصباح، ولصارت تزوره مع عمتها فوزية كل نهار جمعة، تضع على قبره الأزهار وتحدّثه. لكن حتى هذا الأمر لا تستطيع القيام به ولا تعرف إن كان زوجها حيّاً أو ميتاً. من الجهة الجنوبية تشاهد جزءاً من البحر. هو ليس ببعيد عنها لكنها لم تزره إلّا مرات قليلة بصحبة نساء الحي قبل أن هاجرن خلال سنوات الحرب وتشتّتن في بلاد الله. كن ينزلن إلى البحر كل عام بمناسبة يوم أربعاء أيوب. يخلعن جواربهن ويمشين فوق سطح الماء كالرسولات.

تشاهد صباح أمامها وسطَ المدينة المدمّر الذي بقي معتماً طيلة سنوات الحرب تضيئه القنابل التي تعبر سماءه. تراه مضاءً

الآن بكشّافات عملاقة تعمل تحتها الجرّافات التي تُلقي بكل ما تجده في ذلك البحر الذي ابتلع الأموات كما ابتلع قصص الأحياء وذاكرتهم.

في المنطقة الواقعة بين الحي السفلي من الشارع حيث تسكن، ووسط المدينة، بدأوا بالجرف وهدم ما تبقى من ردم الحروب. طلبوا ممّن تبقّى من القاطنين في بيوت ليست لهم الرحيل قائلين إنهم يريدون إعادة إعمار قلب بيروت.

تعود صباح إلى كرسي الحديقة، تشعل سيكارة أخرى وتعجب كيف دخلت تلك المرأة بيتها ودفعتها إلى الكلام. هي لم تخبر أحداً أسرار حياتها التي حملتها منذ كانت طفلة في الثانية عشرة. حياتها في ماردين وحياتها هنا في بيروت. لكن مع وصول مايا كل ما حاولت إخفاءه عاد إليها بقوة. فقد دُقّ الباب، ونظرتْ صباح من نافذة المطبخ الصغيرة ورأتْ امرأة أربعينية، نحيلة، قصيرة القامة يغطي شعرها البني نصف وجهها. فتحت لها فيما الجملة الوحيدة التي ترددها عادة على طرف لسانها: "انتو غلطانين بالعنوان!" لكن ما إن فتحت الباب حتى سبقتها الزائرة بالسؤال:

"عم فتش على ست اسمها صباح..." قالت لها، وخرج صوتها كأنه رجاءٌ تَعِب.

هي لم تخطئ بالعنوان. هي تقصدني أنا بالذات، فكّرت صباح. للحظة أرادت أن تقول إنه لا يوجد أحد بهذا الإسم... لكن فكرة أن تأتي امرأة مجهولة لا تعرفها من قبل لزيارتها أفرح قلبها. أن تقصدني أنا بالذات، أنا ولا أحد غيري. هل تحمل معلومات جديدة عن زوجي

أحمد؟ هل هي من الصليب الأحمر؟ أو صحافية تريد تذكير الناس بنا ثم نسياننا من جديد؟ هل أتت لأمر يتعلق بالمقابر الجماعية للذين خُطفوا وقُتلوا والتي وُجدت في أحياء مختلفة من بيروت؟ لكن لمَ الآن؟ لمَ أنا؟ وكيف وصلت إليّ، رغم أن وجه الحي تغيّر كله خلال الحرب ولم يعد أحد يعرف حتى عنوان بيته؟

أسئلة لا تنتهي مرّت في رأس صباح قبل أن ترد.

– إيه أنا، أنا صباح نعم، مين إنتِ؟

– أنا مايا عامر، عم صوّر فيلم عن قلب بيروت. حبيت قابل ناس كانوا ساكنين بهالمنطقة قبل وخلال الحرب. قالولي إنتِ ما فلّيتِ، بقيتِ هون من أكتر من ٢٥ سنة.

– "تفضلي" قالت لها صباح ومايا لم تنتظر منها هذه الكلمة استئذاناً بالدخول. مشت أمامها نحو غرفة الصالون. كانت مايا قصيرة القامة هشّة تظهر عظام ظهرها الرقيقة عبر قميصها الأسود الضيّق والمنسدل على تنورة واسعة داكنة اللون. بدا جسدها مترنّحاً تحت وزن حقيبة يد جلدية سوداء علقتها بكتفها. حقيبة أخرى مصنوعة من القماش السميك حملتها في يدها تضع فيها كاميرا وأشياءً أخرى.

جلستا قريبتين على كنبة طويلة قديمة غطّت صباح وجهها الممزق بقطعة قماش ملوّن أتت به من ماردين.

فتحتْ مايا حقيبتها وأخرجتْ منها قصاصات جرائد وأوراقاً وصوراً ودفاتر صغيرة كتب عليها بكل الاتجاهات وبأكثر من لغة. أبقت هذه الأشياء مجتمعة على حضنها بعض الوقت كطفل صغير:

"صوّرت البيوت المهجورة وشبه المدمرة والفارغة. بإحدى الشقق، لقيت حقيبة فيها رسائل وصور ويوميّات وجرائد قديمة وأشياء كثيرة. عرفت اسمك وعنوانك، مكتوبين على ظرف كبير لقيته مع الأوراق. أوراق مطوية ودفتر هاتف فيه أرقام لمحلات بوسط المدينة ما عادت موجودة، وصور قديمة واسمك مكتوب على قفا بعضها. هي صور إلك بالتأكيد. هيك وصلت لعندك. دلّني عليك المختار اللي براس الشارع فوق".

حين دخلت مايا إلى محل السمانة الذي يملكه المختار لتسأله عن عنوان ليست متأكدة منه وعن صباح كرابوز، لم تتوقع أنها ستجد الجواب بهذه السهولة. قام المختار السبعيني عن كرسيه الخشبي فيما وضع يده على صدره معتذراً عن مصافحة مايا التي مدّت يدها للسلام. ابتسمت امرأة كانت تقف داخل المحل وقالت لمايا "الحاج ما بيسلّم عالحريم"، فيما مشى الرجل أمامها إلى مدخل باب المحل وأشار لها بيده إلى طريق مسدود في أسفل الشارع.

بدا متعجباً من سؤال مايا عن صباح. "انتبهي إلها، هاي شوي مخشخشة وبيجيها نوبات صرع. الكل بيعرفها هون. هيدي من عمر الخبز... ههههه".

ضحك بطريقة سمجة فيما كانت تودعه رافعة له يدها كأنها تقول له "لا عليك، سأجدها"، ثم خرجت مسرعة باتجاه الزقاق الذي أشار اليه.

لا بدّ أن مايا وجدت حقيبة الصور والأوراق في شقة ابراهيم، اليهودي الذي ترك بيروت وهاجر خلال الحرب. فكّرت صباح

وهي تشعل سيكارتها الثالثة. كانت قد حملت معها أغراضها الخاصة حين انتقلت للسكن في بيته. عملت في خدمته واستمعت إلى بكائه بعد موت زوجته. وحين انشغلت بأعباء الكيوسك الصغير الذي استأجرته، عهدت إلى صديقتها مريم الاهتمام بابراهيم وشقته وواظبت على زيارته. ثم فجأة هاجر إلى اسرائيل دون علمها. قال لها إنه بصدد زيارة ابنه في أميركا لمدة شهر ثم يعود. كذب على الجميع بمن فيهم هي التي وثق بها ووثقت به. ثم هاجر ما تبقّى من يهود بيروت الذين كانوا خلال بداية الحرب في لبنان بحماية ياسر عرفات الذي كان يفرّق بين إسرائيلي ويهودي، إلا أن اجتياح اسرائيل للبنان حتى بيروت، أجبر عرفات على ترك لبنان بحراً إلى تونس على متن باخرة يونانية، كذلك هاجر من تبقىّ من اليهود.

ترك ياسر عرفات بيروت مدمّرة منكسرة، لكن رغم ذلك، جملته الأخيرة على شاطئ المدينة كانت "فلتركع أيها المجد لبيروت"! هاجر معظم من تبقّى من اليهود في بيروت إلى إسرائيل وأوروبا وأميركا. منذ ذلك الوقت لم يركع المجد ولا مرة لبيروت، بل بيروت ركعت وأُهينت وأُذلّت ليس على يد الجيش الإسرائيلي فحسب بل أيضاً على يد المخابرات السورية والجيش السوري وعلى أيدي الكثير من الميليشيات اللبنانية.

بعد وقت، اضطرت صباح إلى التوقف عن التردّد إلى بيت ابراهيم. صار من الخطر أن تبقى في بيته في أسفل زقاق البلاط المطل على ساحة رياض الصلح. رغم انعدام الأمن في المنطقة سرعان ما احتلّت بيت ابراهيم والبيوت المجاورة عائلات هُجّرت من مناطق سيطرت

عليها ميليشيات مسيحية، أو هربت من مناطق أكثر عنفاً في الجنوب.
بعض من أفراد العائلات انتموا إلى الميليشيات وحملوا السلاح.
كذلك جاء الكثير من النبعة والكرنتينا وبرج حمود إلى مبنى الخندق الغميق. أولى العائلات الوافدة سكنت في بيت الطبيب الأرمني، ثم عائلة أخرى في الشقة المقابلة. تغيّر وجه الحي، وتغيرت وجوه السكّان وما عادت صباح تعرف أيا منهم. تأتي العائلات الجديدة محمّلة بأغراض وأثاث وقصص. تختلط قصصهم بقصص من رحلوا ولا تعود صباح مع الزمن تفرّق في ما بينها.

بقيت صباح طيلة سنوات الحرب في شقتها القديمة التي لا تبعد كثيراً عن ساحة الحروب المتكررة في وسط البلد. عاشت كما لو أنها في كوكب آخر، فشقّتها آمنة بفضل جدران مقبرة الباشورة التي شهدت على حروب وسط بيروت وبدت من بعيد مثل تلّة فاصلة بين المتقاتلين. كأنّ الموت وحده يفصل بين الأعداء، الموت وخيالاته التي بقيت ساهرة هناك. "حيطان بيوت الموت حمتنا من الموت" تقول صباح. السواتر الرملية على مدخل الشارع الضيق، والتي ارتفعت نحو السماء كجدران عالية منحت ساكني الشارع كثيراً من الأمان. قام العمال المصريون ثم السوريون والآسيويون بملء الأكياس ورفعها فوق بعضها البعض تحت أنظار مسلّحي الحي وأعقاب بنادقهم. أقيم ساتر ترابي هائل من الجهة الشرقية للحي. حركة الناس هناك أخذت اتجاهاً آخر وبدل أن يكون لحركتهم جهات أربع اقتصرت حياتهم على جهتين اثنتين فقط.

أوراق كثيرة بقيت في بيت ابراهيم حين غادرته صباح. صور

وأوراق شخصية وتذكرة قديمة ووثيقة سفر منتهية الصلاحية باسم أحمد كرابوز. نسيت كل ذلك، نسيت أيضاً ملفات وأوراق نورا وأغراض طفلها ودفاتر يومياتها.

لم تصل القذائف على مبنى الخندق الغميق مباشرة خلال الحرب وبقيت صباح وما تبقّى من السكان القلائل في الشارع الذي تحيطه الباشورة من جهة ويطل على وسط البلد. كانوا يسمعون أصوات الحرب قريبة منهم، فيما يرتجّ المبنى المؤلف من طوابق ثلاثة ويتهيّأ لهم أنه سيقع على رؤوسهم. في حديقة المبنى التي باتت امتداداً لشقة صباح، وقفت أشجار البوصفير والأكيدنيا والرمّان والتين تستمع هي الأخرى إلى أصوات العنف الآتية من أمكنة مجاورة. سكان الشقق تركوا المبنى وتوزعوا، بعضهم انتقل إلى القرى واستقر هناك، والبعض الآخر وجد شققاً في مناطق أخرى من بيروت. الجميع كان يبحث عن الأمن والابتعاد عن الموت، ومنهم من ترك لبنان إلى غير رجعة. المالكون حاولوا بيع ما تيسّر من الشقق قبل أن يهاجروا إلى أميركا. تغيرت أجواء الحي، بدا كأنه هرم دفعة واحدة. ارتفعت السواتر الترابية وفقدت بعض الشوارع وظيفتها، وحين تهطل الأمطار تتحول الشوارع السفلية المغلقة إلى بحيرات صغيرة يلهو فيها أطفال الحي مغطسين أقدامهم، فيما تبقى المياه منقطعة عن البيوت.

بداية الحرب، قامت صباح بإضافة غرفة نوم ومطبخ إلى غرفة الناطور الصغيرة. رسمت على أرض الحديقة المقاييس وبواسطة طبشورة بيضاء حددت مكان الباب والشباك والمجلى والباب المؤدي إلى الحديقة. قامت بهذا كله بمساعدة عامل سوداني كان

يأتيها بالطوب ويرفعه عالياً ثم يصعد درجات السلم ويصفّ الحجارة بعد أن يضع أولاً الإسمنت المجبول بالماء والرمل. بدا منظر جدارَي غرفة النوم والمطبخ من جهة الحديقة غريباً بعض الشيء مقارنة مع جدار المبنى القديم المتآكل. الا أن عوامل الطبيعة وسنوات الحرب جعلته أكثر إلفة وقريباً في الشكل من جدران مباني الحي المتهاوية. من ذلك الشارع الضيّق أدارت صباح حياتها، على ضوء الشموع كانت تقوم بجردة حساب الكيوسك الصغير الذي استأجرته منذ عام ١٩٧٩. تتألم من سماع صوت الموت الدائم، من أخبار كل يوم عن اختفاء شبان من الحي وأحياء مجاورة. يخرجون ولا يعودون ولا يعرف أحد عن مصيرهم شيئاً، لكن ذلك الألم نفسه جعلها أقوى، ابتدأ بخطف زوجها الشاب بداية عام ١٩٧٦. يومان فقط بعد ليلة رأس السنة. أصرّ على الانتقال إلى المنطقة الشرقية من بيروت المقسمة ليستعيد عمله في المطعم الذي انتقل إلى هناك. لم يصل اليه. الفقدان جعل رغبة الحياة لدى صباح تنبض رغم كل شيء. كأنه أصبح تعويذة للاستمرار. فقدت حبيبها أحمد الذي تخلّى عنها وهاجر وحده، وها هي تفقد أحمد الثاني الذي كان زوجها، ولا يجمع بين الأحمدين في قلبها سوى الإسم. تردم حزنها داخل رحمها كطفل ميت. تبتلعه كما يبتلع البحر جثث المفقودين. "إيه هاي الحياة"، تطلق صباح حسرتها أمام نورا أبو صوّان، الصحافية السورية التي وصلت إلى بيروت وأقامت فيها، أو أمام السيدات اللواتي عملت في بيوتهن، ثم تعقّب مردّدةً "إيه هاي حياتي... فراق وفقدان."

(٨)

ماردين بيروت

فلشت مايا الصور على الطاولة وبدأت مع صباح بتفحّص كل صورة.

"إيه هاي صور إلي... هون وحدي أمام بيتنا بماردين، ببلدتي التركية اللي ما زرتها من سنين. هاي مع أحمد زوجي اللي دفع مصاري ليتخلّص من التجنيد الإجباري بتركيا بس حزين انخطف ببيروت وانقطعت اخبارو...".

تتوقف صباح بين لحظة وأخرى عن حكايتها، تتردد في المتابعة. تصمت لحظات فيما تفتش مايا عن صورة أخرى. اختفى زوجها أحمد كرابوز في بداية الحرب بعد ٧ سنين من زواجهما على يد الشيخ ومجيئها عام ١٩٦٩ معه من ماردين إلى بيروت. أرادت كل مرة أن تجمع الصور في ألبوم عائلي. في الحقيقة لم تشترِ ألبوماً وكانت تؤجل الشراء من يوم إلى آخر. حين خطف زوجها قالت لم يعد من حاجة للألبوم. فقدت صور العائلة يوم خرجت من بيت الخواجه إبراهيم. حملت معها حين عادت إلى بيتها صورتين لأحمد

المخطوف، وتركت كل شيء يخصها ويخص نورا في الحقيبة على التتخيتة حيث وجدتها مايا. ثم مرّت سنة، تلتها سنة أخرى وأخرى، وصارت صباح تلتقي بنساء خطف رجالهن أيضاً. ثم بدأت تصطحب صورة الزوج الغائب في تجمعات أهالي المخطوفين، تعلقها على صدرها وسط هتافات مكتومة وبكاء، تقف طويلاً هناك ثم تعود إلى البيت. تشعر بالبرد حين تجد نفسها وسط فلاشات الكاميرات وهي تنظر إلى بعض المسؤولات عن اللقاء يحدّقن في العدسات ويتكلّمن. لا تسمع ما يقلن. تقف وتنظر حولها كأنها تفتش عن أحد ما. تشعر بالغربة في تلك اللحظات. "سأبقى غريبة وسيبقى مخطوفي أفتقده أنا وحدي"، تقول لنفسها وهي عائدة إلى البيت بعد أن تضع الصورة التي نزعتها عن صدرها داخل حقيبتها اليدوية.

صورة أخرى للزوج المفقود علقتها صباح على جدار غرفة النوم وجعلت تكلّمها ليلاً وهي في فراشها لكسر رهبة الوحدة. اعتادت عليه خلال السنوات السبع التي عاشاها معا. لم تغرم به لكنها ألفته وصادقته. صار حين يعود من العمل في المطعم كل ليلة يُخرج بَدَل عمله من جيبه ويناولها إيّاه. يقول لها إنه يريد أن يشتري بيتاً لها وسيكون أفضل من البيت الذي حلمت به أثناء هربها مع حبيبها أحمد. يردّد أنه لن يستطيع أن يجعلها أمّاً بسبب مرض أصابه وهو صبيّ وجعله عقيماً، إلّا أنه سيشتري لها بيتاً، وهي صارت تخبئ المال في قلب المخدة بين كرات القطن البيضاء قائلة إن المصارف لا أمان لها وان بعد افلاس بنك انترا في بيروت وبعد ما جرى لعمّتها فوزية التي خسرت ليراتها هناك لن تثق بمصرف. راحت تعتمد في

معيشتهما على المبلغ الصغير الذي تجنيه من عملها ومما يحصل عليه الزوج كناطور للمبنى. عملها داخل بيوت المبنى جعل سكّانه يغضّون الطرف عن غياب أحمد مساء كل يوم وخروجه للعمل في المطعم يغسل الصحون وينظف قبل الإقفال. وحين أتت الحرب أقفل المطعم وانتقل صاحبه إلى المنطقة الشرقية من بيروت وافتتح مطعماً آخر هناك.

بعد خطف الزوج صارت صباح تُخرج كل أسبوع رزمة بعد رزمة من المال المدفون داخل المخدة، كي تدفع "لأولاد الحلال". يطرقون بابها ويدخلون ويعِدونها بإرجاع زوجها سالماً. لقد رأوه وكلّموه وهو ما زال حيّاً، ثم إنه بعث برسالة شفهية اليها يطلب منها أن تعطي أولاد الحلال ما يطلبون. يذهبون ويأتون بأخبار جديدة وبطلبات جديدة يريدها الخاطفون. لا تعلم كيف نفدت الليرات التي خبأتها لشراء بيت لهما. لم تفقد الأمل رغم نفاد المال لديها. لم تتوقف عن طلب العمل في البيوت رغم عملها اليومي في الكيوسك. لكن تغيّر أهل الحي، والسكان الجدد لا يطلبون أحداً للعمل في منازلهم. بَقيت تنتظر أولاد الحلال الذين ما عادوا يزورونها حين قالت لهم إن لا مال كافياً لديها. باتت تشعر أحياناً وهي جالسة مساءً في الفراش أن خيال أحمد يتحرك حول صورته. فتبدأ بالشكوى، لكنه يظل صامتاً. تعاتبه باكية، ثم حين تتعب من البكاء تدير رأسها إلى الجهة الأخرى وتنام كأنها تخاصمه. في اليوم الأول لخطفه قالوا لها يومين ويعود. نظفت البيت وغيّرت ملاءات السرير ثم انتظرت، ثم انتظرت ثانية. مضى وقت قبل أن يخطر على بالها سؤال رهيب

لم تستطع احتماله: ماذا لو لم يعد؟

توقفت صباح عن الكلام فيما بقيت مايا تنظر إلى الصور. خيّم الصمت حولهما ومرّ الوقت بطيئاً وثقيلاً في تلك اللحظات.

"هيدا كان من وقت طويل" قالت صباح كما لو أنها تعتذر عن صمتها، فيما تتفرج على صورتها بالأبيض والأسود مع أبيها وأمها وعمتها وهم يقفون أمام البيت في ماردين. في الصورة ارتدت فستاناً طويلاً عليه ورود كبيرة عند الصدر والخصر. جاءت به العمة من بيروت كي تلبسه ابنة الرابعة عشرة نهار عرسها. جاءتها أيضاً بسكربينة بيضاء إلّا أن مقاسها كان كبيراً واضطرّت صباح إلى حشو داخلها بالأوراق قبل انتعالها. صارت العمة تملّس يدها على صدر العروس وهي تقول لها مزهوّة إنها اشترت الفستان من محلات اليهودي مهدّب في سوق أياس، وأنها (أي صباح) لن تجد أجمل منه في كل بيروت. أُخذت الصورة يوم سفرها من تركيا إلى لبنان. استقلوا أولا الباص، ثم البولمان الكبير الذي لم تركبه سابقاً. أمضوا على الطريق أكثر من يومين قبل الوصول إلى بيروت. زوّجها أبوها بسرعة كي يضع حدّاً لكلام الناس عنها وعن شرف العائلة. كلام استمر أشهراً. منذ زمن لا تستطيع تحديده لم تر صورها تلك التي كانت كافية لتعيد إليها ماضياً حسبت أنه دُفن ولن يعود ثانية. لكنه عاد...

تذكر ذلك... تأتي الذاكرة واهنة غير مكتملة.

كان لون فستانها زهرياً، تقول صباح لمي، ثم تترطّب عيناها وهي تضحك.

لم تكن صباح قد أتمّت الرابعة عشرة حين أتت عمتها فوزية ذات نهاية ربيع من بيروت إلى ماردين. أبوها هو الذي أرسل وراء عمتها كي تأتي مصطحبة ابنها أحمد كي تطلب يد ابنة أخيها له. في بداية السنة هربت صباح مع شقيق زوجة خالها. كانا قد تبادلا القبل خلف المقابر القريبة من البيت ثم تعانقا وهما ممدّدان على العشب اليابس الذي علق على شعرها وملابسها. أحبته وصارت تراه في المنام. وعدها بالسفر معه إلى ألمانيا حيث شقيقته. صارت تحلم أيضا بالسفر وبتلك البلاد الجديدة. قال "الحياة أجمل هناك ونستطيع أن نعمل أي شيء. ركبت ذات نهار مبلّل في نهاية الشتاء وراءه على الموتوسيكل وانطلقا على الطرقات الضيقة وكانا سعيدين.

لم يعرفا أوّلاً إلى أين يذهبان. أراد أن يصطحبها إلى بيت أهله في ديار بكر ريثما تتم معاملات السفر، إلا أنهم رفضوا استقبالهما خوفاً من عائلة صباح ومن مشاكل لا بد ستنتج بين أمها وزوجة خالها. طلب أبوها من خاطفها وحبيبها إرجاعها إلى البيت تحت التهديد بسجنه لأن صباح ما زلت قاصراً. قانون تركيا لا يسمح بتزويج قاصر. أبوها أيضاً خاف من العقاب إذا وافق على زواجها. يعاقب الأب كذلك الزوج على إجراء عقد زواج فتاة قاصر! لكن رغم هذا الخوف ما زالت الزيجات تتم على يد الشيخ وبالسر إلى أن تبلغ الفتاة السن القانونية يتم حينها تسجيل الزواج رسمياً بتاريخ كاذب يعود إلى ما بعد بلوغ العروس السن المطلوبة. خوف أبيها لم يكن سببه انه لا يحبّذ الزواج من قاصر، فهو تزوج أمها وهي دون الثالثة عشرة، وهذا غالباً ما يحدث في العائلات. لم يسجل أبوها زواجه

من أمها في الدوائر المدنية إلّا بعد مرور ٥ سنوات على زواجهما على يد الشيخ.

"عدم الزواج يعني لا سفر لي إلى ألمانيا"، فكرت صباح، "يعني أيضا أنني لن أحصل على فيزا، إذ كيف أسافر مع حبيبي أحمد وبأي صفة؟". تتحسّر صباح لكن سرعان ما تنسى. حينها راحت تعزّي نفسها وتقول إنها قضت عشرين يوماً تجوب البلدات والمدن التركية التي لم تزرها في حياتها. وكي يزورا اسطنبول أمضيا في الباص الكبير أكثر من نهار وليل قبل أن يصلا. أنزل أحمد الدرّاجة من الباب الخلفي للباص بمساعدة أحد الركاب ولم يرد على شتائم سائقها الذي لم يكتف بالمبلغ الذي دفعه له. نزلا بضيافة صديقٍ يسكن في حي أيوب تعرف إليه حبيبها أحمد عندما كانا معاً في الخدمة العسكرية. لم ترتح صباح له ولا لأمه التي كانت تعاملها كأنها بائعة هوى. كانت تتجنّب عيني الشاب وهي تمرّ من أمامه كي تدخل إلى الحمام القريب من المطبخ. بقيا أربعة أيام في المدينة التي لا تنام أبداً، لم تنم صباح أيضاً ولا حتى لدقيقةً واحدةً. جلست صاحية تعدّ السيّارات العابرة التي تنعكس أضواؤها على مرآة الخزانة في الغرفة، فيما كانت تستمع إلى صوت نوم أحمد العميق. تساءلت كيف يستطيع النوم في مدينة كاسطنبول. أرادت الخروج بدل النوم، أرادت السير في شوارعها المليئة بالأنوار. لم تعد تريد العودة إلى البلدة، كانت خائفة ومتوتّرة.

حين أخبرها أحمد عن استحالة الحصول على فيزا لها، راحت تبكي بحرقة كأنها خسرت حياة وحلماً. تذكر أنه لم يحاول مواساتها بل قال لها إنها حمقاء وإنها إن سافرت لن ترى الجنة هناك بل حياة

صعبة وشاقة. في الليل جلست تنظر إلى السيارات العابرة، صارت تهزّه وهو نائم قربها، وتقول له حسناً الجنة هنا وليس في ألمانيا! اسطنبول جميلة، لنبقَ هنا بدل السفر! لنفتش عن غرفة، غرفة في مبنى في شارع الاستقلال! لا بد أننا سنجد عملاً. صارت تتخيّل حياة لطيفة وبسيطة معه. لكنّه لم يسمعها، لم يصغ لما تقول، وغيّر كل خططهما بعد أن اتصل بماردين لأكثر من مرة. في الأيام القليلة التي قضتها في اسطنبول أثّثت صباح في خيالها بيتاً لهما، فيه سرير وكنبة وخزانة وبرّاد وغاز وبساط أحمر. حتى أنها تخيّلت النباتات التي ستزرعها أمام مدخل الغرفة الصغيرة، ورأت أزهارها تنمو وتتفتّح. لكن أحمد قرّر فجأة إرجاعها لبيت الأهل. لم تفهم سبب قراره المجنون. بقي صامتاً ولم يخبرها عن مضمون المكالمة الأخيرة مع ماردين. في الصباح كانت حزينة ولا رغبة لها في أكل سندويش الكفتة البارد الذي اشتراه على عجل. فكرت أنه بائت كأحلامهما. جلست وراءه على الدرّاجة النارية وتمسّكت به، حينها شعرت أنه لم يعد يهتم فيما إذا كانت تحيط خصره من الخلف بذراعيها الاثنتين، أو تُلقي برأسها على كتفه. لم يستدر ناحيتها ولم يُمل برأسه إلى وجهها كما كان يفعل. صار يُسرع وهي ترجوه كي يبطئ خوفاً من الوقوع، لكنه لم يرد، بل زاد من سرعته. بدا كأنه غاضب منها.

عادت إلى البيت بعد عشرين يوماً، ومنذ ذلك الوقت بدأت تسمع الكلّ يتحدث عنها كأنها تهمة، يقولون إنها "مدقورة" وأنّ لا أحد سيقبل أن يأخذها زوجة له. لم تفهم ما معنى "مدقورة" وصارت تتخيّل أنها مصابة بمرض، ربما مرض مُعدٍ ينتقل عبر الاحتكاك. أو

ربما إن تكلمت أو ضحكت أو حتى ابتسمت. تخيلت أن لا أحد باستطاعته أن يلمسها. أمها رفضت أن تسلّم عليها، كذلك أبوها. "ادخلي جوّا صباح...!" قالها بخشونة دون أن ينظر إليها بل نظر في عيني أمها كأنّه يبحث عن الابنة في وجه الأم. لم تسلم تلك الليلة من ضرب مبرّح من أبيها. ارتفع صوتها في فضاء الحي وانتشر فوق أشجار السرو المحيطة بالمقابر. لا بدّ أن الجميع سمع صوت بكائها وصراخها. لا بدّ أن الموت أيضاً قد سمع وأتى، إذ في الليلة نفسها ماتت الجدة التي أعطت اسمها للحفيدة. قالوا لم تحتمل عودة حفيدتها... "يا ليتها راحت بدل جدّتها". قالوا أيضاً إن الجدة لم تحتمل تلوّث اسمها فرحلت.

تعلم صباح أنها خرجت مع أحمد دون إرادة أحد. تعلم أيضاً أن الفترة التي قضتها خارج البيت كانت من أجمل أيام حياتها، وأنّها لو قُدِّر لها أن تكرّرها فستفعل دون تردّد، حتى ولو ماتت من ضرب أبيها. هي عادت، لكن لم تعد كما كانت. كانت صباح وعادت صباح أخرى. هكذا صاروا ينظرون اليها. إذاً أنا "مدقورة"، تفكر صباح. ربما لهذا السبب أرسل أبوها إلى عمتها التي تقيم في بيروت أن تأتي وتطلب يدها لابنها الذي يكبرها بـ٥ سنوات. هو لم يبلغ العشرين بعد. اسمه أحمد أيضاً. فكرت صباح أن هذا سيكون أسهل لها، أن يحمل نفس اسم حبيبها الذي أعادها إلى بيت أهلها واختفى. سمعت زوجة خالها تقول إنهم تبرأوا منه وإنه سافر إلى ألمانيا. سافر إلى حيث هاجرت شقيقته ولم يأخذها معه كما وعدها. ضارت تنادي، دون إرادة منها، أيّ شاب بـ "أحمد"، حتى شقيقها

محي الدين، الذي ما إن سمع باسم أحمد يخرج من بين شفتيها حتى هوى بكفّه على فمها، أوجعها وأدمى أسنانها، ثم راح يركلها بقدمه وهو ينتعل حذاء رياضيّاً للعب لكرة القدم، ويوزع ركلاته على بطنها وصدرها وهي تحمي رأسها بيديها وتبكي على الأرض مكوّمة كالطابة التي يعشق ركلها. لم يقل أبوهما شيئاً، بل نظر إلى ابنه مبتسماً يكاد يهنئه على فعلته. بنظر أبيها، صار أخوها، الأصغر منها، رجلاً لحظة ركلها.

بكت صباح حين رأت صورها التي أتت بها مايا، والأخيرة فكرت أنّ الشوق، رغم السنوات التي مرّت، ما زال يُبكي صباح ويوجعها. لكن صباح بكت لأسباب لن تفهمها مايا ولن تحزرها. بكت ماردين وطفولتها وأمها المريضة. بكت حبها الضائع ووحدتها التي تسير بها نحو حافة الجنون. بكت اختفاء رجل لم تحبه لكنها ألفَت العيش معه. كل هذا لم تشعر به مايا، وكيف ستشعر؟

أرادت مايا أن تسألها عن الرسائل، عن الطفل الذي تحمله في صورة بين الصور، وعن الزوج المخطوف. أرادت أن تسألها عن نورا، من هي، عن يومياتها، وعن كمال ورسائله التي دخلت قلب مايا كما لو أنها كانت موجهة لها، لكنها لم تفعل، بل تركت صباح تسترسل في قصتها.

"لكن كيف بعرف إن كان شكل أحمد ابن عمتي فوزية بيعجبني؟". سألت صباح أباها بعد أن اقتنعت أنّ لا مفرّ من الزواج، وبعد أن بدأت تحلم ببيروت بديلاً عن ألمانيا وعن اسطنبول. هل ابن أخته طويل القامة، عريض، حلو،..." إذ إنها لم تلتقه منذ أن

كانت طفلة. لم يجبها الأب، بل قال شيئاً كأنّه يكلّم نفسه جعلها تنفر أكثر منه: "اللي متلها ما بتشارط عالزواج". "هاي مسألة عائلية"، استلمت أمها الحديث عن أبيها وهي تنظر إلى صباح بعينين مشحونتين بالقسوة، وأضافت بصوت متهكّم لا يخلو من لوْم "بعد اللّي صار معك كان واجب ابن عمك يسترك ويتزوجك بس طلع بلا أصل واختفى هو كمان". بدت وكأنها توجّه كلامها هذا لصباح، لكنها في الحقيقة أرادت أن يسمعه الأب قبل الإبنة، ذلك أنّ "البلا أصل" هو ابن أخ الزوج وهذه فرصة ذهبية للمرأة لاستباق أيّ تهمة كونها أم الفتاة "المدقورة"، فراحت لذلك تعاتب وتنتقم من عائلة الزوج كلها. حضرت العمّة مع ابنها الصامت الخجول والأعرج بسبب شلل قديم أصاب رجله اليسرى. جاءت تطلب صباح للزواج وتستر على عرضها لأن عرض البنت من عرض العمّة كما قالت الأم لحظة وصول شقيقة الزوج من بيروت. "كم أعراضنا متصلة ببعضها البعض نحن نساء العائلة!" فكرت صباح وهي تلقي بجسدها على الفراش وتنام.

أراد الأب أن يزوّجها ليبعد القيل والقال، لكن في نفس الوقت أراد أن يقبض ثمنها الذي حدّده بـ ٢٠٠٠ ليرة لبنانية، مبلغ كافٍ في ذلك الوقت لشراء سيارة مستعملة له، وكان على عمتها أن تدفعه كمقدّم قبل أن يكتب الشيخ كتاب صباح على ابنها. لكن العمّة قالت لأخيها بالفم الملآن وبوقاحة لا توصف وهي تفتح حقيبة يدها وتخرج منها لفة من الأوراق النقدية: "معي ٥٠٠ ليرة بس، يا بتاخذهم وبتصلّي عالنبي، يا باخذ إبني وبرجع عبيروت، شكور ربك

إني عم آخذ بنتك من وجهك". رمت رزمة الأوراق على الطاولة الصغيرة بينهما وتابعت: "ما حدا غيري بيقبل ياخذها، بينما إبني ألف واحدة بتتمنى عليه. إنت اللي كان لازم تدفع مش أنا!". تدخلت أم صباح هنا صارخةً موجهة حديثها إلى فوزية: "ما تعملي حالك الست المصون، البنت طالعتلك. إنتِ رحتِ خطيفة من ٢٢ سنة. شو فكرك نسينا؟ خذوا البنات من صدور العمّات، وما تنسي حالة إبنك، أهُو بالكاد فيه يمشي!".

سمعت صباح كل هذا فيما كانت تقف قرب باب الغرفة تنظر إلى الأوراق النقدية المتناثرة على الطاولة.

يا لوقاحة العمّة! فكّرت صباح... كيف تحمّلها أبي ولم يطردها من البيت؟ لكنه يريد زواجي من ابنها أن يتم وأن أسافر مع عمتي التي ستسترني إلى بيروت. كأن بيروت هي ستر العائلة ومكب نفايات شرفها المهدور!

خرجت من البيت فرأت ابن عمتها جالساً على مقعد خشبي أمام مدخله، رأسه مائل فوق كتفه كأنه نائم، بينما عيناه ترمشان تحت أشعة الشمس. بدا لها كمغفّل البلدة الذي كانت تجول البلدة معه برفقة فتيات من سنها. شعرت بحنان مفاجئ تجاهه، وفكرت انهما، هو وهي، في مكان ما متشابهان. عادت إلى داخل الغرفة فيما بقيت أصوات شجار العائلة مرتفعة في الفضاء، وانكمشت على نفسها في الفراش الممدّد على الأرض. وضعت يديها الإثنتين فوق أذنيها. لا تريد أن تسمع أكثر، لا تريد أن ترى، فقد سمعت ورأت الكثير.

في صباح اليوم التالي رأت صباح من نافذة الغرفة الصغيرة، عمتها

فوزية تصعد الدرج المؤدي إلى المقبرة التي لا تبعد أكثر من ٢٠٠ متر عن البيت. هناك دُفنت الجدة. هذه المرة الأولى التي تأتي فوزية بعد موت أمها. جاءت تطلب صباح لابنها وتزور قبر أمها. الجدة ماتت منذ أشهر ولم تأت ابنتها حينها. قالوا إنها لم تأت كي لا تبتلي بابنة شقيقها "المدقورة" والتي لن يتزوجها أحد بعد عودتها من رحلة لأقل من ثلاثة أسابيع على دراجة نارية مع حبيبها. وقفت العمّة أمام ضريح الجدة، بكت ولطمت صدرها وصارت تندب أمها. لكن الجدة لم يبكها أحد من أفراد العائلة يوم موتها، وشعر الجميع بانزعاج من بكاء العمّة الزائرة لأنها ذكّرتهم أنهم لم يذرفوا دمعة واحدة أثناء المأتم، وهم لا يستطيعون البكاء الآن ولا مشاركة العمّة حدادها المتأخر. لم يكن موت الجدة كافياً للعمّة كي تأتي يوم الدفن. لم يكن موت أمها كافياً كي تدفع أجرة سفر من بيروت إلى ماردين. انتظرت أن تأتي لأكثر من سبب وأتت ذلك اليوم بعد أن قبلت بفكرة تزويج صباح من ابنها. هكذا تبكي أمها وتزوّج ابنها في الوقت عينه.

حين هربت صباح مع أحمد وقفت أمها أمام باب البيت وقالت لابنها محي الدين وهي تنظر في قلب عينيه: "روح جبلي إختك وما تلمس شعرة منها. هاي بنتي وأنا بصطفل فيها. إذا أذيتها بخنقك بإيديّ التنتين". بدت الأم قويّة بصوتها وعينيها. طالما أخاف غضبها صباح وأخاف محي الدين.

أما الأب فقد وضع رأسه بين كفّيه وبكى كطفل.

وراء أحمد على الموتوسيكل كانت صباح تشعر أنها تملك العالم بأسره. يضغط بيده على البنزين فتجعر الآلة وتنطلق. يطير شعرها

الكستنائي الطويل خلفها ولا تعود تهتم بأحد من عائلتها ولا تفكر بأخيها ولا بأبيها وتقول إن هذه اللحظة تكفي كي تستغني عن العالم بأكمله. لم تكن تدري حينها من تحب أكثر: أحمد أم تلك اللحظة التي تطير فيها.

في اسطنبول شاهدت صباح الكثير من العشاق يتنزهون قريباً من جسر غالاتا. كانت تحب أن تنظر إلى العشّاق وهم في حالة العناق، تجد منظرهم مريحاً للنفس. نظرت إليهم وهي تسير قرب أحمد ووجدت نفسها في تلك اللحظة بالذات تأخذ يده وترفعها إلى وجهها. أمسكت بها وهي تطلق تنهيدة خفيفة. فنظر إليها وبدا مستهجناً مما تفعل. كانت تكفي نظرته تلك كي تتوتّر وتتحوّل عواطفها. وبدل تقبيل يده وجدت نفسها تغرز أسنانها فيها وتطبق عليها بكل قوّتها. صار أحمد يصرخ ثم دفعها إلى الوراء وكادت تقع بينما أمسك هو بيده المتألمة وراح يفركها فيما بدأ يشتمها بصوت متقطع. لا تعلم لماذا عضّته. ربما كانت غاضبة. قال إنها مجنونة وإنها لا تشبه النساء بشيء.

(٩)

ذاكرة صباح

كانت صباح مسترسلة في سرد نتف من حياتها حين ناولتها مايا صورة بالأبيض والأسود. أخذت صباح الصورة، وقفت ومشت قليلاً مبتعدة عن الكنبة نحو النافذة الضيّقة حيث نور الشمس وحيث بإمكانها رؤية الصورة بوضوح أكثر. صورة امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها.

ياه... هيدي صورتي من أكثر من ١٦ سنة!

صورة تظهر فيها بفستان رمادي غامق طويل الأكمام واسع، وهي تحمل طفلاً بدا وجهه أكبر من عمره.

يا ربّي هيدي أنا، والطفل هو إبن نورا. صوّرتنا ست إسمها آديل الناعس.

هذا الطفل الذي اعتقدت صباح أن حكايته انتهت مثلما انتهت الحرب. لكن الحكاية عادت إليها مع دخول المرأة النحيلة بيتها.

كانت صباح تتمتم بصوت مرتجف فيَما اقتربت مايا منها،

لتسألها من هو هذا الطفل، كأن مايا في تلك اللحظة أخذتها إلى زمن أرادت نسيانه.

طفل صغير؟ يا ربي شو بدّي بالماضي يرجع ليّ متل الوحش...

قالت بصوت مخنوق كأنها تبكي.

صمتت قليلا محاولة استرجاع هدوئها ثم قالت:

"راح هوي وأمو بانفجار... انقتلوا... ياه هيدا كان من وقت طويل. انا نسيت. نسيت كل شي وما بقدر أتذكّر شي".

ساد صمت بينهما، وغرقت الإثنتان في أفكار من الصعب تبادلها. يبدو أنني فتحت باب ذاكرة صباح على مصراعيه، فكّرت مايا. الكلّ يسعى للنسيان هنا، أو يسعى لانتقاء ما يريد من الذاكرة، ولم تكن صباح وحدها في ذلك. يصدف أحياناً أننا نبدأ بالتخيّل أننا ما عدنا نملك سوى النسيان، لكنه وهم، إذ تستفيق الذاكرة كطائر الفينيق، تبثّ الحياة في شرايين الروح وتردّنا إلى الواقع.

تفكّر مايا بصمتٍ، بينما تنتبه صباح أنها تحكي قصة قرّرت ألّا تعود إليها وأن تنساها، أن تمحوها من شريط ذاكرتها. لم يكن صدفة انتقاء ذاكرة الهروب من البيت وهي مراهقة بل طفلة، انتقاء ذاكرة ماردين واسطنبول والزواج والسفر إلى بيروت. لا بأس من الذاكرة المنتقاة، إلا أن من الصعب العودة إلى ذاكرةٍ تاريخها العنيف أقرب إلى الزمن الحاضر.

تقف فجأة وتسأل مايا بصوت قاطع لا يخلو من التوتّر:

– إنت، إنتِ شو بتعملي تماماً؟ ما فهمت عليكِ؟ ليه إنتِ هون؟ قلت إنك بتشتغلي؟ بـ... شو؟ وين...؟

– أعمل على تصوير فيلم، قلتلك... ضمن مشروع إعادة إعمار بيروت.

– إعادة إعمار، إعادة إعمار. كل النهار الراديو والتلفزيون بيحكي هيك كمان. يمكن بدّن يعمّروا حتى الناس ينسوا. قالوا رح يردموا حجارة المباني المهدّمة بالبحر، بس وين بيروحوا بريحة الدم وريحة الزنخة؟

تسألها صباح وتتابع:

– الدم اللي شفتو تحت، وهون وهون. شفتو كل يوم عم يسيل، دم من كل الجنسيّات والطوائف. دم من كل الأعمار. ودم أحمد كمان رح ينردم.

غصّت صباح وتابعت وهي تشير بيدها إلى صدرها.

– يمكن الدم نشف صحيح بس شو بعمل بالبقع السودا الباقية هون جوا بقلبي؟ ليه انخطف أحمد؟ ليه مات اللي مات؟ ليه ماتت نورا؟ شوفي اتطلّعي!

تتابع صباح وتشير بيدها إلى النافذة المطلّة على وسط بيروت:

– شوفي كيف بيروت عم تتعمّر من بعد ما اتدمّرت! اللي دمّروها بقيوا هونيك، ما راحوا. فاتوا عالبرلمان، صاروا بالحكومة. ما في شي خِلِص...!

تصمت صباح كأنّ غضباً كبيراً قد خرج منها وغاب، وهي تريد أن تصمت الآن لأنها لا تفهم كيف خرجت قصتها منها، ولأنها لا تدري ماذا تفعل بذلك الفراغ الذي خلّفه خروج الغضب من داخلها. تُبقي مايا على صمتها أيضاً. ترتفع أصوات الأولاد الآتية من الزقاق

المؤدي إلى المبنى. يتصايحون ويختلط صياحهم بأصوات ارتطام طابة على الأرض وعلى جدران مداخل المباني القديمة. تجمع مايا الصور المبعثرة على الطاولة وتطلب من صباح كأس ماء.

مشت صباح ودخلت المطبخ. انتشرت رائحة القهوة مع الهال وارتفعت في الجو مختلطة بهواء غرفة الجلوس الصغيرة.

عاد صوت صباح ثانية لتتابع قصتها وهي تضع أمام مايا صينية عليها ركوة قهوة ساخنة وفنجانان وقطعتا حلوى وكوب ماء.

منذ وصولها عام ١٩٦٩ إلى بيروت وصباح ترى التغيّرات التي طرأت على الحي. بدءا بالمبنى الذي تقطنه وسكانه وصولاً إلى المباني المحيطة.

الطبيب الأرمني الذي يقطن الطابق الأول كان أول الراحلين عن المبنى. ترك عام ١٩٧٥ مع زوجته التي ولدت في حلب من عائلة أرمنية والتي لم تألف العيش في بيروت. هكذا كانت تخبر جاراتها وتسمع صباح أصداء حديثها أثناء العمل في بيتها. هو كان طبيب صحة مشهوراً، ولم يكن يأخذ منها ليرة واحدة حين يعالجها. كان يهتم بها ويعطيها أدوية دون مقابل. أصرّت مرةً أن تقصد زوجته وتخدمها ليوم كامل. نظفت لها السجاد والثريات وغسلت أغطية الأسرّة التي يستعملونها في فصل الشتاء. قالت هذا لقاء لطف الطبيب وكرمه. هاجرا إلى كاليفورنيا حيث أهل الزوجة. اشترى أهلها هناك في الوادي غير البعيد عن لوس أنجلس حقوَل كروم شاسعة وصاروا يصنعون النبيذ الأحمر والأبيض ويصدّرونه إلى ولايات أميركية أخرى.

في البدء عملت صباح مع عمّتها في خياطة الخرز الملوّن على

الأقمشة المعدة للعباءات وفساتين السهرة والأعراس. تعرفت فوزية إلى أصحاب محلات مهذّب في سوق إياس. وصار البائع اليهودي يسلمها البضاعة: خرز ولفافات قماش رفيعة وخيطان، وتقوم العمّة بتشغيل الفتيات الكرديات في الحي، فيوشين بالخرز أقمشة فساتين السهرات، ثم تعيدها جاهزة إلى صاحب المحل قبل موعد التسليم بأيام كي تأتي بغيرها. لكن عائلة مهذّب رحلت كما رحلت عائلات يهودية قبلها، وبقيت الأقمشة الموشاة في حوزة فوزية، لم تسلّمها للتاجر، ولم تدفع للعاملات أجورهن كما لم تستطع بيعها.

بقيت في خزانتها سنوات قبل أن تتخلّص منها بنقود قليلة قبضتها من امرأة مسنّة تخيط عباءات للخليجيات.

منذ أن بدأت الجرافات تعمل فيه لإعادة إعماره، لم تطأ قدما صباح وسط البلد، "ما إلنا شي هونيك تحت" تقول لجاراتها اللواتي بَدَون محتارات بين النزول أو التفرّج من على الشرفات العتيقة التي تبدو للرائي كما لو أنها ستنفصل عن جدران الشقق الخارجية لتسقط على أرض الحديقة. "شو إلنا هونيك"، تسأل صباح وتضيف: "جسمي بيصير يحكّني بس فكّر بالنزلة. ما بدّي!"

لم تشأ صباح التحدث طويلاً عن الطفل ولا عن أمه نورا أبو صوّان. لم تردّ على أسئلة عديدة لمايا حول هذه الصورة كأنها تريد أن تنسى. توقفت مايا عن طرح الأسئلة وقالت لها إنها ستعود قريباً لاستكمال الحديث. عليها الخروج الآن لاصطحاب ابنها من الحضانة. كذلك لقراءة يوميات نورا التي تصفحتها بشكل سريع. فضول كبير تولّد لديها حول هوية تلك المرأة خاصة بعد قراءة رسائل كمال فِرات الأخيرة لها.

(١٠)

يوميّات نورا

حلمتُ أن أكون كاتبة منذ صغري وكنت أرى سقف الكتابة مقالاً في صحيفة. كانت الكلمة التي أبحث عنها دائماً تحت اللسان، قريبة من القلب لكنها لا تجد موطئاً لها. لا تستطيع أن تلبس جسداً له صوت ورنّة ووقع وتأثير. وكنت أعتقد أنني مصابة بأمر ما، مرض، أو قلة حيلة، إصابة تضعني بمصاف أقلّ من مصاف الذين في مثل سني.

أذكر اللواتي كنّ في صفي. كانت ضحكاتهن ترنّ خلف جدران الصفوف وفي الملعب. كنت أمشي معهن ننزل الادراج نحو الملعب الكبير، أضحك معهن لكن سرعان ما كنت أضجر وأعود إلى وحدتي بعيدا عنهن. كنت أقلق من أمري هذا. ثم صرت أسمع حكايات زواجهن وإنجابهن وملازمتهنّ البيوت. مضى وقت قبل أن أعرف ما بي، وأنّ ما بي أمر جميل وعليّ الإعتناء به كتميّز وليس كمرض.

في سوريا أحرقت كل الدفاتر السميكة التي ملأتها حين قررت

المجيء إلى لبنان والإقامة هنا. لم أفهم حينها السبب الحقيقي لرمي كل ما كتبت في الموقد ثم الوقوف قريباً منه أتفرج على النار تأكل الأوراق وتأكل قلبي. لماذا حرقت كل ما كتبت؟

هل كنت أعاقب نفسي على موت أختي أم كنت أرغب بالتطهّر من الذنب؟ أو ربما قمت بإحراق ما كتبت لأبدأ حياة جديدة في بيروت، وكي لا أموت في بيت جدتي. لم تهرب أختي هناء، تركت رسالة كي تحكي قصة موتها.

أوّل ما قمت به حين وصلت إلى بيروت أنني كتبت قصة أختي هناء. لم أعرف حينها أن تلك الصفحات سترسم حياتي كلها. كتبت القصة، وأثناء الكتابة أمور كثيرة أزيحت من أمام عينيّ. إذ حكاية اختي غيّرتني. لم تمت أختي فحسب بل ماتت نورا القديمة أيضاً. الآن أفكر أنّ حرق ما كتبت كان انتحاراً صغيراً، لكنه كان أيضاً حماية لي كي لا أكتب موتي النهائي هناك.

كانت حكاية الموت طريقاً للنجاة. استطعت أن افهم حينها لماذا بقي أبي صامتاً ولماذا هدى ابنة عمتي تجاهلت ما أخبرتها به، ولماذا أخي من أبي اختار الحياد. خاتمة قصة أختي هناء كان بداية قصتي. إلّا أنّ كتابتي لقصة أختي لم تشفِني من رغبة المحاسبة، التي هي حقّ لي ولأختي التي خسرت الحياة.

لم تكن أختي هي الوحيدة التي شربت الديمول ونامت في أرض الباكِه ولم يجدوها إلّا أول المساء، لا، لم تكن هي وحدها بين نساء العائلة من انتحرت أو حاولت الانتحار. قبل حادثة أختي بعشرين سنة حاولت احدى شقيقات أبي الانتحار بالطريقة نفسها في مكان

آخر، إلّا أنها ركلت الموت في لحظاتها الأخيرة.

قصص كثيرة عن نساء العائلة بعيدات وقريبات خضن تجربة الإنتحار ونجا بعضهن. نساء ينتقمن من الظلم بظلم أنفسهن. إنها دوائر مغلقة. لو فهمت المرأة أسباب انزلاقها إلى قتل نفسها لما فعلت. كثيرات رفضن أن يظلمن أنفسهن دون أن يستطعن تحديد مصدر الظلم. رغم ذلك فتشن عن نافذة ضوء، ابتعدن، هاجرن ونجون. هل هو الاختلاف في الشخصيات؟ أم إن مستوى غريزة البقاء يلعب دوراً في حماية المرأة لنفسها؟ انتحار هناء دفع بكل تلك الأسئلة إلى أوراقي كل مرة أردت الكتابة عن موتها. لم ألقَ جواباً لكنني وجدت نفسي مدفوعة بقوة داخلية لكسر تلك الدوائر المغلقة. قوة ورثتها عن جدتي لأمي التي علمتني أن الحياة حق، وهي التي بقيت على قيد الحياة بمحض الصدفة، حين أتى بها شاب من شمال سوريا، ولم تتجاوز الست سنوات، من مخيم للاجئين الأرمن قرب حلب بعد أن شاهد مقتل عائلتها. كان جنديا في الجيش العثماني وسرّح بعد إصابته برصاصة في ذراعه شلّت يده. أتى بها إلى عائلته وقال لهم ستكون اختنا الصغرى. شاهاني، هذا كان اسم جدتي قبل أن تغيّر العائلة التي حضنتها اسمها ودينها. أرادت العائلة الحفاظ على اسمها بطريقة ما وعدم نسيانه فوجدوا لها اسما غريباً. صار اسمها شهلا. أحيانا تذكر جدتي اسمها الأول وتتخيّل لغتها وتروح تدندن أغاني أرمنية حملتها معها منذ كانت طفلة. أغان اختلطت مع الزمن بإيقاعات لقدود حلبية ولا تعود تعرف الفصل في ما بينها. كنت أسمعها ولا أفهم شيئاً وغالب الظن أنها هي أيضاً ما

عادت تفهم معاني الكلمات التي تغنّيها. نسيت لغتها لكنها لم تنس ماردين البلدة التي هُجّرت منها مع أهلها وهي طفلة. نسيت ربما كل شيء إلّا ذلك اليوم الذي التقت فيه بجدي وكانت في السابعة عشرة، وتغيرت حياتها للمرة الثانية، وكان جدي شاباً يبيع شوالات القمح مع أبيه في سوق حلب وصودف وجودها في محل أبيها في السوق، وابتسمت بدلال حين رأت جدي قائلة "لا نشتري قمحكم ولا نأكل الا من قمح الجزيرة" وكانت تقصد منطقة الجزيرة المشهورة بزراعة القمح. أعجبها وأرادت التقرب منه ولم تدر كيف. كانت على وشك السفر للتدريس في إحدى مدارس جبل حوران، فسافرت معهما لتصبح معلمة أطفال في مدرسة البنات التابعة للإرسالية الأنغليكانية، ثم زوجة لذلك الشاب الذي هو جدّي، وصارت تهتم بالبستان القريب من البيت وتحاول زراعة الفستق الذي كانت تستظل به في سهرات حلب الباردة، والذي لم تنجح زراعته في الجبل. ثم راحت تزرع مزيداً من الكرمة، وتقوم بصناعة النبيذ الأحمر الذي تتركه في الخوابي من سنة لأخرى.

لم أعرف تفاصيل حكاية جدتي وموت عائلتها ولجوئها طفلة إلى حلب إلا بعد موت أمي، وبعد أن كثرت زياراتنا إلى بيتها في بلدة رمّانة في الجبل، وصار بمثابة بيت ثان لنا، خاصة بعد زواج أبي، نقضي فيه الصيف بأكمله ولا نعود إلى دمشق الاّ في بداية السنة الدراسية. كانت حياة جدتي أشبه بحكاية مقطوعة لا ماضٍ لها ولا مصدر. لم ترث أمي قصتها ولم تنقلها لنا. كانت أمي صامتة كأنها ولدت من جذع شجرة وليس من رحم امرأة. وجد الكلام بيني وبين

جدتي طريقه إلينا يوما ما بعد موت أمي حين صرت أرافقها إلى الباكِه قرب البيت ثم إلى عليّة المؤونة. أتفرج عليها تنقّي حبات العنب في بداية الخريف تهرسه وتضعه كي يتخمّر في الخوابي الفخارية، تاركة بعضه يجف ويتحوّل الى زبيب تضيفه مع اللوز والجوز إلى الصحون المملوءة بالقمح المسلوق. تجلس على الأرض وتبدأ بوضع الزيتون في أوعية زجاجية كبيرة ثم تضيف إليه قطع الحامض والفلفل الأحمر، تغمره بالماء المملّح وتنهي لوحتها الفنية بسكب طبقة من زيت الزيتون الصافي على الزيتون الأخضر.

هناك في ذلك الخريف الأول بعد موت أمي ولم أكن قد تجاوزت العاشرة بعد، راحت جدتي شاهاني تروي لي قصتها، ومع الحكاية كنت أستمع وأراقب ما تقوم به. كنت كمن أسمع حكايتين في آن واحد. حكاية طفولتها ومراهقتها في حلب وسط عائلة تبنتها إلّا أنها في النهاية لم تكن عائلتها، وحكاية ثانية هي قصص عذابات تأقلمها مع طبيعة جبلية متوحشة وعلاقات عائلية كان من الصعب على شاهاني الدخول فيها كواحدة من أهلها.

حين وُجدت جثة هناء في الباكِه القريب من البيت كانت جدتي قد صارت في آخر أيامها. لم تستطع النهوض والسير إلى الخارج. صارت تنوح من مكانها في السرير وتقول إن لا ثعابين في الباكِه وإن ما يقوله الأهل عن سبب موت هناء مجرد غباء.

في زيارتي الأخيرة لها، قلت إنني أريد السفر، وكانت قد هزلت كثيراً منذ لقائنا الأخير يوم عيد الأضحى، وتوقفت عن صناعة النبيذ وزيارة الكرمة. صارت توصيني وتردّد أن السفر نعمة، وأن اليوم

هو الحياة، وأن الحياة حقّ لا يؤجل للغد، وأن المكان أينما أكون هو مرآة روحي ولا بدّ سيشبهني. لم تعش شاهاني، كما أحب دائماً أن أسميها، طويلاً. رحلت قبل أيام من الذكرى الأولى لرحيل هناء، وأسبوعين قبل سفري.

ماتت جدتي ورفض مشايخ رمّانة والجوار تلاوة صلاة الرحمة عليها. اضطر خالي أن يأتي برجال دين عُرفوا بانفتاحهم أكثر من هؤلاء الموجودين في البلدة لصلاة الرحمة. قال رجال الدين إنه لا تجوز الرحمة على امرأة من أصول بعيدة عن الطائفة وإنهم سيحرقون في نار جهنم إن فعلوا. كل هذا الغباء الذي عبّروا عنه فقط لأنها لا تنتمي إلى الطائفة. منذ تلك الحادثة تغيّر خالي، وما عاد يقيم أيّ علاقة اجتماعية مع عائلات المشايخ وما عاد يساهم في أفراحهم ولا أتراحهم.

موت جدتي أعاد اليه وعياً كان قد ابتعد عنه خلال حياته التي اتسمت بالعمل اليساري السري، أن الموت هو الفرصة الملائمة لرجال الدين للانتقام من الأحياء عبر معاقبة جثث موتاهم وإغلاق طرق الجنة أمامها. يتهمون الأحياء بانعدام المسؤولية وبتقصيرٍ ما أمام أمور غامضة غير مفهومة. هكذا تغدو الجنة مقفلة ليس أمام الأموات فحسب بل أمام الأحياء أيضاً.

***

قررت أن أسافر لأنني أردت أن أنجو بنفسي. لا أريد هذه الجنة ولا هذا الموت.

أريد النجاة أولاً ثم فهم أسباب الظلم. لا أريد أن أموت انتحاراً، بل لا أريد أن أموت أصلاً ولا أن أكون شاهدة على الظلم. أريد أن أحيا وأن أنمو وأن أحب وأن أكتب وأن أنجب وأن أكون أمّاً. أريد أن أشعر بطعم السعادة كفعل حاضر وليس كفعل ماضٍ. أن تكون السعادة مقترنة بكلمة الآن ولا علاقة لها بالجنة ولا بالماضي الذي لن يعود. هكذا أنهيت كتابة قصة أختي بكلمتَيْ جدتي "الحياة حق".

وحين أتت ابنة عمتي، هدى، إلى بيتنا وقدّمت لي ذلك العرض أن أنتقل إلى بيروت قبلته دون تفكير. بل الحقيقة قبلته بعد تفكير طويل، لكن تفكيري الطويل ببيروت سبق زيارة هدى لبيتنا، كأن زيارتها وعرضها كانا قراءة لأحلامي. أرادت أن تبعدني عن العائلة وعن أي كلام حول رسالة هناء الطويلة التي تحكي فيها قصة علاقتها بشوقي ضابط المخابرات والذي أصبح زوج هدى، أن تبعدني عن أي إفشاء يدمّر زواجها الذي انتظرته ١٥ عاما منذ أن أتمّت ووضبت جهازها وأقفلت عليه درفة الخزانة. أنا أيضا أردت الابتعاد. قبلت أن آتي إلى هنا لأقيم. قررت الّا أعود ثانية إلى سوريا. أريد أن أنسى ما حصل. لكن لا أستطيع النسيان إن لم أكتب الماضي. لن أكون المرأة الأولى التي تسافر كي لا تموت هي الأخرى. ستضاف قصتي إلى قصص النساء اللواتي يتركن بلدانهن ويرحلن، أو يُجبرن على الرحيل.

الظلم يدفع بالنساء صوب الهجرة، صوب الهرب، ذلك الظلم الذي غالباً ما يأتي على هيئة رجل. أما أختي فلم تر أمامها خياراً آخر سوى الموت ربما لأنّها صدّقت بسذاجة لامتناهية أن العنف يمكن أحياناً أن يكون وجهاً آخر للحب.

لم أتردّد في ترك سوريا إلى لبنان. تركت البيت مع حقيبة فيها كتبي وكتاباتي وبعض قطعٍ من الملابس. حلمت أن أكتب بحرية دون رقابة. في سوريا كانتْ تصل إلى أبي أعداد من الجرائد اللبنانية والتي مُنع بعضها في ما بعد من الدخول إلى سوريا بعد انقلاب عائلة الأسد والذي سُمّي بالحركة التصحيحية.

قرأت كل الكتب التي جمعها والدي في حياته. صرت أقرأ له الجرائد ثم الكتب بعد أن خرج من السجن فاقداً الرغبة في معرفة ما يدور في العالم الخارجي حوله.

كان عليّ أن أقول للعائلة ما حدث لكن بعد أن قام شوقي بالزواج من هدى ابنة عمتي صار من الصعب الكلام. ضابط شاب يحلم بصعود اجتماعي يؤمن له مرتبة قريبة من السلطة، والزواج من أختي ابنة الموظف في التعاونية الزراعية والذي خرج من السجن حديثاً لن يؤمنه له، خلافا لهدى ابنة العائلة المهاجرة إلى الخليج. هي لا شك مناسبة له ولو كانت تكبره ببضع سنوات. لم يمض على موت هناء أسبوعان حين تمّت الخطبة، احتفال بسيط وسط أفراد العائلة فقط بسبب الحداد. لم أحضر، بقيت في بيت جدتي وشعرت بما يشبه الشلل في مفاصلي ورجليّ. جلست في الفراش أعيد قراءة رسالة هناء. لا أعلم كم من المرّات قرأتها ذلك المساء. كنت بحاجة أن أشحذ الكره الذي بدأ ينمو في داخلي، ألّا أدعه يضعف ويضمر. شعرت حينها أن الكره هو الذي سيبقيني على قيد الحياة، لكن الصمت كاد يأكل قلبي ويقتلني. بقيت صامتة لمدة سنة وما عدت أستطيع الاستمرار، ما عدت قادرة أن أحمل ذلك الكره الذي فاق

قدرتي على استيعابه. أخبرت هدى بالحقيقة أثناء زيارتي لها بعد إنجابها طفلها الأول.

قصدت زيارتها، وقصدت إخبارها وهي تقوم بإرضاع مولودها. كنت وأنا أدخل المبنى حيث تقطن، أردّد الكلمات التي سأقولها في رأسي وأتخيل ردّ فعلها. ستصاب بالذهول دون شك، وقد تبدأ بالبكاء، وربما ستطلب الطلاق. ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا، وتصرفّت هدى كأنها لم تسمع شيئاً. كأنّ ما سمعته قصة حدثت لأناس لا يربطها بهم أي صلة دم أو تاريخ أو معرفة من قبل. بقيت تصغي صامتة وهادئة، أمر حيّرني وجعلني أفكر أن هدى كانت على علم بالأمر.

***

لن أنسى ذلك اليوم الذي أتت فيه هدى لزيارتنا. كان شتاء وبردٌ في الخارج. حصل هذا بعد حصولي على وظيفة في وزارة الإعلام وبعد أن تبين أن إدارة التحرير تراقب وتتدخل في عملنا كصحافيين. كانت هدى وحدها، سألت زوجة أبي عني وأشارت لها الأخيرة أنني في غرفتي. دخلَت. كنتُ أكتب وأستمع إلى أسمهان. حين رأيتها، أخفضت صوت المسجّل. قالت لي:

"أعلم انك لست سعيدة في عملك في الوزارة، وتريدين فعلاً أن تكوني صحافية تكتب دون رقابة، لماذا لا تسافرين إلى بيروت، إلى مكان تكتبين فيه بحرية كما ترغبين، وتبتعدين عن هذه الأجواء؟ أساعدك قدر ما أستطيع هنا بإبقاء وظيفتك قائمة لبضعة أشهر خلال

غيابك. ثم خذي هذا المبلغ. تدبري أمرك به في سنتك الأولى هناك، وأنا سأبعث لك بالمزيد وسيكون مدخولك كافياً ريثما تجدين عملاً.

كل هذا سيبقى بيننا ولن يعرف بعرضي ومساعدتي لك أحد، لكن أريد منك إتلاف الرسالة، رسالة هناء".

تناولت منها المال دون تردّد.

"سأمزق الرسالة! سأفعل لحظة خروجي من سوريا". وجدت نفسي أقول.

ورَدَت فكرة سريعة في خاطري وأنا أرى هدى تبتعد عن عتبة البيت وتضيع في الطريق الموحلة المظلّلة، أن حياتي ورغم وجود صديقي سهيل فيها، غَدَت بعد موت هناء، ثم موت جدتي، نفقاً مُعْتماً، وأن رحيلي عن البيت وعن سوريا هو نافذة الضوء الوحيدة. لم يفهم سهيل قراري بترك دمشق ولا حاجتي للابتعاد.

قال لي حينها إنني آخذ قرارات دون العودة إليه كأنه غير موجود. كل ما أردته في تلك اللحظة هو أن أصير لامرئية وأن أختفي عن الجميع بمن فيهم سهيل.

لكن بعد كل ما جرى وبعد تلك السنوات ما زلت أفكر لماذا لم تحاول هناء أن تجد حلّاً آخر. لم تكن في أيّ لحظة شابة لا تحسن اتخاذ القرار. ماذا يحدث في تلك اللحظة التي يصل فيها إنسان ما إلى وضع حدٍّ لحياته؟ أختي لم تكن ضعيفة. أعرفها تماما. كانت ذكية ولديها قدرة على وزن الأمور بطريقة أفضل مني بكثير، بل كانت تنتقد تهوّري وانفعالاتي. في رسالتها وصفت علاقتها بشوقي بدقّة.

هو وصف يقوم به شخص لا يُقبل على الإنتحار. كتَبَت:

"ما معنى الحب في النهاية؟ ما قاله لي أبعد ما يكون عن الحب. أنا أيضا كنت أنساه لحظة ابتعاده عني، كأنه منام خفيف عَبَر. كنت أشتهيه، وكان الجنس معه يشبه كسر الجوع. وحين آكل أنسى ما أكلت، أنسى الجوع. لكن كنت أعلم في أعماقي أنه، وإن سمّيته حباً، فهو دون أفق، وأن الرجل الذي أعاشر لا أتمناه أباً لأطفالي، وأنني عاجلاً أم آجلا سأكون أمام موقف مماثل، وأن حمْلي الآن يضعني أمام خيار واحد أو اثنين على الأكثر".

ماذا قصدت هناء بـ"خيار واحد أو اثنين على الأكثر؟" هل الانتحار كان أحد هذين الخيارين؟ سؤال لم أجد له جواباً. هل حاولت إيجاد حل ولم تفلح؟

كنت أرى والدي البعثي القديم الذي سجن وتاب وجلس في البيت يذبل كل يوم. أن يدخل شوقي بيتنا ويُتوّج ملكاً لم يكن بالأمر الصعب خاصة أن زوجة أبي بدأت السلطة تأكل عقلها وروحها.

كانت تفرح بما يأتي به شوقي إلى بيتنا ثم كانت هي أم الصبي الذي لم تستطع أمي التي رحلت شابة إنجابه. أخي عطا من أبي بات فخر أبي الوحيد إذ خلّصه من كنية رافقته لأكثر من ثلاث عشرة سنة: "أبو البنتين".

بعد انتحار هناء، لم يسأل أهلي كثيراً عن الأسباب الحقيقية لموتها. فضّلوا الصمت. الصمت اقتصاد اجتماعي، لكنه اقتصاد لا توفير فيه ولا استثمار بل خسارة لاحقة تتراكم وتكبر مع الزمن. أغمضوا عيونهم عن معرفة أي شيء. ثمن الحقيقة غالٍ ولا أحد يرغب في تسديده.

حين وصلتُ إلى بيروت، لم تكن الحرب قد بدأت بعد وكانت بيروت في أوج جنونها. بعد أشهر زاد الجنون وبدأت أشعر أنني في مرجل سياسي واجتماعي وثقافي:

قصف الجيش اللبناني مخيمات الفدائيين، سيطرة حركة فتح على بعض القرى الجنوبية، إضرابات، أفلام سينمائية جريئة، كتب تطبع وتباع هنا وتمنع في بلدان عربية، مقاهٍ تشهد على طاولاتها الصغيرة الصراعات العالمية وحروب الأمم، ونقاشات صاخبة، أحزاب معارضة، إغلاق شوارع ومدارس وجامعات. ندوات مندّدة بكل شيء، استقالة حكومة وصحافة مشتعلة بالآراء المتضاربة. حينها كانت الحرب تستعد لتغيير مصائرنا ولم نكن قد استوعبنا بعد.

لم يكن صعباً عليّ الدخول في أتون هذا الحقل الصاخب الذي اسمه الإعلام في بيروت. إلى جانب العمل الصحافي التحقت بالجامعة قسم الأدب الانكليزي. أذكر عملي الأول في جريدة غريبة بعض الشيء، والذي خرجت منه بعد أقل شهر.

سخر كمال فِرات من سذاجتي حين أخبرته. كانت الجريدة تُطبع وتُوضَّب في الأرشيف ولا تُوزّع في بيروت. قيل لي بعد ذلك إن صاحب الجريدة يطبع جريدته فقط للسفارات العراقية في العالم. في مقابلتي الأولى مع صاحب الجريدة، أوضح أنه يحتاج إلى صحافية متمرسة وأخبرته أنني لم أعمل في الصحافة سوى بضعة أشهر في دمشق. "لا بأس" أجابني، وتابع أنه سيسافر لفترة وطلب مني أن أدخل مكتبه أثناء غيابه وأن أقوم بأرشفة وتنظيم الكتب والملفات على الرفوف وفي الخزائن الخشبية الصغيرة. أعطاني مفاتيح الخزانة

والأدراج وسافر. دخلت إلى المكتب وحاولت ترتيب ما بداخله. انتهيت من تنظيم الكتب على الرفوف. وبدأت بفتح الأدراج المقفلة وكنت أتوقع أن أرى أعداداً سابقة للجريدة، أو محاضر اجتماعات أو مقالات لم تنشر بعد. لكن وجدت تلالاً هائلة من مجلة البلاي بوي، فضلاً عن كتب إباحية وصور خاصة لصاحب الجريدة مع نساء مختلفات في جلسات مغلقة وحميمة.

لماذا طلب مني تنظيم أرشيفه الخاص وأنا تقدمت بطلب عمل كصحافية وليس كسكرتيرة شخصية؟ هل هذه دعوة لإدخالي في عالمه الشخصي وما يترتب على هذه الدعوة من تداعيات؟ تساءلت حينها. قررت أن أترك العمل سريعاً دون جلبة، أن اخترع سبباً أو ذريعة للخروج من هناك. أعدت كل شيء إلى مكانه وقبل أن أقفل المكتب سرقت ملصقاً لرائد الفضاء الروسي يوري غاغارين بالأسود والأبيض وجدته في إحدى الخزائن ملفوفاً وموضباً في اسطوانة كرتونية. لم أشعر بأيّ ذنب حين سرقته. بل كانت لديّ ثقة أنني أقوم بعمل إنقاذي. أنقذ غاغارين من أسوأ مكان يمكن أن نجده فيه. ربما أجمل شيء قمت به في سنتي الأولى في بيروت هو سرقتي بوستر غاغارين، ذلك أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل كانت تلك السرقة الصغيرة بداية لرحلة تفتيش وبحث عن حياة ذلك الرائد الفضائي الذي دوّى رحيله عام ١٩٦٨. لم أتوقف عن جمع المقالات التي تتناول حياته وموته. يضحك كمال ويقول لي إنني صرت متخصصة بذلك الرجل ذي الابتسامة التي أرسلت ابتسامة موناليزا، تحفة دافنتشي، إلى الصفوف الخلفية. لكن رغم ابتسامته

كنت كلما قرأت مقالا عن غاغارين أشعر بحزنه الذي ينقله إليّ. كتبت انه ليس صدفة أن تولد ثورة طلاب ١٩٦٨ بعد أقل من شهرين. كانت على نحو ما ثورة ضد الحرب وضد قتل الشباب في العالم، القتل بكل معانيه ورمزيته.

***

حين وجدت هذه الوظيفة في المؤسسة الصحافية البريطانية. بدوت كطفلة تتعلم المشي. كان عليّ تعلم الكثير. كذلك كان عليّ كتابة قصة هناء. كنت أعرف تماما أنه علي الانتظار قبل نشر قصتها. كنت خائفة. ما أزال خائفة. قد يفعلون أي شيء لإسكاتي.

***

بعد أن كتبت عن هناء صار يلازمني شعور باليأس في الكتابة عن موت الشباب، لكن بت أعلم أن الكتابة تبدأ من اليأس. اليأس بُوصلة الكتابة، حينها فقط أعلم أن الساعة الزرقاء قد حلّت، وأن ثمة كلمات تنتظر إخراجها إلى النور.

***

كانت تمطر طوال النهار. لم أخرج اليوم من البيت. ظل صوت المطر في رمّانة يأتيني في المنام. معه ذاكرة العطلات في بيت جدتي شاهاني والمشي في صباحات الأعياد المبكرة والباردة نحو غرفتها. أدخل

الى فراشها وأنام. لا أعلم كم من الساعات أبقى هناك. هنا المطر مختلف. يأتي دون رائحة التراب، ويحمل روائح عوادم السيارات وعربات الخضار المتروكة في العراء.

***

آذار ١٩٧٧

تسلّل سهيل صديقي القديم الذي ارتبطت معه بعلاقة شغف أيّام الجامعة في دمشق من سوريا إلى لبنان منذ أسابيع قبل أن يجد وسيلة لاسترجاع وثيقة سفره التي صادرتها المخابرات السورية حين اعتقل واحتُجز لأشهر. أضطر أهله إلى دفع مبالغ كي يتمكّنوا من إخراجه من السجن.

أقام عندي في بيروت أسبوعاً ينام على الكنبة في غرفة المكتب، قضينا الجزء الأكبر منه في نقاشات لا تنتهي. قال إنني أدرت ظهري وجئت إلى هنا لأنجو بنفسي فقط دون التفكير بهم.

أذكر ذلك اليوم حين اتصل ليسألني إن كنت أريد شيئا من الخارج، قلت له إنني لا أريد شيئاً إذ كنت على وشك الخروج بعد الظهر لتناول كأس في شارع الحمراء مع صديقة تلبية لدعوتها لي بمناسبة يوم مولدي.

اقترح حينها أن ينضمّ إلينا.

وصل بعد قليل وكان المقهى شبه مليء بالرواد. كان يخبر صديقتي عن مشروعه بالسفر إلى السويد حين استرعى انتباهه أحد

الجالسين قربنا وهو يقول بصوت عالٍ موجهاً كلامه لرجل يجلس قبالته وهو يسند بيده رأسَه المثقل بالكحول:

"من سنتين صار يوم ٨ آذار يوم المرأة العالمي، وتاتشر صارت زعيمة حزبها. كارثة علينا. من وقتها بلّشت حروبنا وما خلصت".

"شو العلاقة؟ ما فهمت؟"

سأله الرجل الآخر.

"كل شيء مرتبط بكل شيء"، أجاب الأول وقد تململ في مكانه وأكمل حديثه:

" بيكفي إنو سنة ١٩٧٥ كانت سنة نحس، بلّشت بموت أم كلثوم. يا خسارة هالصوت الحلو يندفن تحت التراب".

توقف سهيل عن الكلام وراح يستمع إلى حديث الرجلين مظهراً اهتماماً خاصاً، ثم قال:

"والله معه حق... لكن ما بفهم على اللبنانيين، هنّي وعم يسكروا بيتذكروا الحرب وتاتشر كمان!"

حين طلبنا الحساب في بداية المساء اقترب النادل منا وقال لنا "واصل"، وأشار بيده إلى شخص يجلس في ركن بعيد خلفنا. استدرت ووجدت أنه هاني أحد زملائي في المكتب الذي صدف وجوده في المقهى وعلم أنه يوم مولدي وأحب أن يدفع ثمن زجاجة النبيذ التي على طاولتنا. ثم وقف واقترب منا وقال لي كلمة لطيفة وقدم نفسه لصديقتي ثم لسهيل الذي أدار وجهه المحتقن واضعاً يديه في جيبَيْ بنطلونه الجينز. شعرت بالإحراج وشكرت هاني على مبادرته وأسرعنا بمغادرة المقهى. ودّعت صديقتي التي عادت إلى

بيتها القريب سيراً، فيما رحنا سهيل وأنا نبحث عن سيارة تقلّنا إلى البيت.

لم يرد عليّ حين سألته لماذا لم يمدّ يده ويقدم نفسه هو أيضا حين بادر هاني لمصافحته. نظر إليّ بغضب. قال لي إنه فكّر بترك المقهى منذ أن أخبرنا النادل أن هاني دفع الحساب. أضاف إنني لا أحترمه، وإن ما قام به هاني هو انتقاص من رجولته وإنه بلا ذوق وعديم اللياقة، إذ كيف يدفع الفاتورة بوجود رجل آخر معي!

في السرفيس الذي كان يقلّنا نحو بيتي أوقف حاجز عسكري السائق وطلب عنصر الأمن السوري أوراق السيارة وأوراق الهويّة. ارتبك سهيل ونظر إليّ خائفاً. تلاشى ذلك الغضب من عينيه، وشعرت به يلتصق بي كأنني أمه. كأنه أراد في تلك اللحظة أن يختبئ تحت تنورتي لو استطاع. "ما تخاف"، قلت له هامسة، ثم أخرجت بطاقتي الصحافية وقلت للعنصر الأمني إننا صحافيون. لم يسأل عن أوراق سهيل الثبوتية وتركنا ننطلق. كانت الحرب في أولها ولم تكن المخابرات السورية قد بدأت بعد بتصفية الأقلام المعارضة. نظرت إلى سهيل ووجدته قد تنفس الصعداء وبدأ احتقان وجهه بالتلاشي.

نفرت منه في تلك اللحظة. كرهت ادعاءاته الذكورية. "أين غضبك وكبرياؤك الآن؟ هل تركتهما في المقهى تقاتل بهما زميلاً مسالماً أراد أن يعبّر لي عن ودّه؟ ومن أجل ماذا؟" سألته متهكّمة.

أومأ برأسه أن أتوقف عن الكلام مبدياً امتعاضاً من تعليقاتي، ولزم الصمت.

في السرفيس أستعدت جملة الرجل في المقهى "كل شيء مرتبط

بكل شيء". وفكرت أن جملة كهذه في بيروت ليست عابرة، ليست بلا معنى. إنها واقع. واقع ارتباط السياسة بالحياة اليومية، الأفكار بالسلوك. ارتباط الحياة بالموت كل لحظة.

ذلك المساء في البيت أعددت عشاءً رغم غضبي، سلطة وقطع دجاج مشوية مع البطاطا المهروسة. تناول سهيل الطعام صامتاً ثم جلس يشاهد التلفزيون فيما حملت الأطباق الفارغة إلى المطبخ. فكرت أن هذا المشهد الذي أراه الآن: امرأة تعدّ العشاء ثم ترفع الأطباق فيما الرجل يشاهد التلفزيون، هو مشهد بعيد عن حياتي، وأننا، رغم فرحي بلقاء سهيل ورغبتي بمساعدته كي يجد حياة جديدة في الخارج، قد أصبحنا في مكانين مختلفين من المستحيل جمعهما. فكرت أن أخبره عن كمال وعن علاقتنا، إلا أن بعد ما جرى في المقهى، ما عدت أشعر أنه يستطيع أن يكون صديقاً فعليّاً لي.

اقترب مني، فيما كنت أغسل الأطباق، محاولاً إيقاظ ذكرى غرامية طواها الزمن. حاول تقبيلي واضعاً يده على صدري كأنّ تلك السنوات التي مرّت أثناء ابتعادنا عن بعضنا، لم تعن له شيئاً، وكأنه يعتقد أنّ له حقّاً بمفعول رجعي على جسدي وعواطفي. لا بدّ أن ما جرى في المقهى، ثم في السيارة، أصاب ثقته بنفسه، وأراد عبر ذكرياتنا الجنسية معاً استعادتها. تساءلت حينها كيف أحببته في زمن مضى. دفعت يده برفق مشيحة بوجهي عنه.

"أهلا وسهلاً بك في بيتي. أنت ضيف، أرجو التصرف وفق أصول الضيافة! ثم هل تعتقد أنني سأرغب بك بعد ما أظهرته في المقهى؟ ردّ فعلك إزاء مبادرة هاني كانت مخجلة وأشعرتني بالإهانة.

أنا صاحبة العلاقة وهو أراد أن يكون لطيفاً معي بمناسبة يوم مولدي. لا علاقة لك بالموضوع. لماذا تريد إقحام نفسك في موضوع لا يعنيك؟ ألأنك رجل؟ ثم سلوكك هنا في بيتي... حتى أنك منذ أسبوع لم ترفع صحنك إلى المطبخ!" قلت بجفاء.

"هاجس حقوق المرأة ومساواتها مع الرجل أكلت عقلكِ واذا بقيتِ هكذا، لن تجدي رجلاً يشتهي أن يقبّلك أو أن يضع يده على صدرك. منذ تركك لسوريا ابتعدتِ عن القضايا السياسية الأساسية التي هي أهم من أي قضيّة تتعلق بالمرأة".

"ما تقوله ترهات، ولا أرى أي قضية في العالم تستطيع أن تكون عادلة وإنسانية أن لم تكن مرتبطة وبالعمق بقضية المرأة. لكن يبدو أن حديثي جاء متأخراً إذ ما عاد أيّ شيء يجمعني بك، سوى بعض الذكريات".

كنت غاضبة. تركته واقفاً في المطبخ ينظر إليّ كأنني آتية من فضاء خارجي، ودخلت إلى غرفتي أحاول استعادة بعض الهدوء.

***

استيقظت ولم أجد سهيل في البيت. يبدو أنه خرج باكراً. ترك ركوة قهوة فارغة وفنجاناً على طاولة المطبخ. في المكتب كان الغطاء والمخدة ما زالا على الكنبة الكبيرة حيث نام. لم أجد حقيبته في الغرفة ولا أغراضه الشخصية في الحمّام.

***

نيسان ١٩٧٧

ليلة أمس بقيت صباح في بيتي. بدأ القصف ولم أسمح لها بالنزول خوفاً عليها. وحين عاد القصف ليلاً قفزت من الكنبة في غرفة المكتب، والتي تتحول إلى سرير، ودخلت غرفتي. تمدّدَت قربي على السرير ولم تستطع النوم ثانية، ثم أخذها الضحك حين راحت تروي لي قصة المرأة التي تقطن الطابق الثاني من مبنى الخندق الغميق التي كانت ترفض نزع لباسها الداخلي وهي في الفراش مع زوجها خوفاً من أن يبدأ القصف، ولا تجد الوقت الكافي حينها كي تلبس قبل النزول الى الملجأ.

اعتادت صباح الطوابق الأرضية حيث تشعر بالأمان. لكن شقتي في طابق عال ويخيفها البقاء فيها. تبدو لي مجنونة أحياناً وأتساءل من أين تأتيها كل تلك الحيوية خلال النهار رغم قلقها الدائم. آخ تقول صباح، وتطلع "آخها" ممدودة مميّزة مطعّمة بصوت لم يفقد الأمل بعد، وتتابع:

"لو كان للحزن مِصرف وفائدة لصرت أغنى الناس!".

منذ أن بدأت بالعمل في بيتي وهي تخبرني كل مرة نتفاً صغيرة عن حياتها في ماردين. أتت صغيرة. لكنها لم تنس شيئا. كأنها تحيا حياتين متواصلتين هنا في بيروت وهناك في ماردين.

المرة الوحيدة التي رأيت صباح مبتهجة تلك البهجة التي نادراً ما تصيب الانسان كانت في حفل العشاء بعد تسجيل زواجنا في السفارة التركية كمال وأنا. قليل من الأصدقاء المقرّبين حضر إلى بيتي.

صارت صباح تروح وتجيء وفي كل مرة تملأ كأساً من العرق. ثم

بدأت ترقص وتدور على نفسها كدرويش في وسط صالة الجلوس. وقفت أمام بوستر يوري غاغارين الذي علقته على جدار صالة الجلوس، راحت تتأمله ثم بدأت بالكلام كأنها تحدثه:

"جنتي وجهنمي على هالأرض، ما إلي مطرح غير هون، وإذا جبروني روح، رح أطلب بيت صيفي بجهنم. كل أحلامي هونيك!".

وحين وصلت عمتها فوزية ذلك المساء ورأتها في وسط الصالة ترقص بدأت تلطم وجنتيها وهي تقول "جنّت المرا... والله العظيم جنّت بنت أخي!".

اقتربت منها صباح متمايلة في مشيتها وبالكاد تستطيع الوقوف، وأمسكت بيديها الاثنتين ياقة قميص فوزية التي تغطّي رقبتها بشكل كامل، وصارت تقرّب طرفَي الياقة إلى بعضهما قائلة لها بصوت تملؤه السخرية:

"احتشمي يا عمتي... احتشمي... في رجال هون... أنا لو مطرحك برجع هلّق عالبيت!...".

وفيما وقفت فوزية كتمثال مشدوهةً مما قالته وفعلته ابنة أخيها ابتعدت صباح عنها واقتربت ثانية من صورة غاغارين وهي تردّد تاركة جسدها يتمايل على إيقاع كلماتها:

" الجنة هون... الجَنة هون... ويا ريتك هون".

فوزية التي ما عادت تستطيع تحمّل ما تفعله صباح، نهضت فجأة وخرجت مهرولة على الدرج تاركة باب الشقة مفتوحاً وراءها.

بعد أيام اتصل شقيقها محي الدين من ماردين ليلاً ليقطع عليها نومها وليقول لها إن عمتها فوزية أخبرت أباها أنها رقصت وشربت

الكحول، وأن أباها بعد انتهاء المكالمة مع شقيقته أصيب بوعكة ونام في السرير.

"مريض؟" راحت صباح تسألني بغضب، "ليته يموت وتأكله الديدان مثلما أكل الهم والخوف قلبي. مَرِض لأنني رقصت؟ لم يمرض حين زوّجني في سن الرابعة عشرة ولا حين خُطف زوجي، ولا حين لم يبق فلس واحد معي، ولا حين قسّمت كل مالي بين "أولاد الحلال" اللصوص الذين وعدوني بإعادة زوجي، وبينه، هو الذي اشترى بأموالي بيتاً لأخي".

***

راق لمدير المكتب اقتراحي حول الكتابة عن المدن المتوسطية. هكذا تعرفت إلى كمال للمرة الأولى في اسطنبول. كان عليّ الكتابة عن المدينة الأسطورية، وصار كمال يريني المدينة. في المساء اقترحت أن نتناول العشاء معاً في الجزء الآسيوي من المدينة. هناك حكى لي عن جزيرة عائمة في مكان بعيد عن اسطنبول، لم يتعرّف اليها السائحون بعد ولم يؤمها الناس. كنت أعلم طوال السهرة أن حكايات تلك الجزيرة مفتاح إغواء يريد أن يسحرني به، وكنت كليّ استعداد لأقع في شرك غوايته، رغم شكّي بوجود هذه الجزيرة فعلاً.

افترقنا في نهاية المساء بعد أن انضم إلينا صديق له اسمه تيمور ورافقنا في السيارة إلى الفندق في شارع الاستقلال. أوقف كمال السيارة جانباً كي أنزل حين سمعته يجيب صديقه الذي اقترح، بعفوية

مفاجئة، شرب كأس أخرى في مكان ما، "لا لن نذهب لشرب كأس أخرى، علينا أن نعود، نساؤنا بانتظارنا!" قلت لنفسي إنّ هذا الرجل متوحّش ولا يتمتّع باللباقة.

لكن لا بدّ أنني شعرت بالغيرة، الغيرة من امرأة يهرع إليها رجل عند المساء، ليس أيّ رجل، بل هو بالذات!

مشيت مبتعدة عن السيارة ببطء شديد فيما رحت أفتش بيد متوتّرة في قعر حقيبتي اليدوية عن مفتاح غرفة الفندق ولم يكن من السهولة إيجاده.

قبل زيارتي الثانية لاسطنبول كنا قد تبادلنا رسائل عدة وكانت ثمة صداقة وطيدة وعميقة قد نشأت بيننا. في الطريق من المطار الى الفندق جلست بجانبه في سيارة الفيات، أدار المحرك ولم يقل شيئا. انطلقت السيارة ولم أتكلم أنا ايضاً.

كنا نستعيد عبر هذا الصمت كل ما تبادلناه من كلمات في الرسائل الطويلة. استعادة تشبه العودة إلى غرام نائم فينا. ثمة أمر مشتعل هنا في هذا المكان الضيق. الهواء الآتي من النافذة شبه المغلقة أضاف ذبذبات أليفة إلى الصمت الذي بيننا. "سيكون نهاراً طويلا"، قال كمال، قاطعاً الصمت الذي طال، وتابع:

"اسطنبول تحتاج لأسابيع، لن يكفيها أسبوع واحد. ما عليك سوى ترك الفندق والإنتقال للإقامة عندي.

***

ثمة ذاكرة أخرى عن اسطنبول لم أعشها ولم تعتمد على تجربة فردية.

ذاكرة كتب التاريخ لا تضع اسطنبول في خانة الصديق. ذاكرة مرتبطة بلغة العسكر العثماني أو التركي ولا تنتبه إلى أن ناظم حكمت وياشار كمال كتبا بتلك اللغة أيضاً. ذاكرة صارت موضع نقاش بيننا، كمال وأنا. في تلك الأيام التي قضيتها في اسطنبول رأيت المدينة بعينين جديدتين. لكن ليس من السهل مساءلة تاريخ واستعادة آخر لم يُكتب بعد، استعادة تصبح في الوقت عينه قراءة جديدة لعلاقة، لذاكرة، لمدينة.

هؤلاء الذين كتبوا التاريخ، هل ساروا أوّلاً في شوارع اسطنبول؟ تلك العلاقة الفريدة مع مدينة ما، كأنك تدخل التاريخ من بوابات لا تُحصى ولا تنتهي. هكذا رحت أسير وأبحث عن صلة تربط حاضري بماضيّ، تربط عوالمي الجغرافية باسطنبول. أردت إعادة ترتيب بيت ذاكرتي، ذاكرتي الجماعية أيضاً.

ثمة تماثل خفي بين دمشق وبيروت واسطنبول. ثمة تاريخ مشترك في الثقافة والمزاج والقصص والرحالة، هي مدن التعدد وتعاقب الحضارات. هل ثمة كتابة لتاريخ بيروت ودمشق من دون العودة إلى اسطنبول؟

أسير وأبحث عن علامات تصل المدن المتوسطية ببعضها، عن عنف مشابه، أو إيقاع حياة. هل أهل المدينة يعيشون عنفاً كالذي في أوطاننا؟

أبحث عن أجوبة لسؤالي في مشاهد الناس في المدينة ، حيث العنف يبدأ هنا في الشارع. لا بد أنهم يعيشون قلقاً يشبه قلق بيروت أو كبتاً مشابهاً لكبت دمشق. أقول لكمال فيما نبدأ

رحلة اكتشاف جدران القسطنطينية القديمة، ونتابع سيرنا على ضفاف البوسفور، فيما يحدّثني عن الفكرة الأبوكالبتية الراسخة في عقول الناس في اسطنبول أنّ الهزّة الكبرى لا بدّ ستضرب يوماً بقوة ٨ درجات على الأقل، وأنّ عدد الضحايا سيكون مئات الآلاف، وأنّ هناك شقّين أرضيّين في اسطنبول وفق علماء الهزّات الأرضيّة. "إنها أسطورة الخوف واللّايقين"، علّقتُ، فيما راح يشير بيده نحو جهة البحر الذي تلمع على سطح مياهه أضواء المدينة ومرتفعاتها الوديعة. شق في بحر مرمرة يمر أمام جدران القسطنطينية وآخر يمر أمام جزر الأمراء. الناس يترقبون الهزة الكبرى التي ستأتي خلال ٥٠ سنة.

أستمع إلى كمال وأفكر في تلك اللحظة في دمشق حيث ولدت وفي بيروت مدينتي الثانية. في بيروت يعيشون في قلب الأبوكاليبس، بينما هنا في اسطنبول يتوقعونه، وفي دمشق يتوهّمون اطمئناناً كاذباً.

في بيروت ينتظر الناس الخروج من الأبوكاليبس، وفي اسطنبول ينتظرون بخوف الدخول فيه. في بيروت كما في اسطنبول، الجميع في محطة انتظار، ودمشق على حافة المدينتين. الخوف في كل مكان.

كنت أحياناً أراقب لون عينيه كيف يتغيّر مع حركة الأرض حول الشمس. ابتسم وهو يقترب مني بحركة وديعة ثم أمسك بذراعي برفق قائلاً بصوت دافئ أليف:

"نورا... أسئلتك كلها قلق. أفهم ذلك، لكن لنترك الوقت

للوقت... لنترك الوقت للوقت".

"أليس بإمكانك أن تمدّدي إقامتك اسبوعاً آخر؟"

سألني ثانيةً.

"لا أعلم، سأرى". أجبته وأنا أفكر في كلامه وأقول لنفسي إن ثمة طريقاً لي مع هذا الرجل الذي تعرفت اليه منذ أشهر. حنان ملأني وأنا واقفة قريباً منه. حنان نحوه ونحو تلك السماء التي يتقاسمها الجميع رغم عنفهم، وذلك البحر الذي يبتلع أسرار الارض. قلبي دافئ. هتف داخلي، ونحن نتبادل قبلة خاطفة في ثوانٍ بدت كأنها تختصر حياة كاملة. سرعان ما تذكّرت شاهاني، وكدت أضحك. قلت له إن جملته "اتركي الوقت للوقت" ردّتني إلى جدتي وإنهما يتشابهان في مكان ما رغم اختلافهما. هو بدا لي مترحّلاً وكوزموبوليتيّاً. صفات جعلها بشخصيته المرنة، قابلة للتعايش في شخص واحد. أخبرته عن أصول شاهاني وطفولتها وسفرها إلى الجبل وتدريسها في المدرسة الابتدائية هناك، وزواجها من جدّي. كنت أشعر بقوّة أنه لو قُدّر له أن يتعرّف إليها لكان وجد فيها الكثير مما افتقَدَه. ربما تلك الحكمة التي نضجتْ دون خسارة الأحاسيس الأولى النابضة والتي تجعل الحياة مفاجأة مستمرة. لكان أيضاً وجد الكثير من الغنى بينهما في الثقافة المتشابكة. لكانا صديقين.

سافرتُ إلى تلك المدينة أحمل علاقة واهية متأرجحة ومركّبة. علاقة مرتبطة بذاكرة ضعيفة ورثتها عن جدتي شاهاني ذات الأصل الأرمني. لكن اكتشفت لحظة وصولي وسيري في شوارعها أن

رحلتي هذه إنما هي إعادة قراءة لتاريخي، لتاريخ جدّتي، لتاريخ الناس، لتاريخنا.

ما كان كل ذلك ليحصل لولا وجود كمال معي. معه صار للتشكيك بكتب التاريخ قوّة ومعنى.

***

إنه ربيع حار. أربعة أيام ننام دون كهرباء وماء. حرّ لاذع وقصف عنيف يطال الحي. بيروت التي أسميتها "المدينة التي لا تنام" في أحد مقالاتي، صار الآن اسمها "جارة الموت".

صباح لن تترك بيتها. قالت إن المقاتلين سيصادرونه لحظة خروجها منه. تقضي وقتها بين بيتها وبين بيت ابراهيم الذي فقد زوجته. لا يكفي أن تكون المرأة هنا زوجة مخطوف، بل عليها أن تتعرض كل يوم للموت هي الأخرى كي تحافظ على بيتها. بقيت تزرع حديقتها الصغيرة في الخندق الغميق رغم تساقط القذائف حولها.

إلى أين أذهب؟ تسألني صباح. أريد أن أبقى وأموت هنا.

تخاف إن رحَلتْ عن المبنى اسوة بالسكان الذي رحلوا ولم يبق منهم أحد، ألا يجدها الزوج المخطوف إن عاد. أنظر إليها وأراها تقف أمام المكتبة في غرفة الجلوس في شقّتي، تأخذ كتاباً، تفتحه وتروح تتهجأ الكلمات ببطء. أشعر في تلك اللحظة أنها تدرك في أعماقها أن زوجها لن يعود. من الصعب عليها التعامل مع هذا الأمر وكأنه واقع وحقيقة. لأنّها لو فعلت ستزداد حزناً وقهراً وسيكون

القبول بلاعودته موتاً ثانياً له. تريد أن تقبل وحدتها دون ألم. لا تريد العودة إلى ماردين ولا التفتيش عن مكان آخر أكثر أماناً في بيروت. هي ملتصقة بهذا المكان الشاهد على عالمين ومنطقتين وذاكرتين وزمنين. تريد أن تبقى ناطورة مكان يشبه الحافة. حافة اللامكان.

تفتنني صباح. ليست الفتنة بمعناها المعرفي أو الإبداعي والمرتبطة بأناس يقدمون أنفسهم على أنهم غير عاديين. هي تفتنني كما هي، في هذه الخلطة الإنسانيّة من الحكمة والجنون والبراءة والحاسة السادسة وحب الحياة والأسى. كل ما لديها يظهر كأنه جزء من موزاييك لا زمن له. هي كما هي تعطيني القوة والرغبة أن أكون قريبة منها.

***

منذ أشهر قتلوا كمال جنبلاط... هذا ليس بقتل عادي. إنه قتل مُتعمّد لقتل لبنان برمته. المخيف هو هذا الصمت. صمت رهيب، هنا في بيروت وهناك في دمشق.

خريف العام الماضي حاولوا قتل ريمون اده. الكل يعلم من قام بالمحاولة. إلّا انها لم تنجح. ترك ريمون إده مدينته التي أحب وهاجر.

أن نكون في بيروت يعني أن نقف على حافة الموت اليومي. أن نقف بين حياة مشوّهة لمدينة أو موت حتمي لها ونحن بات علينا أن نختار بين موت ما أو حياة لا نبض لها. علينا أن نختار بين أن نعيش

بوجه مشوّه أو بلا وجه على الإطلاق.

***

في رسالتها الطويلة كتبت هناء كيف لم يعِ أحد منا تلك العلاقة بينها وبين شوقي الذي أصبح موجوداً دائما في بيتنا في دمشق. يلعب الطاولة مع أبي، والأخير سعيد به، وينظر من وقت لآخر إلى السيارة الواقفة أمام المبنى القديم وفي داخلها سائق ينتظر ضيفنا لساعات. صار يأكل ويشرب معنا وما عادت زوجة أبي تستغرب حضوره في غياب أبي عن البيت. أصبح شيئاً فشيئاً فرداً من أفراد العائلة ولم ينتبه أحد للتحوّل الذي طرأ علينا حين بدأنا نتقبّله كواحد منا. ساعد أبي في تنظيف سجلّه بعد خروجه من السجن، ثم وجد له وظيفة مدير إداري في مركز البريد. وحين أكون في الجامعة وأخي في المدرسة، وزوجة أبي في زيارة، وأبي في العمل، يحضر ويدخل مباشرة إلى غرفة هناء. تكون هي أيضاً بانتظاره. يأخذها على عجل، فيما يدخل طرف يده بين أسنانها وتشد عليها أثناء لذّتها. لم تخف معه، كَتَبتْ. كانت تنتظره.

أضافت أن عقلها لا يقبل تلك العلاقة بينهما، ولا تحتمل الاستماع اليه يناقش أبي في السياسة. لكن هذا لم يمنعها عما كانت فيه معه. نزوة سمّتها. نزوة تعلم أنها ستنتهي يوماً ما، لكن لم يكن في الحسبان نتائجها، وأن الحمل سيغيّر كل شيء، هكذا فجأة داهمها خطر انتقال العلاقة من السر إلى العلن، من خفّة النزوة إلى ثقل الواقع.

فضّلت أن تُجنّب الأهل لعنة قتلها، وأن تقوم بهذا العمل وحدها. كتبت بسذاجة أخرى أن الإنتحار يحتاج إلى شجاعة لا يملكها كل الناس.

لكن الانتحار لا يحتاج إلى شجاعةٍ بقدر حاجة الأمل، فكرتُ وأنا أعيد قراءة الرسالة.

***

الأمل يحتاج إلى شجاعة، هذا صحيح، لكن الإقامة في بيروت تحتاج الى شجاعة أكبر.

مواجهة الآخرين ومساءلتهم سهلة. الصعوبة تبدأ حين عليك أن تسائل نفسك وتواجهها. حيث لا أقنعة، حيث لا شيء. فقط جلدك العاري وعيناك!

هذه المدينة تعرّي الفرد. تسمح له بالصدفة ربما، أن يكون فرداً رغم وجوده في بحرٍ لا مكان فيه سوى للطوائف بأقنعة حزبية أو عائلية. بيروت المتفاوتة المتناقضة المختلفة والمتعدّدة الثقافات والخلفيات الاجتماعية والتي تبتعد عن نفسها أحياناً، تستطيع أن تكون كل شيء لكل الناس. لكنها لا تشبه إلّا نفسها في الوقت ذاته! ولا يسع المرء فيها سوى مواجهة نفسه.

هذه المدينة قلب الحياة، وهي باتت ترقص على جراحها. رغم كل ذلك، لم أشعر بحرية في الماضي كما أشعر هنا. حرية في الحركة والمشي، حرية تجعلني أشعر بخفة لم أشعر بها من قبل. في بيروت

مكان للجميع. فيها مكان لي للرقص على جراحي أيضاً.

***

شعور بالوحدة. لا رسائل من كمال. معظم زملائي في العمل سافروا لقضاء العطلة، وانا وحدي في بيروت المقبلة على انفجار لا ينتهي.

***

لشعوري بالوحدة طعمٌ آخر حين أسير تحت مطر بيروت. أتركه يبلّل شعري وحقيبة يدي وملابسي... أبدأ بالركض لا هرباً من القذائف بل فرحاً بنقاط المطر، ثم أسمع صوتي يغنّي كعصفور. لا بدّ أنّني عاشقة.

***

بدل أن أنهي مقالتي رحت أنظر إلى كمال وهو جالس إلى الطاولة بيده يكتب كلمات مقاله السياسي، الكلمة ملتصقة بالأخرى. فكرت أن هذه هي طريقته في التأكد من أن جمله لن تطير منه، وأن أفكاره المتصارعة ستجد طريقها إلى الخروج والتنفّس ببطء. ستبقى هناك ولا تقع من بين الفجوات التي خلفتها أرجوحة لهاثه التعب. أضحك فيما أحاول فكّ حروف كلماته الموزعة بين الفرنسية والتركية. "طلاسم" أقول له، أفهم بعضاً منها، إلّا أنني

أتعب بعد حين، واستسلم للنعاس.

يكتب عن تركيا. عن كيف لم تتعلم شيئاً من الحرب. كتب "خسرنا مع ألمانيا ثم عدنا ثانية إلى الوطنية والأصنام والتسلح".

فكّرت أننا، كمال وأنا، عالقان بين الغرب الذي قرّر مصائرنا، وبين الماضي المدمّر ولا ندري كيف نجد طريقاً لنا كوننا من بلدين متجاورَين نتشارك في كمٍّ هائل من الخسارات لكن نختلف في التعامل مع خساراتنا. هو ما زال يريد التعويض، أما أنا فكل يوم يحمل خسارة أقلّ من الأمس يكون عيداً لي. لكن رغم هذا الاختلاف التقينا. أجد صعوبة في تحديد ما يجمعنا، ربما هو وعينا لتلك الخسارات.

هو يكتب لي، وأنا أكتب عنه. كل منّا يحتاج للآخر، كلٌّ يقترف قصته.

بعد لقائنا الجنسي الأول قلت له "لست مغرمة بك، لكن العلاقة معك مريحة ولا توجع الرأس". ضحك وقال "ها أنت أخرجت أسلحة الدفاع قبل الوصول إلى ساحة المعركة. أنت جبانة ولن تستطيعي الحب يوماً. الحب يحتاج إلى أن تتخلي عن سلاحك، أن تقبلي الخسارة، أن تقبلي أن الخسارة جزء من الحب نفسه".

كنت حينها ما زلت أخاف من الحب، ذلك الذي يميت كما أمات أختي.

***

في اليوم الأخير لزيارة كمال لبيروت وقبل سفره بساعات، وقف النادل في المطعم قربنا ينتظر. وقبل أن يحضر الطعام طلب كمال مني أن أغمض عيني وأحسست أن ما يقوم به قد رأيته سابقاً في السينما ولم أفكر يوماً أنه سيحصل معي. ثم أمسك بيدي وجذبها نحوه وأحسست بأصابع يدي اليمنى تلامس قطعة معدنية. فتحت عيني ووجدته قد أخرج خاتماً من علبة صغيرة، خاتم على شكل ثعبانٍ ملتفٍّ على نفسه، له عينان خضراوان. قال ضاحكاً:

"صنعت من ثعبان الجنة خاتماً لك!".

***

حين يعود كمال إلى بيروت سأعطيه هذا الدفتر الذي بات على وشك الامتلاء. أكتب يومياتي كلّما تسنّى لي الوقت. أقول لصباح يجب أن أكتب كي لا أنسى أي شيء حين يعود.

هذا تحدٍّ بالنسبة لي، أن اكتب بحرية مطلقة عنه وعني وعنا نحن الاثنين معاً، وأعلم في الوقت نفسه أنه سيقرأ كل هذا حين يعود. أكتب بكل الحرية التي أملك وأنا أعلم أن ما أكتبه سيغدو قريباً تحت عينيه.

***

المقال الذي كتبته عن الذكرى الثانية للحرب اللبنانية لم يعجب مدير المكتب. أرادني أن أعود إلى ذكر أرقام الضحايا وأرقام التهجير.

لكن أيّ ذاكرة هذه؟ كتبت بحب عن ذاكرة المدينة التي حضنتني، فيها كانت ولادتي الثانية وأجرؤ على القول ولادتي الحقيقية. الذاكرة ليست فقط ذاكرة العنف بل ذاكرة الحب. ذاكرة الأصدقاء الذين عملت معهم ورحلوا، ذاكرة الذين ما زالوا مثلي يحلمون بالتغيير. ذاكرة الناس الذين خبأوا جيرانهم خوفاً عليهم من عنف طائفي. قلت له إنّ الحرب أتت نعم، لكنها ستنتهي قريباً وإلى غير رجعة. يعتبر أنني لست صحافيّة متمرِّسة مع كلام كهذا. نصحني بكتابة الرواية والقصة. أغضب حين تصدر عنه تعليقات كهذه. لكن كلامه، رغم ذلك، يجعلني أفكر على نحو ما بأولئك الذين لا يكتبون أو يرسمون أو يمارسون الفن. ماذا يفعلون؟ وكيف يعبّرون اليوم بالذات عن ذاكرة العنف الذي شهدوه وعاشوه؟

في اجتماع اليوم مع المدير فكّرت، وهو لم ينه كلامه بعد، أن فائض المثالية سبب جيد لامتناع المرء عن خوض الحياة وعيشها بعمق. هو أيضاً سبب كي لا نرى ما يدور حولنا. لن يدعني أذهب غداً مع المصور إلى الجنوب!

أشعر بالاضطراب المستمر أمام ما يحدث في لبنان. لم أعد متأكدة من أيّ شيء إزاء عنف يومي حقيقي وواقعي ولا يُقارن بأيّ خيال.

(...)

***

حين علم أهلي بنشري لقصة هناء وبعد اتصالاتهم الهاتفية بقيتُ

متوتّرة لأيامٍ، ولا أريد الذهاب إلى العمل. مرات عدة طلبت من صباح الذهاب إلى المكتب عند الضرورة لبعث مقال سريع أو لتأتي لي بالجرائد العالمية. "بقي عليّ اشتغل عنك بالمكتب" تعلَق ضاحكة. "غداً سينسونني، أجيبها. لن يطاردني شوقي مدى العمر. سيكبر وينشغل بأمور أخرى وينساني".

لكن بتّ أرى أن حقد شوقي عليّ كبر كلما زاد عدد النجوم على كتفيه. غريبة تلك الديناميكية، تلك العلاقة بين الطاعة والإهانة والقسوة والسلطة.

لكن ماذا يريد مني؟ لماذا أتى إلى لبنان؟ لماذا هو بالذات؟ فجأة رأيته أمام مدخل المبنى الجامعي في لحظة خروجي من الباب الرئيسي مع زملاء لي. ابتسم وهو يسألني: "لوين رح تهربي مني!" قال متهكّماً انه يحب الشعر وكان في زيارة لشاعر يقطن قريباً من هناك. ضابط مخابرات يتذوّق الشعر، وشاعر يصادق ضابط مخابرات! سوريالية البؤس الذي بات واقعاً، فكرتُ فيما ركضت نازلة على الدرج لأصل إلى الشارع. منذ ذلك اليوم ابتدأ خوفي منه. قبل ذلك لم أخف. ربما لأنني لم أر سابقاً هذا العدد الهائل من الجنود والحواجز في بيروت وعلى مداخلها الرئيسية.

هذا المساء قال لي كمال على الهاتف: "لقد دخلوا لبنان ولن يتركوه لوقت طويل".

***

...١٩٧٨

(...)

ثم كتب كمال لي أنه سيكون لنا بيتان في تركيا: بيت صغيرٌ قرب البحر في إزمير وبيت ثانٍ في اسطنبول. لم يذكر كمال بيتي هنا في بيروت. لا أريد ترك بيروت. هي بيتي، فيها أشعر أنني غير مرئية.

أرى بيوتاً كثيرة لي لكن أشعر أن بيتي الحقيقي هو حيث لا أكون.

أجبته.

***

لا يوجد أيّ لحظة تاريخية في تاريخنا التعيس، أفكر. لا يوجد شيء. كل ما سُمّي في كتب التاريخ والذي يتغيّر مع كل انقلاب، أنه "تاريخي"، هو فقاعات من الكذب. كثير من احتقار الذات والأذى والخراب. فقاعات كذب تتوالد وتكبر، وتكبر معها كلماتٌ تُعمي العين فلا يعود بمقدور الكثير رؤية الخراب. حين تمّ الاستيلاء على السلطة في سوريا، استُبدلتْ صور الاستبداد الماضي بصور استبداد جديد. تحوّل الحاضر إلى زعيم أوحد. لا أحد من الناس يفكّر بهذا الاحتقار الذي يُعامَل به كل يوم. تاريخ يتكرّر في كلّ بلد عربي.

***

تقلقني صباح حين تكون في حالة الكآبة القصوى. تصمت وتتوقف عن الطعام طوال اليوم. وحين تجوع تأكل ورق الصعتر الأخضر،

وبالأمس وضعت حبّ الهال في فمها ولم تتناول شيئاً. اليوم توقّفَت فجأة عن قراءة الجمل التي كتبتها لها لتسألني أن كنت أحب كمال. فاجأني سؤالها. فكرت أنني رغم مرور كل ذلك الوقت ما زلت سجينة مأساة العائلة في سوريا. انتحار أختي وهربي، نعم ما زلت أسميه هرباً رغم أنه شكلياً أخذ أسماء أخرى كالسفر من أجل العمل في صحافة أكثر حرية، أو دراسة الأدب الانكليزي. لكنه هرب في النهاية وعدم قدرة على مواجهة الشر الكبير الذي دغدغ مشاعر العائلة وسبحت فيه بسعادة. كأنّ موت اختي كان بلا معنى، أو استعداداً لموت آخر، كشحذ شفرة سكين من أجل جولة شرٍّ أخرى.

كان مهما أن أنشر قصة انتحارها بعد أن كتبتُها منذ سنوات وأبقيتُها بين أوراقي. في القصة وضعت مقاطع عدّة من رسالتها. شجّعني كمال على نشرها. كسر خوفي حين قال لي "أنظري إلى نفسك! صمتك سمّ يقتلك ببطء... تكلمي!".

لكن لماذا فكّرت بكل ذلك الآن، فيما كان سؤال صباح عن حبي لكمال...

قلت لها إن الحب هو أن أكون فيه دائماً مستعدة للرحيل.

سألتني مرة أخرى وهي تنطق كلماتها ببطء وجديّة كأنها تطلب مني أن أتوقف قليلاً عن "التفلسف" كما تقول، وأن أجيب مباشرة وببساطة.

فكرتُ في لقاءاتنا كمال وأنا، وفي زياراته المتكررة لبيروت. يأتي ثم يغيب ثم يأتي.

تلك الأرجوحة المترددة بين الشوق واللقاء، بين الانتظار

والوصل. وصل يعقبه فراغ يشبه الموت الصغير.
"أحبه نعم... لكن في الوقت نفسه كلي استعداد للفراق".
نظرت إليّ صباح بشرودها الذي اعتدت عليه، بدا أنها تستعيد كلماتي وتحاول تأطيرها ضمن تجربة ما عاشتها. ثم قالت جملتها التي لا تتخلى عنها أبداً:
"ايه... الحياة فراق وفقدان".
ثم أخذت نفساً عميقاً من سيكارتها كأنها مصدرها الوحيد من الهواء.

***

بالأمس سألت كمال إن كان هنالك جوامع في تركيا تحمل اسم أتاتورك، استهجن السؤال وغرق في ضحك طويل وقال "لا بالطبع!" أضاف أنّ هذا السؤال لم يخطر على بال أحد في تركيا من قبل. اتصل بتيمور وأخبره، فوعده الأخير بكتابة مقال عن ذلك!

***

إنها تمطر منذ أيام في بيروت، أحياناً مع القليل من أشعة الشمس، تشرق للحظات ثم تغيب، الطقس غائم ومصقع، منذ وقت طويل لم ير الناس طقساً مشابهاً كهذا، وهو مفاجئ لهم، خاصة في القرى التي لا ترتفع كثيراً عن سطح البحر والتي بطبيعتها معتدلة. هناك فرح الأولاد لأنها أثلجت. لم يروا الثلج سابقاً. أحلم بزيارة

رمّانة، قرية أمي في سوريا حيث كانت تقيم جدتي. لكن كيف بعد كل ما حصل؟

***

شباط ١٩٧٨

أندم على لحظات الانفعال أثناء نقاشنا، ونحن معاً. غضبي مرتبطٌ بذكريات لا علاقة لكمال بها. لا علاقة لحبنا بها. فقط إشارات سلبية تجتمع الواحدة بعد الأخرى وتثقل على قلبي وتجعلني أفهم بطريقة خاطئة ما يود قوله. هي إشارات لها علاقة بسلطة الرجل. أعلم أنه أحياناً يتدخّل في حياتي وعملي لا لسببٍ سوى لشدة حبه، لكن هذا يقلقني، الحب القريب جداً يقلقني ولا يشعرني بالراحة. أحتاج إلى كثير من الوقت كي أفهم أن علاقة حبنا قد تكون مختلفة عن علاقتي مع سهيل، وهي بعيدة عن رغبة سيطرة الرجل وتملّكه. سأقول له حين نلتقي إن توتّري الذي شهده أحياناً وهو هنا، مردّه أنني عارية أمامه، عارية ليس فقط بجسدي ولكن بمشاعري ومخاوفي وقلقي. سأطلب منه أن يقبل عريي، وأن يكون صبوراً، كما أحاول بدوري أن أقبل خوفه اللّاعقلاني من أن يفقدني وغيرته التي أحياناً لا تُحتمل.

(...)

***

بعد ظهر أحد عادي. بيروت هادئة. لكنني رغم ذلك أشعر أن الموت يقترب. نقضي الوقت بالتحايل على الموت. ثم بعد حين نبدأ بتعداد خساراتنا. رغم ذلك سأدخل المطبخ وأحضّر حساءً طيباً للعشاء.

لم أجد طحينة لتحضير متبّل الباذنجان. لم أجد عند صباح أيضاً. فكّرت "لِمَ لا أستعمل السمسم، أي مادته الأولى. أوَليست الطحينة مستخرجة من السمسم؟" قلت لنفسي مشجعة.

طحنت ٥ ملاعق كبيرة بمطحنة البن الموضوعة على الرف العالي والتي لم أستعملها منذ زمن، ثم أضفت بضع نقاط من الماء. كانت طيّبة.

***

آذار ١٩٧٨

اليوم زارني تيمور ومعه رسالة وكتاب هدية من كمال. أخبرني عن رحلتهما إلى أنقره، عن الناس وعن الرفاق هناك، لكن تيمور لا يستطيع أن يروي الحكاية كما يرويها كمال. هو موضوعي ويركز أكثر على مشاهدات عينيه أما كمال فيعيد تأليف العالم كله حين يروي لي قصصه، يركز على تلك الأشياء الصغيرة التي تصنع الحياة. رحل تيمور بعد أن سلمته رسالتي. كتبت فيها أنني أريد من كمال أن يحكي لي كل شيء حين نلتقي، إذ لا أرتوي من حكايات تيمور أبداً.

كتبت الرسالة وأنا مستلقية على الفراش. كنت أنظر إلى بطني، وأشعر به أكثر استدارة اليوم. كنت عارية حين كتبت له. لا أريد أن يحجبني عنه أيّ شيء. يكفي أنه بعيد وأن الكلمة هي الوحيدة التي توصلني به. يكفي أنها بيننا ولا بد من ذلك. أحب جسدي حين أكتب له عارية. أفكر كم هو مرتبط به، بمعنى ما مرتبط به وحده. غريب كيف أنني لم أعد أفكر بأيّ شخص آخر منذ أن بدأ بطني يكبر. كأن طفلنا الذي ينمو في داخلي يأخذ ليس فقط غذائي ولكن أيضاً تهويماتي الجنسية ويبتلعها. يلتهم أفكاري ودمي ومائي.

طفلي هو كمال بطريقة ما.

صنعت من الغرفة مكاناً جميلاً لي ولابني حين يولد. أذكر جدتي شاهاني الآن. كل ما جرى في حياتها كان يوحي بالتعاسة، فقَدَت جدي الذي سافر إلى فلسطين ليقاتل الانكليز ومات هناك عام ١٩٤٠ ووجدت نفسها وحيدة ومسؤولة عن طفلين: أمي وخالي. كانت حياة شاقة، لكنها نجحت في خلق عالم موازٍ لم يستطع أحدٌ أن ينتزعه منها. بقي داخلها ينضب حتى في لحظات موتها. قالت لي: "نورا، الأمكنة التي تقيمين فيها مرايا لك، أينما ذهبتِ اجعلي المكان مكانكِ، وحافظي على إشراقة الروح".

***

مع كل كلمة أكتبها أريد كمال أن يقرأها حين يزور بيروت. هناك

محاولة للذهاب أعمق في الكتابة، إلى الأكثر حرية. إنه تحدٍّ أن أكتب بحرية وهو في رأسي ولا أخاف أن يسيء فهم أيّ جملة أكتبها. بل حتى لو أساء فهمي، هناك مساحة كبيرة للنقاش. هذا أكثر ما جذبني إلى كمال، تلك المساحة المفتوحة للتحدث دون محاولة تدوير الكلام وجعله محايداً غير مسنّن.

تثيرني فكرة أنه سيقرأ كلّ ما أكتب. ثمة أمرٌ يشبه تبادل العري. رغبة عري خاص معه. أغريه وهو بعيد، أغريه بما أكتب له. أمر مثير يقوى معه نبض الرغبة ويرتفع. ما أكتبه سيصير تحت عينيه، بما في ذلك حين أكتب وأنا في حالة من تلك الحالات اليائسة التي تصيبني منذ موت أختي. وهو يعلم أنه في كتابة اليأس نرغب في البقاء بعيداً عن العيون. لكن ها أنا عارية أمامه، عارية بقلمي وورقتي. أرغب في أن أكون بلورة تعكس بشفافيتها أضواء فريدة، تمتص العالم الخارجي وتعكسه بما لا يشبه إلا شكلها هي. حتماً سيرى هالتي حين يقرأ. سيكون تحت قوسها وسيشعر بها.

***

أكتب هنا وسيقرأ أنني خائفة من السفر معه إلى تركيا وأن اختلاف اللغة يخيفني. فكرة أن أكون في مكان لا أفهم لغة ناسه تشعرني بالقلق. اللغة الثالثة تبدو لي محطة، ولا أستطيع أن أراها واقعاً دائماً. ثم هناك ما تقوم اللغة الثالثة بمحوه في ما بيننا، ومن الصعب أن يصل كاملاً، وأحياناً ينمو جبل من سوء التفاهم بسبب لغة علينا

أن نفكر طويلاً بكلماتها قبل التفوه بها. هو يعلم بما أشعر، ويعلم أيضاً أن تبادل الحديث باللغة الانكليزية مع الناس لا يكفيني. يعلم أيضا أنه لا يكفيني أن أتعلم كيفية الاتصال لطلب تاكسي أو التبضع. أريد سماع الأخبار وقراءة الجرائد وكتب الأدب والسياسة بلغته هو. أريد أن أفهم ما يُكتب باستمرار، وإلّا سنبقى في عالمَين مختلفَين نتواصل عبر لغة ليست لنا. ثم بأي لغة سنتحدّث مع ابنتنا التي ستولد قريباً؟

نيسان ١٩٧٨

أحتاج إلى عمرٍ بأكمله، وإلى عمرٍ آخر ربما، كي أفهم لماذا كل هذا العنف.

اليوم في العمل قالت إحدى الصحافيات التي وصلت حديثاً من لندن إن الحرب الأهلية في لبنان هي تعبير سلبي عن العلاقة الحميمة بين الطوائف اللبنانية، التي يستحيل التخلص منها. تدخّل هاني زميلي ضاحكاً: إذاً الكره هو أقصى درجات الإعجاب، وأقصى درجات الإعجاب هو القصف والقصف المتبادل، أليس كذلك؟

حديثهما الذي بدا من بعيد سطحياً وغير منطقي جعلني أفكر في الجرائم التي ارتكبها اللبنانيون بعضهم ضدّ بعض، وخاصة تلك التي كان فيها للضحية وللقاتل علاقات جيرة سُميّت بالحسنة. لا أفهم كيف في لحظة ما، يقوم أصحاب تلك العلاقة الحسنة بتبادل

هدايا الكره بشغف قاتل دون حدود.

***

أيار ١٩٧٨

أتفرج على الصور التي أخذناها معاً على البحر ونحن نضحك. إنها جميلة ومليئة بالحب وبمزاج رائق إلى حدٍّ كبير. مساء أمس وبعد ترك كمال بيروت الى اسطنبول، مرّ وقت لم أعد أعرف ماذا أفعل خلاله. لم أستطع النوم ولا الاستيقاظ. شعور بالفراغ احتلّ وجداني، وأخذ مني جهداً لأستردّ نفسي. أتى اتصاله في وقت احتجت لسماع صوته. الهاتف في بيروت يعمل بشكل عادي دون انقطاع. أمر بات نادراً منذ بداية الحرب. سماعي لصوته كلمسه، كأني أيضاً أشمُّ رائحته.

نمت قليلاً بعد الظهر كي يتسنى لي السهر في المكتب خلال الليل. طلبت تغيير دوام عملي بعد أشهر قليلة، أي بعد ولادة طفلي. لم ألق رداً بعد. استيقظت بداية المساء وقرأت رسالة كمال الأخيرة. وصلتني ساعات بعد سفره. كتبها وبعثها لي قبل وصوله إلى بيروت. كأنني أستعيده بقراءتي لرسالة كتابتها سبقت وصوله. علّقت صباح بعد سفره أننا خلقنا لنكون معاً. أحبّته ليس لأنه من بلدها، بل لأنه أيقظ في روحها حنان الأصدقاء والدفء العائلي اللّذين فقدتهما منذ مجيئها إلى بيروت.

***

حزيران ١٩٧٨

اتفقت مع صباح أن تزوروني كل يوم بعد ولادة طفلي. هي الوحيدة التي أثق بها هنا. تعرف الاعتناء بالأطفال جيداً رغم أن لا أطفال لديها.

في ماردين كانت تساعد أمها على الاهتمام بشقيقها محي الدين وهو طفل. تحضر طعامه وتغسله رغم فارق السن الضئيل بينهما. الفتيات يكبرن بسرعة، يصبحن نساء في سن مبكرة ويحملن مسؤولية بيت وطفل. صارت تأتيني كل مساء منذ أن بدأتُ تعليمها القراءة والكتابة. تجلس قربي على الكنبة فيما أتابع الكتابة. أتركها تنقل الكلمات إلى الدفتر، تحاول القراءة وتؤلف جملاً. بالطبع أول جملة أرادت تعلّم كتابتها كانت "الحياة فراق وفقدان"، وحين رأت جملتها الشهيرة أمامها ضحكت من كل قلبها حتى دمعت. بدت كمن وجدت حبيباً غائباً بين ذراعيها.

***

أتت صباح صغيرة إلى بيروت. لم يمر وقت طويل قبل أن تبدأ الحرب. ربما بسنوات قليلة فقط، إذ لا تحسن تحديد التاريخ. بَقيتْ هذه المدينة جميلة رغم ذلك. "لكنها ليست مثل اسطنبول". تقول صباح. كأن بيروت حيّ من أحياء اسطنبول. اسطنبول التي زارتها لأربعة أيام فقط مع حبيبها أحمد الذي تركها وهاجر إلى ألمانيا. بقيت تحنّ اليه وتروح تبكي في شقتي. أطلب منها أن تترك كلّ شيء وترتاح قليلاً. أحضّر فنجانين من الشاي وأدعوها للجلوس. أفضل

طريقة لنسيان الرجل الذي هجرك هي أن تقنعي نفسك أنه مات.

أقول لها، فيما تمسح دموعها وتردّد: "أحمد الأول مات، مات... ثم ماذا عن الثاني هل سيعود؟".

تسألني، وحين تراني أحرك يديّ وأرفعهما وأقوم بلعبة اعتدناها معاً كما لو أنني سأبدأ بشجارٍ ما، حينها يتحول بكاؤها إلى همهمة ثم إلى ضحك لا تدري من أين يأتيها في لحظات كهذه رغم دموعها التي تلمع حول عينيها كنقاط نور.

أقول لها "إنسي... إنسي يا صباح... وإلا لن يجد أحمد الثالث طريقه إليك!" ونغرق معاً في ضحك متواصل.

"نحن بنات خالة". تقول لي أحياناً كأنها تريد إثبات صلة دم بيننا! "جدتك شاهاني من ماردين، من منطقتي يعني".

نحن مهاجرات، أقول في نفسي. مهاجرات غير مرئيات كالمدن التي يسكنها المهاجر، لا يراها بل يرى في كل زاوية منها ما يشبه مدينته وما يذكّره بها.

سنة وصول صباح إلى بيروت سكنت مع عائلة زوجها وعمتها لكن سرعان ما أصبحت الحياة لا تطاق بينهم، وانتقلت مع زوجها إلى مبنى الخندق الغميق بعد أن وجد عملاً كناطور للمبنى.

حين التقينا بدت وحيدة، تزورها من وقت لآخر صديقتها مريم، إلّا أنها رغم كل شيء بقيت صلبة. وكلما يعاودها البكاء تروح تردّد بصوت عال:

"مش رح تضعفي يا صباح، رح تضلي قوية". وحين كنت

مرةٍ في بيتها أتناول الطعام الذي أعدته خصيصا لنا نحن الاثنتين، دخلت عمّتها فوزية لتطلب منها العودة والسكن معها بعد أن أصبحتا وحيدتين. صارت تقول لها لا يجوز لامرأة السكن وحدها وإن أخاها (أي والد صباح) لا يكف عن الاتصال بشقيقته كي تنتقل ابنته للسكن مع عمتها. فقدت صباح صبرها ذلك النهار، وفتحت لعمتها الباب لتعود إلى بيتها داعيةً لها بطول العمر. "ماذا يضيرها أن أعيش لوحدي؟" تسألني صباح، "ومنذ متى يهتم بي أبي؟ لا يسأل عني إلا حين يحتاج إلى مال!".

ثم راحت تلعن الساعة التي فتحت لعمتها الباب.

***

كلما تدخل صباح شقتي تقف أمام بوستر غاغارين تتأمله وتغازله.

وحين أخبرتها قصته بكت وقالت إنها لا تحب أن تسمع قصصا عن الموت المبكّر. الموت المبكر الذي يلغي أي إمكانية لأيّ احتمال. إنه تماماً كاختفاء من نحب.

أليس الاختفاء بمعنى ما موتاً مبكراً؟ سألتني.

علقتُ بوستر غاغارين على جدار الصالة منذ أن أتيتُ به مسروقاً من مكتب صاحب الجريدة التي تصدر ولا توزع! بهت لون طلاء الحائط حول البوستر ومال إلى الاصفرار، كذلك تقشّر في بعض نواحيه. الرطوبة الممتدة على جدران شقتي التي تقع في الطابق الأخير من المبنى تركت على البوستر آثاراً متماوجة بين البني والرمادي. أصاب التلف الجزء العلوي من الصورة.

أكلت الرطوبة أطرافها القريبة من العينين ومقدمة الرأس. لكن رغم ذلك بقيت ابتسامة غاغارين توحي بنضارة اللحظة التي لا تعرف الزمن.

أنزلْتُه عن الحائط وحملته إلى صباح ذات مساء. قلت لها ضاحكة هذا الوسيم يريد أن يكون قريباً منك وأن تبقى ابتسامته تلاحقك. علّقيه على جدارك.

فرحت صباح بغاغارين واحتارت أين تعلقه. لم تشأ تعليقه في غرفة نومها قرب صورة زوجها المخطوف. فكّرت أنها لن تستطيع أن تقف وتبتسم أمام البوستر فيما عينا زوجها المخطوف تنظران إليها. راحت تفتش له عن مكان بعيد عن صورة الزوج، وأخيرا اهتدت إلى حائط الممر القصير الذي يصل غرفة النوم بالمطبخ.

هناك ستراه كلما مرّت في الذهاب والإياب، وسترد له الابتسامة بابتسامتين. صارت تخبر النساء في المبنى أن هذا الرجل قريب لها، وأنه قُتل في الحرب.

"ابتسامة غاغارين على جدار في الخندق الغميق"، قلت لها ضاحكة بعد حين، لكن صباح نظرت إليّ وبدت متعجبة من كلامي. ربما صدّقت نفسها أنه قريب لها. ربما يأتي يوم تخبرني فيه صباح قصة قريبها الذي في الصورة وموته في طائرة محترقة!

***

في رسائله الأخيرة، بدا كمال فاقداً لأي حيوية أو أمل. كتب في

أحداها "إنها الذكرى العاشرة لأيار ١٩٦٨ لم يبق منها شيء سوى الـ٦٩..." مشيراً بذلك الى المعنى الجنسي للرقم.

لا بد انه كان قد شرب كثيراً من الراكي قبل أن يكتب لي تلك الكلمات. لا بد أنّه كان يضحك ضحكته السوداء أيضاً، تلك التي اعتدت عليها والمليئة بالسخرية المؤلمة، والتي تنمّ عن مشاعر مضطرمة رمادية وتفتقد الفرح.

***

أنتظرُ كمال ولا أعلم متى سنلتقي. في رسالته الأخيرة قال إنه سيكون هنا في بداية تموز. لم أجد اسماً لجنيني بعد، سنجد اسماً حين يحضر كمال. أردت ابنة وحين أخبرني الطبيب أنني أحمل صبياً صرت أفكر بأسماء الصبيان، كنت أعلم انه لو كان بنتاً لكان شاهاني اسمها. شاهاني الاسم الذي لم تستطع جدتي حمله في حياتها. لكن الآن أفكر باسم كريم، وأريد كمال أن يشاركني الاختيار.

***

اتصل أخي عطا اليوم من هاتف عمومي وقال لي: "لا تأتي إلى دمشق! يريدون رأسك. أوّلهم شوقي الذي صرت أتمنى له الموت. هو المحرض. لفّق عنك أخباراً ولا أستبعد أنه بعث بتقارير أيضاً. اعتقلوا رفاقك. حازم وندى وهيثم أُرسلوا الى السجن. لا تأتي أبداً! سمع بالقصة القصيرة التي نشرتِها. نخاف من ردّ فعله حين تصله المجلة. خَرَبتِ لنا بيتنا. ليتك...".

لم أرد أن اسمع أكثر. قاطعته:

"لماذا يريدون رأسي، ألم يكفهم رأس أختي؟" قلت... ثم بكيت.

***

(١١)

أيلول ١٩٩٤

جلست مايا إلى جانب سارة التي كانت تقود السيارة ببطء. لم يكسر الصمت الصباحي أي كلام. الخروج في صباحات الآحاد هو أكثر ما تحبه مايا لخلو الشوارع من السيارات. راحت تنظر صامتة من النافذة وهالها كم تغيرت الطريق البحرية، فقدت الأراضي المحيطة بالطريق معظم أشجارها. تحولت التلال القريبة من البحر من غابات خضراء إلى هضاب من الركام الإسمنتي.

منذ عودتها إلى بيروت لم يتسنّ لها أن ترى سارة كما ينبغي ولا أن تقضي نهاية أسبوع معها ومع شادي الذي أراد الذهاب إلى البحر. هي أيضاً، شعرت بحاجة كبيرة للانقطاع عن العائلة وعن الزيارة الأسبوعية لبيت ندى لتناول الغداء معهم. منذ عودتها إلى لبنان ودخول زياد المستشفى، ثم رحيله لم تقض يوماً متخفّفاً كهذا اليوم. تلك العودة التي أشعرتها بضياع أكبر بكثير من شعورها بالضياع وهي في باريس.

على طريق الساحل البحري كان عليهم المرور بحواجز عسكرية عدة قبل الوصول إلى شاطئ صور الرملي. استدارت مايا نحو المقعد الخلفي حيث يجلس شادي وشعرت برغبة في معانقته ولمسه حين رأته قد عاد إلى النوم كملاك. أيقظته باكراً هذا الصباح. أمسكت بيده وشعرت بدفء في قلبها. يده الصغيرة تشعرها بأمان تفتقده من حين لآخر. استدارت إلى الامام وأغمضت عينيها هي الأخرى. استعادت لحظات استيقاظها الباكر ومنظر الغيوم الصباحية التي طردتها اولى اشعاعات الشمس ودفعتها بعيداً عن الأفق. سعادة خجولة غمرت كيانها.

"مكاني هنا" قالت وهي تشير بيدها من نافذة السيارة نحو الشاطئ. سألها شادي متعجباً إذاً ولدت هنا، حرّكت رأسها بالنفي وهي تقول إننا نستطيع أن نُغرم بمكان لا صلة عائلية سابقة لنا معه. نغرم بمكان ويصبح مكاننا. نعقد معه صداقة للحياة لا تحتاج إلى تبرير. أوقفت سارة السيارة قريبا من مدخل المسبح. تنتشر الخيم الصغيرة على الشاطئ الرملي. أغاني فيروز الصباحية تصدح وحيدة في المكان. إنه آخر الصيف والناس بدأوا ينقطعون عن زيارة الشاطئ. اختارت سارة خيمة وجدتها بعيدة ولو قليلاً عن الخيم القليلة المنصوبة ثم طلبت من الشاب الذي يعمل هناك نقل طاولة وكراسٍ إلى أقرب مكان ممكن من البحر. يبدو أننا وصلنا باكراً، ولم تتجاوز الساعة العاشرة صباحا قالت مايا وهي تطلق أصوات فرح طفيف. يسهل رؤية الأفق حين يخلو الشاطئ من روّاده.

في المرات القليلة التي زارت ساره باريس والتقت بمايا بدت

صداقتهما وكأن الزمن والابتعاد لا يؤثران فيها. بمجرد أن تلتقي الواحدة الأخرى يحضر الحديث ويجري كما لو أنهما افترقتا بالأمس. هناك الكثير لقوله. هناك الغوص الذي يأتي بعفوية ويروح يحفر في تعرية الذات والتعبير عن مكنوناتها. الكلمة تتبع الأخرى، وهنا على البحر لا بد من البيرة أولاً كي يكتمل الكلام.

أخبرت مايا سارة عما وجدته في يوميات نورا وعن لقائها بصباح وعمّا أخبرتها حول مقتل نورا وطفلها في انفجار عام ١٩٧٨، وعن رسائل كمال التي جعلتها تشعر أنها مرتبطة بذلك الرجل على نحو ما ولا تعلم كيف.

"ثمة أمر يربطني بنورا أيضا". قالت مايا وتابعت:

"ذلك الموت الذي لم يترك لها الوقت لإنهاء ما أرادت كتابته. لم أجد سوى دفاتر مليئة بيومياتها. ثم أليس غريباً أن أشعر وأنا أقرأ يوميات امرأةٍ أنّ ثمة صلة تربطني بها؟ صلة ما، لا أدري ما هي. لكن لماذا لم أرَ أيّ صورة لها حتى الآن وسط عشرات الصور التي وجدتها؟ أحاول مع كل صفحة من يومياتها تخيّل شكلها، وجهها، ومع كل رسالة حب من كمال رسم صورة لجسدها، شعرها، عينيها. إلّا أنني أفشل في ذلك".

كانت سارة تصغي باهتمام، ثم سألت كأنها تعيد مايا إلى أرض الواقع:

– "وماذا بعد الفيلم؟ كيف ستعيشين؟ ندى معها حق. فكّري قليلاً بالوضع، يجب إيجاد عمل ثابت لك".

– "لديّ مواد كافية لإكمال كتاب أسمهان. تفتنني قصص

وحيوات الناس الضائعة. هؤلاء الذين ماتوا بطريقة غامضة".

فكرت مايا بيوميّات نورا وبكل ما جمعته أو كتبته تلك المرأة عن رائد الفضاء يوري غاغارين، "ثم لا أتوقف عن التفكير أن يوري غاغارين وأسمهان لو بقيا على قيد الحياة ربما كانا التقيا وربما أصبحا أهم عاشقين في التاريخ رغم فارق السن بينهما. ليته تحقّق هذا اللقاء!".

ضحكت سارة وقالت:

"لم تتغيري... لم يغيّرك السفر! ما زال خيالك متّقداً والحمد لله. الكتابة عن حيوات الناس الغامضة التي لا يعرفها أحد هي حلمك، أعلم ذلك، لكن أتحدث الآن عن العمل، عن المدخول، عن حياة شادي ومدرسته واحتياجاته!".

"أعلم جيدا أنّ ما سأقوم به لن يسمّى عملاً من ناحية المدخول المادي لكن هذا شغفي. سأجد عملا موازياً بالطبع. أهتم بحيوات الناس من أي مكان أتوا وإلى أي طبقة اجتماعية انتموا. إنّ الحفر في أعماق النفس البشرية يوصلنا إلى المكان نفسه، إلى الخوف والوحدة نفسيهما".

مايا وسارة تكملان بعضهما. كلما تركت مايا لخيالها أن يوهمها أن ما تحلم به واقع، تأتي سارة وتعيدها إلى الأرض عبر أسئلة متلاحقة تبدو لمايا كأنها هزّات رقيقة لها كي تستفيق.

– "أتذكرين حين أتيتك ببوستر أسمهان هدية بمناسبة ميلادك؟ كان هذا قبيل سفرك إلى فرنسا. لم أكن أعلم أن شغفك سيذهب أبعد من تعليق بوستر على جدار!".

- "بالطبع أذكر... ما زال معلقا في غرفتي القديمة".
- "لماذا اسمهان بالذات؟ من سيقرأ كتاباً كهذا؟ من سيشتريه؟"
- "لا أعلم. لم أفكر بهذا الأمر. لا أفكر بهذه الطريقة. إنه شغفي. لا أعلم إلى ماذا أصل. أحياناً أرى ما أكتب كأنه رواية وليس سيرة. أنت تفهمين هذا الشغف سارة! لديك شغفك أنت أيضاً، تركت كل شيء لتتفرغي لافتتاح مكتبة، تقدم الطعام الخفيف والمشروب أيضاً وتعلمين سلفاً أنك لن تربحي من مشروعك! من سيدخل مكتبة لشرب فنجان قهوة أو شاي أو لاحتساء كأس؟ لكن لندع كل ذلك الآن ونعود إلى أسمهان. أتعلمين أنها انجبت ابنة وحيدة، لكنهم أخذوها عنوة منها؟ أتساءل ماذا شعرَت حينها. منعوا عنها حق التمتع بالأمومة. كأن الأمومة والفن الحر لا يلتقيان. ربما هي أيضا صدّقت أن لا حق لها بابنتها. سيكون هذا موضوع الفصل الثاني من الكتاب".
- "من الصعب الكتابة عن سيرة ما وفي الوقت نفسه تسمين ما تكتبينه رواية... أليس كذلك؟" سألتها سارة.
- "ربما ما أقوم به سيؤدي بي إلى كتابة سيرة ثم رواية. لا أعلم. إنها تجربتي الأولى. سأذهب بها إلى أقصاها. سنرى معاً. وثمة أمر يحيّرني الآن... كلما اقرأ مزيداً من يوميات نورا أشعر بطريقة ما أن كثيراً من الأمور مشتركة بيننا. هناك أواصر تتكشّف كلما أغوص أكثر في صفحات يومياتها. أن تكتب ضد الموت عبر قصة أختها. ثم أن تكتب عن يوري غاغارين. إنه لشغف غريب بعض الشيء. لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل الآن. كأنها فتحت لي أفقاً، ووجدت أن هذا

الأفق متصل على نحو ما بحياتي. لا تسأليني كيف. إنه شعور غامض. الكتابة عن حيوات مبتورة بسبب القهر. ثم غاغارين وأسمهان... أليس أمراً غريباً؟ الاثنان ماتا في ظروف غامضة، وفي حادث مفجع. الاثنان سطعا أوسع من محيطهما وأكثر مما هو مسموح لهما. في صوت أسمهان وابتسامة غاغارين زمن كامل من الحياة والموت. كلما أكتب عن أسمهان أشعر بحزن ما. هل بسبب حياتها أم الكتابة نفسها تشعرني بذلك؟ معها حق نورا حين كتبت في يومياتها أن الكتابة تبدأ من اليأس، وأن اليأس هو بوصلة الكتابة."

قرِأت مايا كلّ شيء تقريبا عن أسمهان، وبدأت تجمع كل ما نشر حولها وخاصة الفترة التي عملت فيها مع المخرج الفرنسي برونو الذي طلب منها إجراء بحث عن القاهرة في النصف الأول من القرن العشرين. وحين بدأت بقراءة يوميات نورا اكتشفت أن عائلة تلك المرأة المجهولة التي لم تر أي صورة لها، من بلدة ليست بعيدة عن المكان الذي قضت فيه أسمهان سنوات طفولتها الأولى. إنهما من ثقافة ومنطقة جغرافية واحدة، فكرت مايا حينها.

تذكر مايا صوت أسمهان يرتفع في البيت في أغنية "يا طيور" بينما يجلس والدها مسنداً رأسه على حافة الكنبة العالية يغمض عينيه ويستمع. كانت عايدة تحب صوت أسمهان أيضاً إلّا أنها لم تجلس ولم تسترخِ على الكنبة وتعِش كزوجها متعة الاستماع وهي مغمضة العينين. كانت تتحرك بين صالة الجلوس والمطبخ كمكوك. كانت مايا تشعر أن أمها لم ترغب ولا مرة أن ترى والدها مستسلماً هكذا لصوت امرأة، متخلياً عن قساوة نظراته وهو يستمع بكل دواخله.

نظرات قاسية أصبحت علامة فارقة في وجهه لم تنجح عايدة طوال سنوات حياتهما معاً في جعلها طريّة وأكثر حلماً. يستمع الأب وتشعر مايا حينها أن صوت أسمهان يدجّن أباها ويجعله أكثر قرباً منها. ثم يصل صديق له ويجلس قريباً منه ويصغي هو الآخر. استطاعت نساء العائلة بسلوكهن وكلامهن أن يفصلن بين حياة أسمهان وصوتها. ثمة جدار عازل بُني منذ الصغر. نسمع أسمهان، هذا صحيح، لكن ممنوع الكلام عنها. الكلام عنها وإن حصل يجب أن يكون في خانة التحسّر عليها، على أخلاقها الضائعة، على أمومتها الناقصة، وعلى أخطائها الجسيمة التي بنظرهن شوّهت صورتها وأدّت بها نحو الهلاك.

في باريس، وقبل أن تنتقل إلى بيروت، أنهت مايا كتابة الفصل الأول من "أسمهان". هو عنوان موقّت إذ لم تجد عنواناً نهائياً بعد. يصعب عليها الكتابة دون عنوان مسبق. المواد التي جمعتها كثيفة وبعضها يناقض ما قرأته سابقاً.

من الصعب الجزم في كتابة تاريخ الأشخاص ولا حتى في كتابة تاريخ الجماعات. الحقيقة تبدو أمراً فرضيّاً، وقد يكتشف الكاتب يوماً أن ثمة مراجع غير صحيحة لأنها استندت بالأساس إلى مصدر لم يهتم مؤلفه بالبحث الجدي بقدر اهتمامه بتلميع صورته الشخصية أمام التاريخ. تتساءل مايا إن كانت شخصية اسمهان قد شُوّهت في مقالات نُشرتْ بعد موتها. لا تعلم، وأسمهان ما عادت موجودة كي تصحّح أي خطأ وَرَد أو تدافع عن نفسها. كل ما تعرفه مايا أن تلك المقالات المنشورة غدت المادة الأساسية التي اعتمد عليها لاحقاً

وبشكل أساسي مؤلفو الكتب حول حياة وموت الفنانة. التاريخ أحيانا يغدو كذبة وعلينا حينها، لمواجهة الكذبة، أن نبدأ من الصفر في التفتيش وفي إعادة الكتابة.

"عليّ ترتيب كل تلك المواد التي حملتها معي إلى بيروت والتي تتراكم كل يوم على طاولتي. لا أستطيع فعل شيء الآن". تقول مايا لسارة وتتابع:

"عليّ الانتهاء من الفيلم أولا، ثم التفرّغ للكتابة عن امرأة قتلت في سن التاسعة والعشرين. بعضهم يقول في السابعة والعشرين... ثم ذلك الكتاب الذي كان بين يديها لحظة غرقها وموتها... ماذا كانت تقرأ يا ترى؟ لم تذكر الصحافة عنوانه. ذكرت فقط وجوده على حضنها وهي في فستانها الأصفر".

قالت مايا وهي تتمدّد على الرمل الفاتر، فيما بقيت ساره على الكرسي الطويل وبدأت تقرأ في يوميات نورا.

كان شادي يلهو قربهما ويحدّث نفسه، وتعمّدت مايا البقاء قريبة من الشاطئ كي يستطيع ابنها اللعب بمياه البحر. بدأ ببناء قلعة رملية كبيرة. كان يغرف مياه الموج بسطل بلاستيكي ويصنع حول القلعة سورا مائياً واسعاً. ثم بدأ يغطّي مايا تماماً بالرمل. وحين سألته سارة ماذا يفعل قال إنه يريد أن يحمي أمه من حرارة الشمس.

أغمضت مايا عينيها وتركته يلهو بالرمل ويرفعه على جسدها. لامس جوابه قلبها وفكرت بزياد. القلب يتذكر، رغم أن الجسد اعتاد الفراق.

وخزٌ في الظهر عاودها. ألم مزمن نسيته كما نسيت جسدها.

فكرت حينها أنّ آلام ظهرها ورقبتها هي آلام عائلية ورثتها عن أمها، وأمها ورثتها عن الجدة، ربما ينجح الرمل الساخن في إزالة آلام الجسد. قالت لسارة.

صوت حركة الموج التي لا تنتهي يقوى ثم يخبو. جسدها دافئ تحت الرمل الذي سخّنته أشعة الشمس. شعور بالاكتفاء غمرها وفكرت أن الحياة قد تكون لطيفة معها هنا في بيروت. لكن سرعان ما طردت تلك الفكرة من رأسها حين داهمها فجأة خوف من أن تأخذ عائلة زياد شادي منها بعد بلوغه السابعة.

كأن سارة في تلك اللحظة كانت تقرأ خوف صديقتها. أغلقت دفتر اليوميات الذي بين يديها وسألتها:

"هل تتصلين بعائلة زياد؟ هل يزورون شادي؟".

"أتى عمه وعمته مرتين إلى بيروت. ثم لم أسمع من العائلة بعد ذلك. سأقوم بزيارتهم حين يتسنى لي الوقت".

نظرت إليها سارة كأنها تقول لها إنها تكذب وإنها لن تزور عائلة زياد لأنها خائفة، خوفها يمنعها.

تغمض مايا عينيها ثانية. تقترب الموجة ثم تنحسر، فيما يستمر شادي بتغطية الجزء الأعلى من جسدها. لا بد أنها غفت للحظات. صارت ترى غيوماً نارية كثيفة تمر. رأت قطار الأنفاق الذي استقلته في اليوم الذي سبق عودتهم إلى بيروت، ذلك الرجل الذي رمى بنفسه تحته، ثم أصوات الناس وصفّارات الانذار وتوقّف القطار. صارت مايا حينها تركض في كل اتجاه كأنها تدور على نفسها وهي تصرخ.

تتلوّن الغيوم داخل شاشة عينيها. أحمر قانٍ يغطّي المساحة، لكن

سرعان ما يغيب ويحلّ مكانه لون أزرق لسماء صيفية، وأحياناً أخرى يصبح رمادياً غامقاً، ليغدو في النهاية شفافاً كالدخان الذي كان ينفثه زياد، ويتنفسه الثلاثة في شقتهم الصغيرة في باريس، أمام منفضة مليئة بأعقاب السجائر وقرب زجاجة نبيذ. كان عليها كل مساء تنظيف المكان كي يصبح لائقاً لنوم الطفل. تكرر، دون طائل، طلبها من زياد التوقف عن التدخين في الشقة، ثم تركن إلى زاويتها الصغيرة حيث وضعت طاولة وضوءا لتنجز الفصل الأول من كتاب أسمهان، قبل أن تسمع زياد يطلب منها محتجّاً إطفاء النور.

نامت ورأت نفسها على الأرجوحة في حديقة بيت أهلها الصيفي. شقيقها نديم واقف خلفها، يدفع بالأرجوحة كما طلبت منه. وكلما ترتفع بها الأرجوحة تقول له "أكثر... اكثر... مش قوية كفاية، مش عالية كفاية مش سريعة كفاية... بعد أكتر، أكتر". لكن الأرجوحة بقيت قريبة من الأرض.

اقترب شادي وتمدّد قربها ثم قرّب وجهه من وجهها وقبّلها. فتحت عينيها ونظرت اليه مبتسمة. له عينا زياد، إلّا أن لون بشرته حنطي كبشرتها كذلك شعره.

تركت دمعة صغيرة تجتاز حافة العين وتبلّل خدها. شعرت كما لو أن قبلته تغسل روحها من ألم عالق منذ زمن. بدأ جسدها بالتراخي. منذ عودتهم إلى بيروت، هذه المرة الاولى التي يقترب شادي منها من تلقاء نفسه دون إلحاح ليقبّلها. لم يسمح لها أن تحضنه كما تحب منذ عودتهم. كان يبكي في فراشه، لم يكن بكاءً بل شيء يشبه الأنين كأن وجعاً ما يوقظه، لا يلبث أن يخف. تسرع من غرفتها إلى غرفته،

تقترب من فراشه وتجلس على حافة السرير وتروح تربت على كتفه وتمسح رأسه كي يهدأ وينام، ثم تعود إلى غرفتها لتنام هي أيضا.

تحاشت النوم قربه، رغم أنها كانت ترغب في ذلك، ودائماً منعتها ثقافة بلهاء نشأت عليها أنه لا يجوز تعلّق الولد بأمه، جرّاء غياب الأب. كم مرة سمعت قصصاً عمن يسمونه "ابن امه" أو "مَربى نسوان". تردّدت أيضا في نقله إلى فراشها كأنها بذلك تحمي وهم رجولة ما في لاوعيها. ذكورية تعيد المرأة تكريسها بحماقة كل مرة، مع كل صبي يولد لها، فكّرت مايا.

أحياناً أخرى كانت تمنع نفسها من نقله إلى سريرها بمجرد التفكير أن الجهة اليسرى كانت لزياد، وهي فارغة الآن، ولا تريد ملء هذا الفراغ بابنها.

في طريق العودة قالت مايا لسارة إنها ترغب بقوة أن تتعرف إلى كمال وأنها لا تعلم إن كانت ستجده. أخبرتها أنها في زيارتها الأخيرة لصباح سألتها عن عنوانه وأن صباح أعطتها مغلفاً صغيراً كانت قد احتفظت به مع صور زوجها المخطوف، كتب عليه كمال بخط يده عنوانه ورقم هاتفه. اتصلت مايا مراراً على الرقم الهاتفي، لكن لم يرد أحد، وهي الآن تفكر بوضع الرسائل واليوميات في مغلف كبير وإرسالها اليه.

لكن مشاعر مايا كانت أكثر تعقيداً، ممّا جعلها لا تستقر على رأي. ترى أن من حق ذلك الرجل الذي لم تلتقه من قبل أن يقرأ يوميات المرأة التي أحب والتي فَقَد. لكن في مكان ما في أعماقها كانت تخاف القيام بهذه الخطوة.

"ماذا لو تسلّم المغلف ولم يأت إلى بيروت للقائي كما أتمنى؟ ماذا لو بنى حياة أخرى بعد كل تلك السنوات وما عاد الموضوع يهمه؟ ماذا لو تسلّم المغلف أحد غيره من أفراد عائلته ورماه في أقرب سلة مهملات؟"

كانت سارة تصغي لأسئلة مايا وهي تقود سيّارتها ببطء على طريق العودة الى بيروت.

أكثر ما تريده مايا هو أن تلتقي كمال، أن تتعرف اليه، أن ترى عينيه، وترى اليد التي كتب بها رسائله الناضحة بالحب. تريد أن تسمع صوته بعد أن قرأت في يوميات نورا أن صوته يشبه لمْسَه لها. وصف عشقيٌّ ارتجف له قلب مايا.

"تريدين أن تتعرفي اليه؟ إذاً لماذا تريدين إرسال الرسائل واليوميّات إليه؟ اكتبي له رسالة! اطلبي منه لقاءً في بيروت! أنت تعلمين ماذا تريدين، صح؟"

هزّت مايا رأسها بالإيجاب دون كلام.

"لماذا تخونين رغبتك اذاً؟" سألتها سارة بنبرة منفعلة.

"أخون رغباتي فعلاً، أتأخر عن تلبيتها، ثم أكره نفسي!" أجابت مايا.

"أحياناً القدر يأتي كصاعقة تضرب أساس وجودك وتهزّه. الموت يمكن أن يكون كذلك، لكن الحياة والحب أيضاً. ما حصل معكِ منذ عودتكِ إلى لبنان هو الصاعقة عينها. موت زياد أولاً... لكن تلك الرسائل واليوميات هي من نوع آخر. أعادت لك توازناً ما كنت تفتقدينه. لا بدّ أنك تساءلت لماذا أنتِ بالذات التي وجدت ما

وجدت في ذلك المبنى المهدّم؟ الصاعقة لا يمكن أن تمرّ هكذا. إنها تغيّر حياتكِ. أنت لن تكوني كما أنت. لا ليس كما كنت في السابق، بل امرأة أخرى!" قالت سارة.

ابتسمت مايا وقالت بسخرية محبّبة تعرفها صديقتها جيّداً:

"إيه... وماذا بعد؟ هل سأتزوج أم أسافر أم أبقى هنا؟ أنت مثل فاطمة البصارة التي كانت تصطحبني أمي لزيارتها وأنا طفلة...!".

ضحكت الصديقتان. ثم قالت سارة:

"- وكُن مَن أنت حيث تكون - كلما وقعتُ في حيرة وما عدت واثقة مما أقوم به، أردّد تلك الكلمات. إنها تعويذتي".

كانت الشمس التي تغرق ببطء أخّاذ وراء أفق البحر ترافقهم في رحلة العودة إلى بيروت. شادي جالس في مقعده يحصي عدد الصدفات التي جمعها من على شاطئ صور الرملي. ضغطت سارة على زر آلة التسجيل في السيارة لتنطلق أغنية. صدرت عن مايا آهة رضى، وراحت الإثنتان تشاركان أسمهان في غنائها...

"إيمتى حتعرف إيمتى... إني بحبك إنت... إمتى حتعرف إني بحبك... إمتى

إمتى... إمتى حتعرف...".

عادت مايا إلى البيت مع شادي وأدخلته ليستحم من آثار الرمل على شعره وجسده. حفّت جسمه بالليفة لإزالة شيء يشبه الإسفلت الأسود العالق على جلده. صار شادي يعترض على كثرة الحفّ على جلده وخاصة على ساقيه، فتوقفت ثم رشت عليه المياه الدافئة التي

راحت تنزلق على جسده الطري. لفّته بمنشفة بيضاء أتت بها عايدة يوم زارتها في باريس. منشفة كبيرة القياس تستعمل في الحمامات التركية وتغطي الجسد بالكامل. تمنّت لو اشترت أمها منشفة أخرى ايضاً. أتت بها من سوق الحميدية مع بهارات المغلي وأشياء أخرى، وحملتها في حقيبة مستقلة.

كان شادي يكلّم مايا وهي شبه غائبة في أفكارها، لم تسمع في تلك اللحظة ما قاله لها وهما يدخلان غرفته، فكرّر متأففا طلبه أنه يريد الذهاب غداً إلى مدينة الملاهي، وخالته ندى تبرعت بمرافقته أثناء عمل مايا. حسناً، سأكلم ندى. أجابته بسرعة. ساعدته في ارتداء بيجامته، وقالت له إنها ستعود بعد قليل، طالبة منه أن يهيّئ القصة التي يريد أن تقرأها له. خرجت إلى الشرفة وأشعلت سيكارة. كان قميصها قد تبلّل من الأمام وشعرت بطراوة لطيفة على كامل صدرها وبطنها، أحبت تلك الرطوبة الباردة التي تحمي جسدها لوقت قصير من حرّ المساء. الشارع هادئ خلافاً لأوقات النهار. إنها الفرصة القصيرة التي يحتمي فيها الناس من الحرّ بعد غياب الشمس وقبل خروجهم للسهر. كان طعم الدخان في حلقها جافاً وجارحاً. رغبت بشيء بارد تشربه في هذا الحر ولا كهرباء في الشقة منذ الفجر. منذ قصف الطيران الاسرائيلي محوّلات الكهرباء والمدينة تعاني من الانقطاع. صاحب المولد الكهربائي في الحي طلب مضاعفة المبلغ لقاء ساعات إضافية من التيار. هذا أيضا مصروف لم يكن في الحسبان. كم الحياة أصبحت غالية في بيروت. حياة عبثية نعيشها بالصدفة لكن عيشها مكلف، فكرت.

منذ وصولها من فرنسا وهي تسكن مع أمها في بيت الأهل. تشعر أنها عادت فتاة صغيرة وهذا ما لا تحبه.

***

فكرت مايا بما قالته لها سارة وقررت إرسال بضع كلمات لكمال فِرات عبر البريد السريع تخبره عما وجدته في الحقيبة وتسأله إن كان من إمكان للقاء. كانت قد بدأت تفقد الأمل، يوم وصلتها رسالة بعد أسابيع ثلاثة. جاءها ردّ كمال فِرات. كتب أنه سيزور لبنان في نهاية تشرين الثاني في مهمة صحافية، أي بعد شهرين، وسيلتقيان إن قدّر لهما اللقاء في ذلك الوقت. كان مقتضباً في رسالته وبعيداً، ولم تستطع مايا أن تعرف إن كانت رسالتها قد حملت إليه قليلاً من الفرح.

بانتظار لقائها كمال عليها أن تقوم بأمور عدة. عليها الانتهاء من الفيلم. ثم هناك الكتاب الذي بدأته عن أسمهان. منذ اكتشافها الحقيبة لم تكتب كلمة واحدة فيه. دار النشر تلح عليها لإكماله. لكن عليها الآن تفريغ كل ما سجلته أثناء لقائها الأخير مع صباح. عليها أن تنقل كل هذا إلى حاسوبها بالإضافة إلى ما كتبته من ملاحظات أثناء قراءتها يوميات نورا. لن يكون عملها هذا للفيلم، إذ ما تكتشفه كل يوم يبعدها أكثر عن الفيلم ويقرّبها من نفسها. إنها عوالم وحيوات أخرى تركت حالها تغوص في قصصها دون نهاية. شغف أمسك بها وقادها نحو أمكنة لم تكن في الحسبان.

لا ترغب هذا المساء بالبقاء في بيت لا كهرباء فيه. ستتابع قراءة ما

تبقّى من يوميات نورا نهاية الأسبوع القادم. البطارية التي تستعملها للإنارة فرغت كلها.

تشعر بحاجة للخروج لتناول كأس في المقهى الذي افتتحته سارة في السوديكو. ستطلب من أمها أن تنام هذه الليلة في غرفة شادي. على الأقل ريثما تعود، وهي لن تتأخر. الأسبوع القادم عليها أن تنتهي من تصوير الفيلم مع داني.

(١٢)

تشرين الثاني ١٩٩٤

تأخرت مايا في الاستيقاظ هذا الصباح. عليها أن ترافق شادي إلى المدرسة لتقابل معلمته الجديدة، ثم إلى موعدها مع كمال فِرات. لم يكن سهلاً العثور على صاحب الرسائل التي وجدتها في قعر حقيبة قديمة في بناء شبه مهدم من مباني وسط بيروت. وتّرها مجرد التفكير بهذا اللقاء. كيف سيكون. لماذا تريد أن تلقاه؟ ألا يكفي ما قامت به حتى الآن. حين اتصل بها من جونيه لم تصدّق أنه هو. كلّمها بالانكليزية بلكنة بدت لها غريبة بعض الشيء. كان صوته بطيئاً ومحايداً كأنه يمارس واجب لقاء امرأة وجدت رسائل ويوميات تتعلق بحياة ماضية له. وضعت مايا السماعة وفكرت أن لا تذهب. أن تتصل به في الفندق وتلغي الموعد. لكن لا! عادت وقالت لنفسها. تريد أن تراه. أن ترى الرجل الذي عشق امرأة إلى هذا الحد رغم المسافات بين بلدين وفي زمن حرب لا اتصالات هاتفية فيه بشكل عادي ولا مواصلات.

تذكرت سؤال سارة على شاطئ البحر: إلى أين سيذهب بك هذا الشغف الذي يدفعك إلى مقابلة رجل وجدت رسائل له كتبها قبل ١٨ عاماً لامرأة تجهلينها؟ لا أعلم إلى أين سيقودني هذا الشغف، كما لا أعلم لماذا أريد معرفة القصة حتى نهاياتها. فكّرت مايا.

تريد سماع القصة من أكثر من شخص. أليس كافياً ما أخبرتها إياه صباح؟ كذلك الرسائل، ثم اليوميات. ألا يكفي كل ذلك؟ أم إنها تلاحق حياة أناس غابوا لتستعيد حياتهم، أم إنها تريد طرد الوحشة التي تسكنها منذ توقف رجل عن لمسها.

غمرت مايا حاجة ملحة إلى إعادة قراءة أجزاء من رسائل كمال لنورا. كأن الرسائل موجهة لها. فكرت أيضاً لو أن نورا قريبة منها لكانت رغبت بلمسها. تبتسم في سرّها وتقول "بلا حماقة!" ثم تروح تتساءل ماذا جرى لكمال، وكم عمره الآن؟ لا بد أنه في أواسط الخمسين.

هؤلاء الناس الذين وجدت آثارهم إنما يتشابهون في أمر أساسي وهو أنهم أحبوا وعشقوا. عشق حمل أسماء عدة. لاحقتهم مقتفيةً حبّاً جارفاً لم تعشه يوماً. حب يهز الكيان ويقتلعكِ من جذوركِ ويرميكِ في مكان آخر لا تتوقعينه. تذكرت ما قالت لها صباح عن غرامها الأول وهربها من البيت: "غير مهم كيف ينتهي الحب. المهم أنني أحببت. ذقت طعمه. هو لذيذ... لذيذ يا مايا!"

إنه صباح غائم، ومايا تفكر بكل هذا فيما تقود سيارتها، ثم تتساءل كيف هو شكل نورا، تلك التي لم تر أيا من صورها. هي الوحيدة الحاضرة بقوة والغائبة بقوة في آنٍ واحد. تركت يومياتٍ

حية مليئة بالشغف والحب والذكاء والأسئلة والحياة. جمعت نصوصاً ومقالات وكتباً عن يوري غاغارين، إلّا أن لا وجه لها. كانت صباح تتحدث عنها كرأس فقط، كإنسان مدبّر وذكي. لم تأتِ على ذكر وجهها أو شعرها أو عينيها، ولم تكن أسئلة مايا تشجّعها على الكلام. عبر رسائل كمال، حاولت مايا أن ترسم وجهاً لنورا وجسداً.

في الطريق إلى جونيه، تلبّدت السماء والشمس اختفت. تحوّل النهار إلى شبه ليل رمادي. لم تكن قد أمطرت بعد رغم أن تشرين الثاني في نهايته. على الطريق حواجز عسكرية حديثة توقف السيارات وتفتش من فيها. أزيل حاجز القوات اللبنانية أمام نفق نهر الكلب بعد اعتقال سمير جعجع قائد القوات اللبنانية ومجموعة كبيرة من القواتيين. توقفت مايا للتزوّد بالوقود، وكان عليها الانتظار بسبب انقطاع التيار الكهربائي. شبان يتحدّثون عن "الحكيم" ويلعنون النظام السوري والمخابرات اللبنانية، وقفوا قريباً منها. أحدهم أخفض صوته حين وصلت سيارة ونزل منها رجلان، أحدهما بلباس عسكري، ودخلا إلى مكتب محطة الوقود.

بدا لمايا أن المنطقة تعيش زمناً صامتاً خوفاً من انتقام جماعات تابعة للأجهزة الأمنية المتعاونة مع الجيش السوري في لبنان. وصلت إلى محيط الفندق، وركنت السيارة في موقف للسيّارات. فجأة أمطرت السماء بشكل مريع، انفجر المطر الغزير لحظات بعد نزولها من السيارة. لم تعد إليها مسرعة لتحتمي، ولم تتوقّف عن المشي واللجوء إلى أقرب مقهى قبل الوصول إلى الفندق. المطر

المفاجئ جعلها تستعيد لحظات رقيقة من زمن مضى أيام الدراسة. تتذكر سارة تضحك من أعماقها فيما تركضان نحو المقهى القريب من الجامعة.

وصلت إلى الفندق قبل ربع ساعة من موعدها مع كمال. بدت كقطة مبلّلة والرطوبة وصلت إلى عظامها. الفندق بسيط وصغير. آثرت الانتظار كي تمر الدقائق وكي يجفّ شعرها قليلاً. جلست على كنبة قريبة من الزجاج العريض لمدخل الفندق. ازداد شعورها بالبرد، وحين اتصلت بكمال فِرات في الغرفة، قال "اطلعي!". قالها ببساطة كأنه يعرفها أو كأن فكرة أن تصعد امرأة إلى رجل في غرفة فندق لا تعني له شيئاً ولا توحي له بأي شيء. هكذا ببساطة تشبه البراءة: إطلعي، غرفتي رقم ٤٢٢، الطابق الرابع.

رافقها عامل الفندق إلى المصعد وضغط على الزر وراحا ينتظران... إلّا أن المصعد لم يحضر. اعتذر العامل بخجل وغباء طفيفَيْن قائلاً إن المصعد ربّما كان عالقاً في الطابق الأخير وانه سيصعد ليحرّره.

"ليس ضرورياً سأصعد الدرج"، أجابته. في بلد ما زالت طرقاته شبه مقطوعة وعدد الحواجز العسكرية أكبر من عدد شوارعه، لا بدّ أن يكون مصعد فندقه معطّلاً، قالت لنفسها وهي تصعد مسرعة إلى الطابق الرابع. ياه بدأت باللهاث مبكّراً. توقفت قليلاً لتستعيد أنفاسها. لا تشعر أنها على ما يرام. اجتازت الممّر الطويل المغطّى بسجادة زرقاء مخططة بألوان بترولية وبرتقاليّة وشعرت بجسمها ينتفض كعصفور. وجدت باب الغرفة وأحسّت بتعرق جبهتها

وراحتيها. رغم شعرها المبلّل، شعرت بحرارة تخرج من عينيها. ما عادت ترى بوضوح. تردّدت قبل أن تكوّر يدها وتدق. لم تسمع أحداً يقترب من الباب ليفتح. انتظرت، ثم دقّت مرة أخرى. فُتح الباب ببطء ليطلّ من خلفه رجل في سنواته الخمسين، غطّى اللون الأبيض معظم شعره الذي انحسر من الأمام.

حين فتح لها الباب هممت مايا بكلمة، ربما قالت مرحبا، ربما ذكرت اسمها، لم تعد تذكر، لكنها شعرت حين التقت عيونهما أن تلك اللحظة لا تشبه أي لحظة قبلها، وانها على نحو ما سترتبط بما سيأتي. وقفت أمام الباب المفتوح بينما أخذ كمال يدعوها للدخول من دون أن يتزحزح عن المدخل، كأنما شيء ما مسّه هو أيضاً وأفقده القدرة على التحرّك. بقي هناك للحظات واقفاً في مكانه يردّد كلمة تفضلي... تفضلي... ثم انتاب الاثنين ضحك مفاجئ، حينها فقط تنحّى جانباً، ودخلَتْ.

"مايا بالتأكيد..."

قال جازماً وشبه ابتسامة على وجهه.

"بالتأكيد". أجابت...

"أهلا بكِ".

لم تكن في حاجة لأن يذكر لها اسمه، ولم يذكره. لو رأته في الشارع لعرفته. لعرفته من الصور، من نظرة عينيه وتقاطيع وجهه، من قامته. كأنه لم يتغيّر، لكن ثمة قساوة في نظرة عينيه حمّلته إياها سنوات لم يغفر لها، كمن خرج من حرب خاسرة وضيّع الطريق.

لم تفتح مايا الحقيبة الصغيرة التي أتت بها وبداخلها صور ورسائل ويوميات. لم يدعها تقوم بذلك، فقد بدأ الكلام، كأن الرجل أراد أن يريح نفسه من عبء ثقيل.

"أنت تعتقدين أنني فقط خسرت نورا. لا! أنا خسرت حياتي كلها وكان من المستحيل إعادة بنائها من جديد. نخسر من نحب ليس مرة واحدة فقط بل مرات ومرات متتالية ولا ننتهي. خسارة أشعر بها حتى الآن، في هذه اللحظة بالذات، وأنا أروي لك قصتي.

سُجنتُ قبل أن يولد طفلنا بأيام معدودة. كنت في طريقي إلى لبنان حين اعتقلتني القوات السوريّة وسلّمتني إلى الأمن التركي. كانت صفقة ربما، لا أعلم. وهنا بدأ زمن أسود في حياتي استمر خمس سنوات. اعتقلوني وقيّدوني ورموني في السجن بعدما اتهموني زوراً بالتخطيط لتفجيرات واغتيالات سياسية في تركيا. الرسائل التي كتبتها إلى نورا من السجن لم تعرف سبيلها إليها. علمت ذلك في ما بعد. كان جهاز الأمن يقرؤها ثم يرميها في سلة المهملات. الإتهامات ضدي كانت كلها افتراءات. لكن معاناتي في السجن لم تكن شيئاً أمام الخبر الذي وصلني عبر تيمور أن نورا وطفلنا قتلا بانفجار سيّارة في بيروت. لم أعد أعرف ماذا أفعل. ما عدت أريد الخروج من السجن. لم يعد هناك من هدف لحياتي. لماذا أخرج؟ قلت. الأفضل أن أبقى هناك، أن أتعفّن في زنزانة لا تتسع لسرير. أنا الذي فشلت في إخراجها من بيروت يوم طلبت مني ذلك قائلة إن الوضع بات خطيراً. كنت أؤجل أمر خروجها بانتظار ترتيب أوراق السفر معاً إلى فرنسا.

الكراهية لها رائحة، لها إيقاع أيضاً، ونورا شمّت كل ذلك وتركت سوريا إلى لبنان إلّا أن الكراهية لحقت بها وقتلتها.

تيمور أراد إبلاغ نورا خبر اعتقالي ألّا أنه أُوقف بدوره وسُجن لمدة سبعة أشهر... وحين وصل إلى بيروت أخبرته صباح. حينها علمتُ بكل شيء.

"قل لكمال إن عائلته ماتت، زوجته وابنه، ماتا. قتلتهما الحرب في بيروت". كانت جملتها الأخيرة له وهي تغلق باب الشقة وراءه.

بقيتُ خمس سنوات في السجن الذي خرجت منه بأعجوبة لم أتوقعها. حُكم عليّ لمدة عشر سنوات، لكن لسببٍ ما خرجت قبل إتمام مدة عقوبتي. ربما جواز سفري الفرنسي ساعدني في ذلك. دفعت اعتزالي العمل السياسي ثمناً لحريتي، لكن أيّ حرية كانت هذه؟

حين خرجت اتهمني البعض أنني وشيت برفاق الأمس. خلال السنة الأخيرة من سجني قامت السلطات التركية بحملة اعتقالات طالت بعض الرفاق ومن بينهم أعضاء في حزب العمّال الكردستاني.

المرة الأخيرة التي التقينا فيها، نورا وأنا، كانت تقريباً قبيل نهاية حملها. بقي جسدها رشيقاً وبطنها بالكاد يوحي بحملها. كنت أستطيع أن أرى تكويرة لطيفة متناسقة مع جسدها المشدود ونحولها الطبيعي. لن أنسى ذلك اليوم... حين ذهبنا بعد الظهر إلى مسبح الكورال بيتش. مشينا قليلا باتجاه البحر وهناك تمدّدتْ نورا على

منشفة فرشتها على الرمل. كانت تعبة من عملها الصحافي أثناء الليل وأرادت النوم ولو لخمس دقائق.

لم أفكّر على الاطلاق أن رؤيتي لها، وهي ممددة على الرمل فيما الشمس تبتعد وراء الافق وترسم خطوطاً ذهبية متعرجة على تكويرة بطنها الانثوي الناعم وجسدها الرقيق، ستكون الأخيرة. لم أفكر أن منظرها، وهي في تعبها الذي يلامس أعماقي، وفي شرودها الصافي، ستراه عيناي لمرة واحدة فقط، لمرة واحدة في حياتي ولن تتكرّر. حين نظرت إليها شعرت أن قلبي يذوب بين أضلعي وأن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، سيفرّقنا سوى الموت، وها قد فعلَها بنا. لم أعلم أنني سأقضي عمري بعد ذلك أحاول استرجاع حضورها في تلك اللحظة واسترجاع ذلك الشعور الفريد والمكتمل نحوها.

حين عدتُ إلى لبنان لأول مرة بعد موت نورا وطفلنا، أوصلتني صباح إلى الباشورة، إلى المكان الذي أرادت دفن زوجها فيه لو أعادوا لها جثته. وقفتْ قريباً من مساحة فارغة يغطيها العشب اليابس والحجارة المتناثرة، وأشارتْ بيدها إلى زاوية ترابية مهملة وقالت لي إن نورا والطفل دُفنا هناك. لا أدري ما حلّ بي. كانت لحظات كابوسية. لم أصدّق. كأن نورا رحلت بالأمس، كأننا كنا معاً منذ لحظات فقط.

لم أستطع البقاء أكثر من يومين. بدت لي بيروت قاسية القلب، ناقصة غير مرحبة. صار للأمكنة معنى آخر، لم أر كم المدينة غريبة ووحيدة إلا حينها. كيف أبدأ صباحي وكل شارع وكل مقهى يذكّرني

بها؟ كيف ألملم نفسي؟ ما عدت رجلاً في غيابها.

سافرتُ في اليوم التالي ولم أعد منذ ذلك الحين إلى بيروت رغم طلب مدير الوكالة الصحافية في اسطنبول أن أنتقل للعمل في مكتب لبنان.

لو كانت لا تزال حيّة لكانت الآن في السادسة والأربعين ولكان ابننا في السابعة عشرة ولكنّا عائلة تتغذّى من الحب وتؤمن أن الغد موجود.

"لكلّ منا حفرته السوداء"، كانت تقول لي. أفهم الآن ما قَصدتْ. ها أنا في أعمق حفرة لوحدتي.

خرجتُ من السجن وأحسست بالغربة. خمس سنوات كانت كافية لأرى تحوّل العالم حولي. بات عالماً بلا أبطال. فقط حرائق في الروح ورماد في الفم، من بقي من الرفاق بدا كأنه هرم عشرات السنين. فكرت أننا لن نلحق بفراشات أحلامنا بعد اليوم، ولا بدّ أن نكّف عن البكاء وننشغل بقروح القلب التي تحتاج إلى عمر كامل كي تندمل".

كانت مايا تستمع إليه كما لو أنها تلتهم كلماته. يتوقف عن الكلام للحظات ثم يستأنف من جديد. إنه الشغف الذي فتّشت عنه طيلة حياتها ولم تجده. تشعر به الآن وستشعر به غداً. هل وجدته بسبب قوة كلمات كمال أم بسبب قوّة الحب الذي بقي ينبض فيه؟ حب مدفون مع امرأة ماتت ولا تعرف شكلها.

حين ودّعته، كانت ما زالت تمطر في الخارج. كأن المطر سيرافق قصة كمال حتى النهاية. لم تشعر أنها قضت تقريباً أكثر من

نصف نهار معه. أرادت أن تختزل حياة كاملة ذلك النهار الخريفي مع كمال. ربما لشعورها أن وقتاً طويلاً استُهلك دون فائدة، وأن عليهما أن يجرعا الحياة كاملةً كقهوة الصباح.

كان كمال يتوقف أحياناً عن الكلام ويطرح سؤالاً كأنه يريد التأكد أنها تتابع ما يقول. كانت مايا تتابعه بصمت، ذلك الصمت الذي يولّد صلة عميقة بينهما بطريقة تعجز عنها الكلمات. في إحدى تلك اللحظات خطر لها أن ترمي جملتها هكذا دفعة واحدة، كما يرمي لاعب مقامر نَردَه على الطاولة، وتقول "رسائلك غيّرت شيئاً ما في داخلي"...

عادت إلى بيروت، وكان بداية المساء، والمطر يضرب زجاج السيارة الأمامي بقوة. المسّاحات لم تكن تعمل بشكل جيد وبات عليها أن تقود ببطء. وصلت إلى البيت وكانت ترتجف، وأول عمل قامت به أن أعدّت الشاي، ولم تنتظر أن يبرد قليلا فشربته وأحرقت لسانها وسقف حلقها. أحاطت كوب الشاي بيديها الاثنتين كأنها تطلب الدفء. صوت المطر اختلط مع كلمات كمال التي بقيت ترنّ في رأسها.

أحضرت ثانية رسائل كمال لنورا، وأعادت قراءة بعضها رغم تعبها ونعسها.

اليوم صار للرسائل طعم آخر.

ثم كتبتْ في يوميّاتها:

كمال،

سأكتب عنك في ليلي المتأخر. وجدتُ رسائلك التي لم تصلني.

قرأتها امرأة قبلي. وجدتها بعد سنوات. كيف سها كل ذلك عن حياتي؟ كل هذا الحب أجده هنا، كل هذا الحب الذي افتقدتُه منذ زمن.

***

كانت تعبة ونعسة. دخلت إلى غرفة شادي، استلقت قربه على السرير، أحاطته بذراعيها وسرعان ما غفت.

(١٣)

الصفحات الأخيرة من يوميّات نورا

دائماً في مكان ما قبل وصول مايا سيراً إلى برج المرّ يفتح قلبها. نقطة جغرافية صغيرة قريباً من مبنى الهوليداي إن، ترى منها الأفق يتسع فجأة ويتكثّف لونه الأزرق. "بيروت ورشة عملاقة"، قالت في نفسها. ضجيج إعادة الإعمار طغى على صوت البحر والناس وأجراس الكنائس وصوت الآذان. يبنون ويردمون في آنٍ واحد. يردمون العنف كأنه لم يكن. يردمونه بعنف أكبر. لكّنه باقٍ وسيعود من تحت الأرض، ومن قلب مياه البحر. واصلت سيرها نزولاً ومرّت من أمام فندق فينيسيا الغارق هو أيضاً في ورشة ترميم طويلة. اجتازت الطريق ومشت باتجاه المنارة. أبنية شبه مهدّمة صادرها الجيش السوري وجعل منها مقرّاً له. على الرصيف البحري نساء ورجال يمارسون هواية المشي. وقفت قليلا ترتاح مسندةً جذعها إلى السور الحديدي الأخضر. قبالتها شابة بقميص ساتاني أزرق طويل فوق بنطلون أبيض، جالسة على مقعد حجري، نظرت إلى

المشاة هي أيضا لكن بحذر وشيء من الخوف. أمامها حقيبة ملابس ذات دولابين صغيرين. كانت تمرّر يدها على بطنها بتمهّل وحذر على شكل دوائر صغيرة كأنها مستغرقة بالتفكير في موضوع يشغلها. رفعت يدها إلى شعرها ودفعته خارج إطار وجهها. ثم وضعت يدها على جبهتها وأحنت جذعها إلى الأمام كأنها تحدق في شيء معيّن على الأرض. لكن بدا أنها تفكر في أمر يقلقها. كان في وجه المرأة الشابة حزن جذب مايا اليه. نظرت إلى مايا وشبه ابتسامة على وجهها، وبادرتها مايا بتحية دافئة دون كلام. ردت الشابة التحية فيما أبقت على شفتيها ابتسامة طفيفة عابرة. ثم أدارت رأسها بشكل انسيابي مع حركة يدها دافعة ثانية بشعرها إلى الخلف، عاودت النظر إلى مرور الناس أمامها كأنها تترقب وجهاً، أو تنتظر أحداً. في لحظة ما، رفعت الهاتف النقّال إلى أذنها، قالت بضع كلمات، ثم أعادته إلى الحقيبة. ارتعشت عيناها كأنّ دمعة تنتظر الخروج. بدا الله متخليّاً عنها في تلك اللحظة.

تابعت مايا المشي باتجاه الحمّام العسكري، ثم تجاوزته لتصل إلى مقهى الروضة. جلست قريبة من السور الاسمنتي المواجه للبحر. إنه يوم مشمس ودافئ من أيام تشرين بيروت. نساءٌ من كل الأعمار والهيئات، أختلطت وجوههن بدخان النارجيلة والسجائر، لبسن الفساتين القصيرة أو السراويل وأخريات محجبات. أقمشة انسحبت على الأجساد وتهدلت. ألوان ربيعية، سوداء أو صارخة. القماش المنسدل تَمَاوجَ على أجساد أتعبتها السنون. أرادت صاحبات الأجساد ستر التعب، فاحتمين تحت خيمة الله.

شربت مايا فنجان القهوة ثم أخرجت دفتر يوميات نورا لتقرأ الصفحات الأخيرة منه:

(...)

... اتصال من أبي هذا الصباح. وصلتهم القصة القصيرة التي كتبتها عن أختي هناء والتي نُشرت منذ أشهر في مجلة عربية تصدر من لندن. "نريدك هنا"، قال لي.

"عليكِ بتكذيب هذه القصة ونشر خبر تنفين فيه ما قلتِ، وتؤكدين أن أحدهم انتحل اسمك. أنت مجنونة ولا تدرين عواقب ما قمت به".

هاتف أبي كان قصيراً. عبارة عن تأنيب. لم يسألني أيّ سؤال عن صحتي أو عملي. وأنا لم أخبره بأي شيء. حتى زواجي لم يعلم به أحد منذ بدأت التهديدات تصلني.

(...)

منذ أن نُشرتْ قصتي عن هناء واتصالات أخي من أبي، كذلك اتصالات هدى... لا تتوقّف. إنها تهديدات وليست اتصالات. في البداية لم أكن أصدّق ما قالوه على الهاتف. اعتقدت أنها تهويلات عائلية لضبطي ومنعي من متابعة كتابة القصص التي تطالهم. قال أبي إنني قمت بعمل سيدمّر العائلة. أدمر العائلة لأنني قلت الحقيقة؟ لأنني كتبتُ ما حصل؟! العائلات تفضّل الصمت، دائماً الصمت. لكن الصمت لا يضع حدّاً للموت ولا للانتحار، ولا يمنع النساء من قتل أنفسهنّ! ألم يكن انتحار هناء تدميراً للعائلة أيضاً؟ لماذا الجميع يحمّل هناء المسؤولية. يحمّلون الميت مسؤولية موته! هدى قالت

لي "لماذا قَبِلتْ أختك بتلك العلاقة؟ هي مسؤولة". الكل يتنصّل من مسؤولية صمتهم، كأنهم قاموا بقتلها مرة أخرى. لا أستطيع أن أنسى بكاءها الليلة التي سبقت انتحارها. الأبواب أوصدت بوجهها ولم أفهم شيئاً حينها. يقولون إن خطأي أنني نشرت القصة بالأسماء الحقيقية، وأن أحدهم أوصل نسخة من المجلة إلى شوقي وأنه فقد صوابه حين قرأها وأنه هدّد أبي بإرساله ثانية إلى السجن وبطرد أخي من عمله، قائلاً إن قصة كهذه ستدمّر مستقبله وكل ما وصل إليه. لكن أعلم جيّداً أن قصة كهذه لن تؤثر بمستقبله، بل ربما ستفيده. ذلك أن شروط الترقّي في الوظائف الأمنية هناك تبدأ بالإجرام. أعلم أيضاً أنني لن أنجوَ من شرّه، حتى لو قام بتنفيذ تهديداته ضد أبي وأخي. إشاعات أنني أعمل لدى المخابرات البريطانية هو من أطلقها. كيف لصحافي خارج سوريا ولا يعمل في جرائد النظام ولا يصفّق له، كيف لا يُتّهم بالعمالة. إن كان هذا الصحافي امرأة، حينها لن يُتّهم بالعمالة فحسب بل بالعهر أيضاً! مراراً طالبتني هدى برسالة هناء. لكن ما عاد ينفع الآن إن بعثتُ بالرسالة، ما عاد ينفع إن مزّقتها هنا. فات الأوان على أيّ حال.

***

(...)

أكتب لنفسي. أكتب لكمال أيضاً، هي طريقتي الوحيدة لأقترب منه ربّما، وأبتعد عنه بالقدر نفسه. هي معادلة ليس من السهل التحكّم فيها، كأنها على وشك انفلات دائم، وهذا ما يعطيها المعنى، لكن

الآن سأدع الكلام عن المعنى جانباً. أفكر أن دفتري هذا سيكون بمثابة رسائل مؤجلة له ريثما نلتقي. في اتصالنا الأخير قلت له إنني أريد الخروج من هنا والأفضل قبل ولادة طفلنا. لكن إلى أين؟ إنها المرة الأولى التي طلبت منه ذلك. إنها المرة الأولى التي دخل الخوف فيها إلى قلبي وأفقدني الشعور بالأمان.

تمّوز ١٩٧٨

كنت أعلم أن تسلّل كمال من إزمير إلى بيروت سيكون صعباً، وأنني سأرى وحدي مولودنا للمرة الأولى. دخلت إلى المستشفى فجر أمس، ولد طفلنا الساعة الثانية بعد الظهر.

دخلت المستشفى وأنا أقول لنفسي أحياناً إنّ الأطباء يخطئون، غفوت مهدودة من التعب فور الولادة. بين اليقظة والنوم سمعت طبيب الولادة يقول انه صبي. رغم ذلك فكرة أن بنتاً جميلة خرجت مني ظلت عالقة في رأسي. اعتقدت لحظتها أنه يمازحني.

كان نهاراً حاراً، وتعطّل المكيّف في غرفة الولادة. شعرت حينها أن جهنّم ليست بعيدة عن بيروت.

(...)

طلبت عشاء شهيّاً وكأس نبيذ. وصل العشاء دون كأس النبيذ. إنها قوانين المستشفى قالت الممرضة. ضحكت وقلت لها الأفضل في المرة القادمة أن أنجب في مقهى، على الأقل يأتونني بكأس.

رغم غياب كمال عن بيروت وعدم وجوده أثناء الولادة، شعرت

ذلك المساء برغبة نهمة في الضحك وفي الحياة.

(...)

أقرأ الآن في غرفة المستشفى ما كتبه لي كمال في رسائله الأخيرة، أنه يرعى الأمل حيث هو. كم نحتاج لجرعات كبيرة منه. سأحاول أن أرعى الأمل هنا أيضاً رغم العنف حولنا، قلت في نفسي، فيما أصابعي تمسك بيد صغيري الذي ولد بالأمس.

***

كريم (لنعتبره اسمه الموقت) ينام طوال النهار. أحياناً أضطر لإيقاظه كي أرضعه. لكن سرعان ما ينام قبل أن يفرغ.

***

"شهقة حياة" عنوان الكتاب الذي وصلني اليوم هدية من زميلة لي.

تقول مؤلفته كلاريس ليزبكتور في إحدى صفحاته: "أكتب كما لو أني أنقذ حياة شخص ما، ربما حياتي أنا".

قرأت جملتها بنهم فيما كان كريم يلتهم حلمة صدري ويوجعني.

كأنها كتبت عني.

١٢ آب ١٩٧٨

لا أدري ما انتابني منذ الصباح الباكر. هل هو حزن ما بعد الولادة كما قرأت؟ كريم بدأ بالبكاء ولم يشبع من حليب صدري. ثمة قلق

في داخلي يؤرقني، بل خوف.

غداً موعدي في السفارة. لن أنتظر كمال. اتصلت بمكتبه بعد أن رنّ هاتفه الشخصي مراراً ولم يردّ أحد. قالوا إنه لم يأت إلى العمل منذ أكثر من أسبوعين. انتظره ولا أعلم عنه شيئاً.

أشعر بالخوف. سأترك كريم مع صباح ريثما أنجز معاملة السفارة وأعود.

١٣ آب ١٩٧٨

أودعتُ كريم عند صباح. كأنه سُلخ عن قلبي في تلك اللحظة التي أخَذَته من بين ذراعي. سأعود من السفارة لإرجاعه إلى البيت بعد الظهر ولأنظم كل ما جمعته عن يوري غاغارين. حان وقت كتابي عنه.

لن أذهب الى العمل اليوم، وليذهب مدير المكتب إلى الجحيم!

***

أنهت مايا قراءة الصفحات الأخيرة من يوميات نورا وأصيبت بالذهول. ما كتبته نورا في اليومين الأخيرين قبل مقتلها كان مفاجأةً لمايا! لم يكن طفلها كريم معها يوم ذهابها إلى السفارة!

بدا الأمر شديد الغرابة، وبات على مايا أن تفهم ماذا جرى فعلاً للطفل. تذكرت لقاءها الأخير بصباح وتوتّرها حين سألتها عن صورتها مع الطفل، ابن نورا، حينها لم تعد صباح تريد أن تحكي

أيّ شيء وبدأت هي بطرح الأسئلة لعلّ مايا تنسى سؤالها ولا تنتظر أيّ جواب. أعادت مايا بسرعة دفتر اليوميات والأوراق المتناثرة إلى حقيبتها وخرجت من مقهى الروضة. مشت على الرصيف المجاور لسور الحمّام العسكري باتجاه عين المريسة. جلبة وصفّارات سيّارات إسعاف وشرطة ارتفعت وطغت على الأصوات هناك. وكلما اقتربت مايا سيراً من المكان الذي وقفت فيه مستندة إلى السور أثناء توجهها نحو المقهى، علت تلك الأصوات وصارت أكثر قوة. سيارات وضجة مرتفعة، وأناس تحلّقوا حول جثة ممدّدة على الأرض يحاول موظفو الدفاع المدني تغطيتها بقطعة قماش.

استطاعت مايا أن ترى جزءاً من ملابس الجثة: قميص ساتان أزرق وبنطال أبيض ظهرا بوضوح من تحت الغطاء القصير الذي غطى الوجه وجزءاً من الصدر. صرخت مايا "هيدي هي هي..." اقترب منها رجل الشرطة وسألها "تعرفينها؟"

– نعم... نعم... لا... لا... قصدي رأيتها اليوم لأول مرة وتبادلنا التحية... أخذت مايا تبكي كأنها تعرف الضحية منذ زمن. إنها جريمة شرف قال لها أحدهم. قتلها أحد أفراد عائلتها وسلّم نفسه للشرطة. هل هي مهاجرة أيضاً؟ سألت مايا نفسها. هل هي هاربة أو قادمة قسراً كما جرى لصباح وكما جرى لنورا ولمالا، مهاجرات من بلدانهن بسبب رجل أو عائلة من الرجال؟ حاولت مايا السير إلّا أنها شعرت بالانهيار. جلست على مقعد حجري وغرقت في البكاء.

مضى وقتٌ قبل أن تبدأ بالسير صعوداً من شارع سبيرز نحو محطة أيوب، في حين بدأت أصوات المؤذنين ترتفع في الفضاء

من أكثر من جهة. سيّارات قلَّ عددها واختفت. إنه موعد صلاة الجمعة. يخفّ الازدحام ويعمّ الشارع ما يشبه الهدوء. كلاب شاردة في زاوية الشارع المقابل تهافتت على طعام مرمي. بقايا افرازات بشرية انتشرت على الرصيف وعبق الجو برائحة بول. فيما همّت بالإسراع مرّت سيارة وأبطأت قربها ثم رشقها رجل جالس قرب السائق بعلبة سجائر فارغة، ووجّه إليها كلمات تحرّش. أصابت العلبة كتفها ووقعت على الرصيف. خفّف السائق سرعته أكثر ليتيح لزميله فرصة متابعة التحرش. انحنت مايا والتقطت العلبة الفارغة وقذفتها بكل ما فيها من قوة وغضب في وجه الرجل وهي تصرخ كأنها تبكي:

"إرمها في مزبلة بيتك... كلكم متشابهون... كلكم قتلة".

"أعوذ بالله من هذه اللبوة، ما هذه اللبوة؟..." راح الرجل يكرّر جملته مذهولاً وهو يطلّ برأسه من نافذة السيارة.

"أعوذ بالله، هذه مجنونة". قال للسائق الذي انطلق مسرعاً.

أعوذ بالله!... عن أيّ إله يتحدّث هذا الوغد؟ ولماذا كلما ازدادت أعداد المصلّين ازداد عدد الضحايا من النساء؟" تكلّم مايا نفسها بغضب، ثم راحت تردّد بصيغة السؤال: "أعوذ بالله...؟".

وصلت إلى البيت منهكة. كانت مشوّشة الأفكار ولا تدري ما عليها القيام به. جلست على الكنبة ورأسها بين راحتيها. منظر جثة المرأة ملقاة على الأرض، هي التي ابتسمت لها منذ ساعات ثم فجأة توقف كل شيء. تبادلتا التحية لا بل كأنهما تحادثتا تقريباً رغم أنها لم تسمع لها صوتاً. كانت فترة عصيبة بالنسبة لها. حياتها التي تغيّرت بشكل عاصف، ثم الحقيبة وقصص أناس بعثرتها الحرب وغيّرت

مصائر أصحابها، واليوم كلّ هذا العنف. عنف الحرب وعنف السلم وجهان لواقع واحد وهي لا تحسن التعامل مع أي منهما. أعادت قراءة الصفحات الأخيرة من يوميات نورا التي تقول فيها إن الطفل لم يكن معها يوم خروجها. لكن هل هذا معقول؟ كأنها لا تصدق ما قرأت.

اكتشاف مايا أن الطفل لم يكن مع أمه يوم مقتلها جعلها في حالة قلق. أسئلة لا تتوقف. إن كان الطفل بقي مع صباح، أين هو إذاً؟ لماذا قالت صباح إنه قُتل؟ هل غيّرت نورا رأيها في الدقيقة الأخيرة وأخذت ابنها معها. لكنّ جملتها الأخيرة في دفتر اليوميات هي "أودعت كريم عند صباح" ثم أضافت "سأعود من السفارة لإرجاعه إلى البيت بعد الظهر". هذا يعني أنها أعطت كريم لصباح ثم عادت إلى شقتها قبل ذهابها إلى السفارة وإلّا كيف استطاعت كتابة كلماتها الأخيرة؟

في ساعة ما من ساعات الفجر استيقظت مايا لتجد نفسها نائمة على الكنبة بثيابها وحذائها، ولتجد أن الكهرباء عادت وغرف الشقة مضاءة كلها تقريباً.

دخلت إلى سريرها ومعها يوميات نورا ولم تستطع النوم قبل الرابعة صباحاً. كوابيس لا تعلم من أيّ علبة لباندورا خرجت وراودتها في مدة النوم القصيرة. رأت زياد مسجّى وعيناه مفتوحتان. لم تستطع البكاء، وبقيت هادئة كأنها تعلم أن ما تراه هو كابوس. لا بدّ من إغماض عينيه قالت. للموتى حق علينا أن نغمض أعينهم كي لا تبقى مفتوحة وهم ينتقلون إلى مكان ما بين الجنة والنار". لكنها لا تؤمن بالجنة ولا بالنار. اقتربت منه ومدّت يدها لتغمض عينيه اللتين كانتا

تنظران إليها بثبات بارد.

قبل موته بأسابيع قال لها إنه لم يكن مؤمناً في حياته وإنه كان يسخر من الكتب الدينيّة ومن رجال الدين...

– والآن وأنا على أبواب الموت، ماذا لو كانت كل هذه الأكاذيب حقيقة؟

مايا، ألا تتساءلين أحياناً ماذا يوجد في الجهة الأخرى من الحياة، هناك بعد الموت؟"

***

أوصلت مايا شادي صباحاً إلى المدرسة، ولم يكن يريد الدخول. انه مكان جديد بالنسبة إليه. مكان كبير ولا يشبه الحضانة. أراد البقاء معها هذا اليوم. شرودها وانشغالها ربما أفقداه بعضاً من الشعور بالأمان.

أوقفت السيارة في مكان قريب من المدرسة. فكرت أن هذه هي الطريقة الأفضل كي تعود بعد الظهر بأسرع ما يمكن لاصطحابه. بات السير على الأقدام أسرع من الانتقال بالسيارة في زحمة بيروت. عليها أن تتصل بالفندق لتسأل عن كمال. خافت أن يكون حصل طارئ ما أجبره على العودة سريعاً إلى تركيا.

لن تنتظر حتى موعدهما القادم، بل يجب أن تراه اليوم.

(١٤)

الماضي يعود

منذ تاريخ تسليم الطفل إلى آديل الناعس نهايةَ عام ١٩٧٨، وصباح تريد أن تنسى. تريد أن ترمي الذاكرة في قعر بئر ولا تعود إليها. لكنها عادت.

الماضي يعود... ها إنه يعود، يدخل البيت وينام في السرير ويلقي بكل ما نكرهه فيه على مخدتنا. حينها كيف ننام؟

عهدت لها نورا بطفلها يوم خروجها لتسجيل اسمه في السفارة التركية، وكانت صباح حينها في بيت ابراهيم، إلّا أن نورا لم تعد لأخذ ابنها. انتظرت صباح ساعة، ساعتين بل ساعات كي تعود. وحين علمت بخبر الانفجار كان قد حلّ المساء. لم تصدّق بداية الأمر، صارت تدور في البيت وهي تحمل الطفل وتحدّث نفسها أنه خبر كاذب، وأن السفارة تقع في مكان بعيد عن مكان الانفجار، وتتساءل أين كانت نورا طيلة النهار والسفارة تقفل أبوابها الساعة الثالثة؟

"شو راحت تعمل هونيك؟ حتى تموت وتكدّر حياتي وتترك لي طفل عمره شهر ما بعرف شو أعمل فيه؟" صارت تحدّث نفسها ذلك اليوم غاضبة.

ثم يهدأ غضبها كأنها تعي فجأة أن نورا ماتت.

"مش مرة جديدة يا ربي. هي أهلي وما إلي أهل غيرها".

قالت وهي تبكي، فيما راحت تنظر إلى وجه الطفل كأنّها تحدّثه.

كأن نورا حدست بموتها. كانت تقول لصباح: "أخاف النسيان. أخاف أن أنسى ما قمت به حين يأتي كمال، كتابة اليوميات هي ذاكرتي".

كانت صباح تعتقد أنها تعرف نورا تماماً، تعرفها حين تتكلمان، وحين تقترب نورا منها وتضع يدها على كتفها، تنظر صباح إلى قامتها الطويلة وتشعر في تلك اللحظة كأنهما عاشتا حياة سابقة معاً. لكن في لحظة ما كان يتبدّد شعور صباح أنها تعرف تلك المرأة، خاصة في لحظات أحاديثها الطويلة على الهاتف مع كمال حين تبدو كلماتها غريبة بعض الشيء لا تفهم صباح منها شيئاً.

تتحول على نحو ما إلى إنسان آخر أو ربما يجب القول إن فيها نساء كثيرات، من الجائز أن صباح لم تتعرّف إلّا على إحداهن، حينها توقن أن من المستحيل المساواة بينهما.

لم أر نورا خائفة ومتوترة كذلك الصباح الأخير، فكّرت صباح.

انقطعت أخبار تيمور بعد زيارته الأخيرة لصباح وقيل لها إنه قتل عام ١٩٧٩. قتلته القوات التركية أثناء مطاردة عناصر حزب جديد ساهم تيمور في تأسيسه هو حزب "ب ك ك" في ديار بكر. موت

تيمور بدا حينها لصباح كأنه تأكيد جديد على صواب ما قامت به من إعطاء الطفل لامرأة اسمها آديل الناعس لتأمين حياة سعيدة له وسط عائلة أوروبية أرادت تبنيه. لو بقي الطفل هنا ماذا كنت سأفعل حينها بعد موت تيمور؟ "ماذا كنت سأفعل بطفل ولم أكن قادرة حتى على إعالة نفسي؟!".

ثم تروح تكرّر الأسئلة نفسها لتقنع نفسها مجدّداً أن ما قامت به كان الحل الأفضل:

"ماذا سيقول زوجي أحمد لو عاد ورآني أحمل طفلاً؟ كيف سيصدّق أنه ليس ابني وأنني لم أحمل وأنجب من رجل آخر؟".

ثم حين زارها كمال للمرة الأولى بعد موت نورا كان قد انقضى أكثر من خمس سنوات. أكّد لها موت تيمور ورافقته صباح إلى المقبرة القريبة حيث دفنت جثث عديدة لأشخاص مجهولي الهوية. أشارت له إلى المكان. عاد كمال إلى تركيا وأرسل مرة أو مرتين نقوداً لصباح. ترك لها عنوانه ورقم هاتفه إن احتاجت إلى شيء.

رحلت نورا، لكن صباح تتذكّرها كلّ مرّة تقف داخل الكيوسك تحاسب الزبائن وتكتب الطلبات. تتذكرها حين تعود إلى شقتها وتعمل جردة البيع كل مساء. لولا نورا ما تعلمت صباح الحساب ولا تعلمت كتابة اسمها إلى جانب بعض الكلمات.

فتحت صباح الكيوسك الصغير بعد أن تخلّت عن الطفل، وصارت تبيع فيه قناني المياه والمناقيش التي كانت في بادئ الأمر تعجنها بنفسها. مقاتلو الحي كانوا زبائنها يشترون منها المناقيش، ثم راحوا يطلبون أن تأتيهم بالتبغ والكحول. صارت تبيعهم كل شيء

تقريباً. وحين يحاول أحدهم الاقتراب منها كانت تتحوّل إلى نمرة شرسة ولا تعرف كيف كانت تنجح في إقناعهم بتركها وشأنها. ربما لأنها بقيت في الحي ولم تغادر. ربما لأن أمهات أولئك المقاتلين الشباب يعرفنها. كانت تشرب معهن القهوة وتقرأ أثر تفل البن في فناجينهن وتروح تخبرهن عن زواج بناتهن وعن رسائل ستصل، فيها أموال وهدايا. وفي أوقات أخرى تحكي لهن قصص سكان المنطقة الأصليين الذين هاجروا منذ بداية الحرب وتركوا شققهم وأثاثهم في البيوت حتى أنهم تركوا الثريات متدلّية من السقوف وربما مضاءة. أضحت صباح بنظر السكان الجدد ذاكرة المبنى وحافظة أسراره وأسرار الحي القديم الماضية والحاضرة. وهم كانوا يكنّون لها مشاعر متناقضة من الحب والخوف والتنافس والكره. وحين يختلفون على أمر ما وخاصة على مياه الشرب التي بالكاد تصل إلى الطوابق العليا، أو على اختيار مكان لجمع النفايات، بانتظار نقلها وحرقها، بعد تخلّف أجهزة الدولة عن القيام بالخدمات، كانوا حينها يتذكرون ويذكّرونها أنها كردية وأنها غريبة وأنّهم هم أبناء البلد!

لا ترد صباح وتنتظر فرصة أكثر طراوة كي تقول ما في قلبها.

"أنا لبنانية. أحمد زوجي لبناني. عمتي لبنانية من زمان. دبّرت حالها الملعونة من أيام شمعون". تقول للنساء المجتمعات فيما هي تقرأ فنجان القهوة لإحداهن.

على جثتي كانت تقول صباح، أثناء السنوات الأولى للحرب، حين يقترب منها أحد المقاتلين ليعبث معها مادّاً يده إلى صدرها. على جثتي تكرّر وهي تدفع بيده بعيداً عنها، ثم تضيف "أنا أمك

ولاه". بالحقيقة لم يكن يفصل صباح عن المقاتلين سنوات كثيرة، ربما بضع سنوات فقط لكنها بدت كما لو أنها هرمت قبل سن الهرم بكثير.

في البداية لم تدع أياً منهم يقترب منها. الرجل الذي أحبّت والذي عاشت معه عشرين يوماً مات. هكذا كانت تردّد لنفسها، وزوجها المخطوف يعيش في المجهول. لكن بعد وقت تركتهم يقتربون منها أكثر وأكثر. تشرّع لهم جسدها الذي ملّ الانتظار، تغمض عينيها وتحاول أثناء مضاجعة أحدهم لها أن تستعيد ليالي اسطنبول الأربع مع حبيبها أحمد، لكنها تفشل كلّ مرة. تفتح عينيها ولا تواجهها سوى خشونة وجه، ورائحة عرق نتنة وثياب عسكرية مكوّمة على الأرض.

هل تركتهم يجتاحون حياتها وجسدها ومخيلتها بسبب موت نورا؟ أم بسبب شعورها بذنب فظيع لتخلّيها عن كريم؟ أم بسبب هشاشتها التي ضاعفتها سنوات الحرب والتي ما عادت قادرة على احتوائها؟

تركتهم يدخلون إلى بيتها في الطابق الأرضي من المبنى ويخرجون. أحياناً يتسلّقون السور الذي تهدّم جزء منه ويقفزون إلى الحديقة الخلفية للشقة ويدخلون من باب المطبخ الضيّق الذي لا قفل له. تركت لهم جسدها. يكبس أحدهم على أنفاسها لدقائق معدودة فيما يحضر صوت نورا كذلك وجه كريم لحظة حملته آديل الناعس وخرجت به. تكره نفسها في تلك اللحظات وتكره الكيوسك الذي استأجرته بالنقود القليلة التي قبضتها من آديل. لا

تريد أن تفكّر، لا تريد أن تتذكّر. وهي ما عادت تقول للمقاتلين لن تصلوا إلا على جثتي. فوصلوا. ثم بدأ ذلك الشعور أن ثمة أجزاء من جسدها تموت، بدءاً من أعماقها ثم صدرها وبطنها وفرجها. وبقيت تنتظر زوجها المخطوف. صارت جثة تنتظر جثة. يأتيها أحدهم بأخبار عن زوجها، يُقسم لها أنه رآه، أنه كان زميله في الزنزانة تحت الأرض في بيروت الشرقية، وهي تصدّق وتبدأ بالاستفسار. يتردّد عليها وتروح تبكي على كتفه. ثم بعد أسابيع يبدأ بكلام نزق: "مش كل مرّة بدنا نعمل دقّ معك بتبلشي تبكي على زوجك!". بعد ذلك يقوم عنها ويلبس ثيابه ليخرج ويغيب لوقت طويل.

رغم ذلك، وفي مكان ما من روحها المرضوضة لم تفقد صباح بعضاً من كبريائها. تردّد لنفسها أنها "عملت حالها بحالها"، ولا فضل لأحد عليها. لا فضل لأبيها الذي صار يبعث لها بالرسائل لطلب المال بحجة ادخاره لها، ولا لأخيها الذي فشل في الدراسة وفي العمل، ولا لزوجها الذي اختفى والذي كان أجمل ما فيه اسمه. من الأموال التي أرسلتها إلى العائلة في تركيا اشترى أبوها شقة صغيرة لأخيها في ضواحي اسطنبول. ترك أمها المصابة بالألزهايمر تنطفئ ببطء في بيتهم القديم في جبال ماردين. لم يترك للإبنة شيئاً من أموالها التي بعثتها. ولِمَ سيترك؟ فهي بالنسبة إليه امرأة في نهاية الأمر! وليس امرأة فحسب، بل امرأة غائبة عن ماردين، ولا رجل لديها. سببان كافيان كي تغدو بنظر رجال العائلة، تقريباً، في عداد الأموات!

في قلب الحرب كانت تشعر أنها بمأمن من الموت، وكانت الحرب تجري خارج بيتها كأنها لعبة. تُحضّرُ لأبطال هذه اللعبة

المناقيش والشاي كل صباح. لم تخف أحداً. تراهم أبطال لعبة اسمها الحرب ولم تنظر إليهم كرجال. لا رجال لي هنا في بيروت. تفكّر صباح. مرّ وقت طويل وهي تنتظر زوجها أحمد. كانت تنتظر لأنها تريد أن تعرف ما حلّ به، ولأنها لا تريد أن تتابع حياتها هكذا "لا معلّقة ولا مطلّقة" كما تقول، ولأنها على حافة الهاوية في كل شيء أوّله الجنون. ولأنها أحياناً تفكّر في الموت، لكنها لا تجرؤ على موافاته بإرادتها. ثم كانت تكبر، وهذا الأمر يخيفها. رغم ذلك كانت تستيقظ أحياناً مع فكرة مبهجة أنها ما زالت في العشرين وأن الزمن ينتظرها، كذلك ألمانيا حيث حبيبها أحمد. لكن سرعان ما تتبدّد تلك الأفكار الصباحية حين تجد صعوبة في النزول من السرير بسبب ألم الظهر الذي أصابها منذ حادث اعتداء الضابط شوقي عليها ووقوعها وتدحرجها على درج الطابق السادس والأخير من المبنى

الذي كانت تقطنه نورا. يصرّ جسدها، ذلك الخائن اللعين، على تذكيرها بالماضي، بحوادث تريد أن تنساها. تتذكر حينها أمها في ماردين التي كانت تردد كلمة آخ...آخ، كما لو أنها جزء من الشهيق والزفير.

لكن أكثر ما صار يحضر في ذاكرتها في ساعات الفجر وهي ما تزال في السرير وجوه أولئك النسوة اللواتي كنّ يتجمّعن تحت شمس الصباح في ماردين يتحدثن عن أوجاعهن وعن العمر الذي مرّ بلحظة. صورة العجائز الكثيرة من جدتها لأمها إلى جدتها لأبيها إلى خالة أبيها إلى الجارة العجوز. يجلسن على حافة الطريق القريبة من البيت والتي تقع بين ساحة المدخل والمقابر الموزعة على مساحة

مستطيلة زُرعت فيها أشجار السنديان والسرو والزيتون. أشجار تبقى مورقة طوال السنة. ظنّت صباح في سنوات طفولتها القريبة من البلوغ، أن تلك الأشجار لا تفقد أوراقها في الخريف وتبقى خضراء كي تظلّل أرواح الموتى في قبورهم. تخلو البلدة معظم فصول السنة من رجالها. يسافرون إلى المدن للعمل ويتركون النساء والأطفال في البيوت. يعودون نهاية كل فصل ليومين أو ثلاثة ثم يرحلون من جديد، ويعودون للإحتفال بولادة طفل جديد في العائلة. تبدأ بعدها مواعيد عودتهم بالتباعد وأحياناً لا يعودون طوال السنة. تجلس الجدة التي تحمل اسم صباح أيضاً، يداها في حضنها وهي تنظر إلى البعيد صامتة. كنّ يبدوْن من بعيد كمجسمات مكرّرة لبينيلوب. نساء ينتظرن عودة الرجال من أعمالهم، أو عودة المقاتلين من الحرب إلّا أن الحرب تأتي وتغيب، وهن ينتظرن بملابسهن الداكنة. تقول أم صباح إن هذا أكثر ما أفزعها حين دخلت بيت العائلة وهي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها. رأت العجائز بملابس سوداء طويلة. وحدها جدة صباح لأمها لبست التنانير الواسعة الملونة التي كانت تخيطها بيدها من أقمشة تجمعها من هنا وهناك. يقولون إنها أتت من السهل حيث يفضلن الثياب الزاهية. تحمل بعضهن المسابح ذات اللون الأزرق الذي يحمي من صيبة العين. تكرّ حبات المسابح بين أيديهن ولا يُسمع سوى صوت الخرز وصوت الزرازير على أغصان الأشجار المحيطة بالمقابر. تكسر إحداهنّ الصمت أحياناً كأن تقول "لا يمضي يوم ويأتي مثله"، ثم تعقب أخرى "مش باقي غير القليل ولا أحد يأخذ عمر غيره". ترتفع أصوات العجائز بإيقاعات متفاوتة

غير منسجمة، مكرّرة ما قيل كتعاويذ. ثم يتنهدّن ويعقب تنهيداتهن صمتٌ طويل.

في زيارتها الأخيرة لماردين رأت صباح أمها المصابة بالألزهايمر تنظر إليها وتبتسم. لم تعد تلك المرأة الصلبة التي أخافتها وأخافت أخاها. راحت تنظر إلى صباح التي صبغت شعرها بلون ذهبي فاتح، مادة يدها نحوها وهي تشهق كطفلة.

"الشمس وقعت على كتافها"، تقول وتضحك بصوت مترهّل كسول، ثم تصمت وتروح بعدها في شرود متقطّع. تنادي زوجها "بابا" وتطلب منه أن يشتري لها سكّر نبات حين يخرج. ثم بعد لحظات تسأل عنه إلى أين ذهب. عانقتها صباح طويلاً قبل عودتها إلى بيروت. كانت تعلم أنه وداعهما الأخير.

(١٥)

قلب اسمه الخوف

اتصلت مايا بالفندق ووجدت أن كمال قد غادر إلى المطار. هي تعلم أنه سيعود بعد أسابيع ثلاثة. لكنها لم تستطع الانتظار وذهبت وحدها لمقابلة صباح.

كانت صباح مستلقية على الكنبة حين دقّ الباب، وبدت حين رأت مايا تدخل دون موعد كأنها كانت تتوقع تلك الزيارة. ربما آن أوان الكلام فكّرت صباح، أوان قول كل شيء، ليس بفضل شجاعة تفتقدها، بل لأنها صارت في قلب الخوف، وما عاد الخوف مجهولاً بالنسبة لها. صارت في قلب القلق الذي أكل روحها كل ليلة لسنوات. كان لا بدّ لها أن تتوقع غضب مايا وأسئلتها. كيفِ لم تخبر تيمور بالحقيقة حين زارها؟ كيف لم تخبر كمال خمس سنوات بعد مقتل نورا؟ كيف لم تخبره أن ابنه كريم لم يقتل، وانه ما زال حياً في مكان ما من هذا العالم؟ وكيف...؟

تسألها مايا بصوت غاضب لكنه مشوب بالعجز. أسئلة "اللماذا"،

سؤال تلو الآخر، يتبع كل سؤال كلمات قصيرة: كيف ومتى وأين؟

تعلم صباح أن أي إجابة ستبقى بالنسبة لمايا موضع سؤال، موضع شك. لكنّ صباح لا تفهم كيف حدث هذا. كيف أعطت الطفل إلى آديل الناعس. بعدها صارت تشتبك مع ذاكرتها. تكرهها وتعاندها كلّ ليلة، تغمض عينيها وتشدّ عضلاتهما بقسوة علّها تنام. بعد موت نورا والتخلّي عن الطفل، بدَت لها سنوات الحرب المصحوبة بقصف يرتجّ له المبنى نعمة. هو ذلك الدم اليومي حولها، هنا وهناك، جعلها، آنذاك، تتوهّم أن ذاكرتها حول ما قامت به ستبقى في أمان بعيداً من عذابٍ بدأ بعد وقت ليس بطويلٍ يأكل ببطء قلبها. "الطفل في مكان آمن"، كانت تقول لنفسها، فيما سحب دخان سجائرها تحجب عينيها من رؤية شاشة التلفاز الذي يعلن وقفاً جديداً لإطلاق النار. "الولد في مكان آمن" كانت تردّد في ليالي الوحشة وهي تنظر إلى الحذاء العسكري المفتوح فمه على الأرض، منتظرة أن ينتهي أحدهم ويقوم من على جسدها المكتوم والممدّد فوق الفراش والذي فقدت الإحساس به. "لولا النسيان والشعور بالندم الذي يحنو على ذنوب ردمناها، لكنّا صعدنا إلى سطوح أبنية بيروت ورمينا أنفسنا تخلّصاً من ثقل الماضي" تهمس في داخلها، بعد خروج الرجل من بيتها، تاركة المياه الباردة تندفع من الخرطوم المطاطي على عانتها وفرجها فيما تروح تفركهما بالصابون.

لكن هل هو النسيان فعلاً أم شيء آخر يشبه الموت البطيء؟

وحين سألتها مايا كيف استطاعت أن تتخلّى عن طفل هو ثمرة حب بين شخصين، أجابتها بغضب:

"الحب؟ وين بيلاقي كريم الحب؟ عند بيت جده؟ عند أهل نورا؟ الطفل لو بقي هون ما كان رضع إلّا الكره. ما كان شمّ إلا ريحة الخيانة والموت".

"ما عندك قلب؟" سألتها مايا بجفاء.

"بلى عندي قلب... وإسمو الخوف!"

نتف القصص التي سمعتها مايا من صباح في لقاءاتهما الماضية لم تكن سوى جزء صغير من حقيقة كبيرة، تركتها نورا في صفحات يومياتها الأخيرة...

تعرّفت صباح إلى نورا وكانت سعيدة بها، تصعد مشياً من الخندق الغميق إلى الزيدانية للاهتمام بالشقة وتحضير الطعام أثناء غيابها، وبعد أن تعرفَتْ نورا بكمال، صار الاثنان عائلة صباح في بيروت.

كانت متوتّرة ذلك اليوم حين عهدت بطفلها إلى صباح. قالت إنها لم تنم جيداً خلال الليل وإنها خائفة. ربما حدست موتها. نقلت خوفها إلى صباح هي الأخرى. وصلت إلى الباب ثم عادت وقبّلت كريم. توقفت أمام الباب لدقائق، طلبت من صباح أن تذهب خلال النهار إلى شقتها وتأتي بكل أوراقها وأغراضها وأغراض الطفل من بيتها. ثم خرجت. لم تشعر صباح يوماً أن نورا يمكن أن تعرف الخوف. ذلك اليوم، ولسبب غامض ربما شعرت به هي فقط، لم تشأ نورا العودة إلى شقتها في الزيدانية.

حين نام كريم في ذلك اليوم، طلبت صباح من مريم البقاء عندها ريثما تذهب إلى شقة نورا وتجمع كل حاجياتها وحاجات طفلها

كما طلبت منها. كأن خوف نورا انتقل إلى صباح وبدأت بجمع كل أوراقها ووضعها في حقيبة، بما فيها رسائل كمال ودفاتر يومياتها وصورها وأوراقها الرسمية وأغراضها الشخصية وكل الأرشيف الذي جمعته عن يوري غاغارين. صارت تدور في أنحاء البيت وتفتش على الرفوف وفي أدراج المكتب والخزانة عن أوراق وقصاصات. لم تنس ما قالته لها نورا مرة: "لو بيعرفوا شو عم أكتب كانوا بيسحلوني يا صباح"... صارت تتذكّر تلك الجملة وتلقي بكل ما تقع عليه يدها من أوراق في الحقيبة البلاستيكية التي أتت بها من البيت. حملت كل تلك الأوراق والدفاتر إلى البيت وصارت تنتظر عودة نورا من السفارة. بعد أن علمت بمقتلها وضعت كلّ شيء يخص نورا في حقيبة جلدية خاصة، وانتظرت أن يأتي كمال من تركيا ويأخذها مع طفلها الذي تركته عندها، أو أن يرسل أحداً من قِبَله. لكن لم يصلها منه خبر. وحين انتقلت إلى بيت ابراهيم خوفاً من ضابط المخابرات، أخذت تلك الحقيبة معها وأضافت إلى محتواها أغراضها وصورها وصور زوجها المفقود. استأنس ابراهيم، الذي فقد زوجته بالطفل وأحبه. وصارت صباح تقتسم مع الطفل لقمتها، وتشتري له الحليب والحاجيات، كذلك تهتم بمريم التي أقعدتها آلام روماتيزم المفاصل في البيت. لم تعد صباح تعمل كالسابق بعد ترك معظم ساكني المبنى بيوتهم ومصادرة عائلات مهجّرة للشقق الفارغة. لم تطلب العائلات الوافدة الجديدة من صباح تنظيف بيوتهم وما عاد السكّان يدفعون معاش الناطور.

بقيتْ ستة أشهر تنتظر كلّ يوم أن تأتيها رسالة تشير بما عليها

القيام به إزاء طفل لا هو بقريب لها ولا من دمها، لكنه وجد بالصدفة بين ذراعيها يوم مقتل أمه. كذلك لم يأت أحد من من أهل نورا أو أقربائها، أولئك الذين كانت تتجنّبهم وتخفي عنهم مكان إقامتها خاصة عن زوج ابنة خالتها، ضابط المخابرات. كان قد مضى على وجود الطفل مع صباح ستة أشهر، حين وصلها من صديقتها مريم أن امرأة اسمها آديل الناعس تريد مساعدتها.

"هناك سيتربى كريم ببحبوحة لا تستطيعين أنت توفيرها له!" أكّدت لها المرأة التي زارتها برفقة زوجها واسمه جورج الشمّاس.

"سيذهب إلى المدرسة ويأكل ويلبس ويكون لديه أم وأب مثل كل الأطفال".

ترددتْ صباح بالقبول. قالت لنفسها ربما هو هدية لي لأنني لم أرزق بطفل. ربما الله وضعه في حضني كي يعوّضني غياب من أحببت في حياتي. لكن كيف أبقيه بعيداً عن ذلك الضابط؟ كيف أحميه من ذلك الوحش؟ من أين آتيه باحتياجاته؟ كيف أعلّمه؟ كيف أدفع مصاريف طبابته؟ كيف أصرفه عن الالتحاق بالمقاتلين هنا وهنالك حين يكبر، وأمنعه من أن يصبح قاتلاً مثلهم؟

هواجس وأسئلة ركبتها كشيطان وحين عادت آديل بعد أسابيع مع مريم قبلت صباح عرضها. أخذت المرأة الطفل وطارت به إلى أوروبا. لم تسمع صباح بعد ذلك، أي خبر منها ولا من زوجها.

بعد سفر الطفل عادت صباح إلى الخندق الغميق. زارها تيمور ليخبرها أن كمال في السجن. اعتقلته السلطات التركية بسبب نشاطه السياسي واتهموه انه يخطط لتفجيرات في إزمير. أخبرها أيضاً أن

كمال بعث برسائل عدّة إلى نورا ألّا أنّه لم يتسلم منها شيئاً. أخبرت صباح تيمور عن حادث الإنفجار وعن موت نورا. وجدت نفسها فجأة تقول له إن طفلها مات معها أيضاً. خافت حينها أن تقول الحقيقة. خافت أن تخبره أنها كانت خائفة وأنها لم تكن تدري ماذا تفعل، وانها سلّمت الطفل لآديل الناعس وان عائلة أوروبية تبنّته وان المبلغ البسيط الذي قبضَته من المرأة صرفتْه على فتح الكيوسك وشراء أغراضه، ولم يبق شيءٌ منه.

حين سمع تيمور خبر موت نورا وطفلها كاد أن يُغمى عليه، ثم بدأ بالبكاء. هال صباح منظر رجل بهذا العمر يبكي كصبي. حين رأته هكذا تركته وقامت إلى المطبخ تحضّر له كوباً من الليموناضة الباردة مع ماء زهر الليمون.

في المطبخ صارت تفكر إن كانت قد فعلت الصواب في شأن إخفاء الحقيقة. تتساءل عن فائدة قول الحقيقة، كأنّها تبرّر لنفسها أنها قامت بالتصرّف الصحيح وأن قول الحقيقة لا رجاء منه ولا يؤدي إلّا إلى الإذى.

"لشو قول الحقيقة؟ شو الفائدة؟ تركتها مستورة، وتركت الولد يعيش مبسوط. كيف كان رح يعيش هون؟ أمٌّ مقتولة وأب مسجون. خلّيه يفكّر إنّه إبن عيلة هولندية أو دانمركية أو فرنسية. الله أعلم بأي بلد صار. هيك أحسن للكل".

سقط كوب الليموناضة من يدها حين كانت تضعه على الصينية. سكبت حصتها من الليموناضة المتبقية في الإبريق الزجاجي في كوب آخر لتقدمه إلى تيمور. كانت مشتتة الذهن، ويداها ترتجفان.

لم تنفع كل تلك التبريرات التي كانت تردّدها على نفسها وهي تعصر الحامض وتذيب السكر مع الماء. صوت خرج دون ارادة منها فيما كانت تجمع قطع الزجاج المتناثرة وترفعها من على الأرض: "لو بعدو كريم هون كان بيقللي صباح الخير يا صباح، وكنت بعملو الليموناضة بإيدي وبكترلو السكّر". وأجهشت بالبكاء.

حملَتْ الصينية وعليها كوب الليموناضة الباردة وعادت إلى غرفة الجلوس وقدمته لتيمور الذي كان قد أشعل سيكارة، أحنى جذعه إلى الأمام مسنداً رأسه بباطن يده. تحول لون وجهه إلى أحمر قانٍ، فيما راح يدخن محدّقا بالأرض.

"ما بعرف ليه كذبت بهاللحظة..."، قالت صباح لمايا.

"شو اللي دفعني إخترع هالخبرية؟ ليه قلت الطفل مات؟ ليه ما قلت الحقيقة لتيمور؟".

صارت صباح تردّد أسئلتها وهي تضرب بكفيها جانبي رأسها بوتيرة متكرّرة، كأنها في حفلة زار.

استمرت صباح في الكلام، أما مايا فقد لزمت الصمت.

"ما بعرف شو صار. خفت يقتلو، يقتل كريم، بعد ما شفتو بشقة نورا لما رحت للمرة الثانية، والشقة مخبوطة كأنو قنبلة انفجرت فيها. يا ويلي لو كان الطفل هونيك شو كان عمل فيه؟ هدّدني: ما بقى ترجعي لهون وإلا بيصير فيك متل ما صار فيها، وضحك. بقتلِك وبحطِّك بسيّارة حد إنفجار. فتح باب الشقة وجرّني لبرّا، ودفشني عالدرج وصرت اتدحرج مثل الطابة. وجع ظهري من هيديك الأيام. ما شفيت من يومها وما عدت قادرة عالشغل مثل قبل. خفت إحكي

أيّ شي. كان روّحني مثل ما روّحها. ٦ اشهر ما تجرأت إرجع عبيتي مع كريم".

***

كان الضابط شوقي يبحث في شقة نورا عن رسالة هناء وعن كتابات جديدة لنورا، وربما عن أوراق أخرى لها. ربما وصَلَه أن نورا كتبت أكثر من تلك القصة المنشورة، وأراد محو كل شيء، كل شيء. فكرت مايا، ثمّ سألت صباح عن عنوان آديل الناعس أو اسم أيّ شخص يعرفها ويستطيع المساعدة. أجابت صباح أنها لا تعرف. وأخبرتها أن صديقتها مريم هي التي عرّفتها على آديل. لكن مريم ماتت منذ سنة.

هنا في هذا الحي بقيت صباح وانتظرت. ربما انتظرت أملاً، ربما وهماً... لكنها ككل الناس الذين استوطنوا أماكن الحرب واعتادوها. هي ليست ملاكاً ولا شيطاناً بل الاثنان معاً. كي يبقوا على قيد الحياة كان عليهم أن يوقظوا الشيطان النائم في داخلهم، يسلّموه قمرة القيادة ويتركوا له حرية الاختيار. يثقون به لأنه وحده سيبقيهم أحياء بعيداً عن الموت، أو بعيداً عن الآلهة المتواطئة مع الموت.

رغم ذلك ستسأل مايا نفسها كل يوم لماذا كذبت صباح.

أمور تحدث من الصعب تفسيرها بسهولة. يحدث أن نقوم بعمل ما نحمل آثاره معنا. عمل قد يضعنا في خانة بعيدة عن أي صورة نتمنى أن نرى أنفسنا فيها.

لكن هكذا نحن، نطعم الفقير، نضحك لنكتة عابرة، نحب، نحزن، ونرقص، لكن أيضاً نقتل جيراناً لنا في الحروب الأهلية. وإذ نحن كذلك، كيف نصف أنفسنا؟

نهضت مايا لتغادر شقّة صباح، وقبل أن تفتح الباب استدارت لتسألها كيف كان شكل نورا، ما كان لون عينيها وشعرها؟

باغتت تلك الأسئلة صباح. لكنها في الوقت نفسه أراحتها وبدّدت كآبتها.

نظرت إلى مايا، ثم أخذت نفَساً عميقاً، وهي تمسح دموعها بكمّ قميصها قبل أن تجيب:

"كأنها أسمهان...".

(١٦)

كانون الأول ١٩٩٤

أنهت مايا عملها في الفيلم. أرادت الاحتفال مع داني في مقهى سارة. لم يستطع داني البقاء طويلاً إذ كان عليه الالتحاق بأرنست الذي ينتظره أمام مدخل مسرح بيروت لحضور مسرحية معاً.

سكبت ساره كأسا من النبيذ الأحمر لمايا وسألتها:

"ماذا بعد الفيلم؟ هل تعملين معي هنا؟ احتاجك فقط في نهاية الأسبوع. هكذا يبقى لك وقت كافٍ للكتابة".

"لا أعلم" أجابت مايا. "أمهليني بضعة أسابيع. أريد الانتهاء أولاً من بحثي عن آديل الناعس وعن عملية تبني الطفل. أريد أن أعرف من هي تلك المرأة. أن أعرف أين هو أيضاً".

"هل اتصلتِ بكمال؟" سألت سارة.

"ليس بعد... لا أعلم ماذا وكيف سأخبره".

قالت صباح إنها لا تعرف عنوان بيت آديل الناعس. هناك فقط رقم هاتف لطبيب ولادة أعطتها إياه آديل، لكن ما عاد الهاتف يردّ،

ويبدو أن الطبيب قد مات وأُقفلت عيادته. فتشت مايا عن اسم المرأة دون جدوى. ذهبت إلى أرشيف جريدة "النهار" وجريدة "السفير". فتشت في صفحات الأخبار المحلية عن روايات بيع الأطفال خلال الحرب ولم تجد شيئاً. وجدت أخباراً عدة عن العثور على أطفال رُضّع أمام أبواب دور الأيتام، أمام دير اللعازارية والمقاصد. لكن لا ذكر للتبني. ثم إن لا تبنّي في الاسلام. وليست ملمّة بقوانين الدولة اللبنانية فيما إذا كانت تجيز التبني لأي طائفة انتمى الطفل أو العائلة التي تسعى إلى التبني".

"ما زلت عير مصدقة أن صباح باعت الطفل!..." قالت سارة.

"هل من المعقول أن يتمّ كل هذا في غياب تام لأعين الصحافة. لا شيء عن تلك المرأة، ولا حتى عن موضوع بيع الأطفال. هل هذا معقول؟ طفل يتبخّر هكذا ولا أحد يعلم بخروجه من لبنان؟ ثم ألا يحتاج التبني لطبيب ولادة ومحام أو قاض أو حتى خوري في كنيسة، وسلطة محلية توافق على خروجه من البلد؟".

قالت مايا.

"لكن لا تنسي الحرب!" أجابتها سارة وتابعت:

"أُخرج إبن نورا من لبنان عام ١٩٧٨، وأنت تعلمين في أي وضع كان يعيش الناس آنذاك. أنت كنتِ تتابعين ما يجري، حتى لو كنت في فرنسا!".

"حسناً كانت الحرب وماذا الآن؟ هل نبقى صامتين، نسكت دوماً بحجة الحرب؟".

سألتها مايا.

خلال بحثها في الأسبوعين الأخيرين، وجدت مايا مقالات قليلة جدّاً تعود إلى زمن الحرب عن اكتشاف عصابات تبيع الأطفال. إلا أن الأخبار عنها مختصرة وغير واضحة ومن دون كشف عن أسماء أفراد العصابة. قامت بتصوير تلك الأخبار من الصفحات المحلية. جلست في المقهى مع سارة وقرأتا بعضها.

هل كانت آديل الناعس تقود عصابة؟ تساءلت سارة فيما كانت مايا تقرأ كل خبر متعلق بالموضوع وتناولها إياه. هل ضحكت على صباح؟ قد لا يكون كريم الطفل الأول الذي تأخذه وتتاجر به وتقبض المال من العائلة المتبنية بحجّة الاجراءات القانونية التي عليها إنجازها قبل سفر الطفل إلى الخارج؟ قد لا تكون العصابة مؤلفة من آديل وزوجها فحسب بل أيضاً من أشخاص آخرين، وربما بتواطؤ مع أجهزة أمنية أو قوى غير شرعية زوّرت أوراقاً ثبوتية للطفل، وإلا كيف يسمحون بخروج طفل رضيع من لبنان عبر المطار أو عبر مرفأ جونيه أو المصنع دون وجود أيّ من والديه معه؟

"سأتصل بكمال". قالت لسارة. "أعلم انه سيصل في نهاية الأسبوع إلى بيروت، إلا أنني ما عدت قادرة على الانتظار. لا بد أن أخبره عمّا توصلت إليه".

عبر الهاتف أخبرته عن الصفحات الأخيرة من يوميات نورا، عن لقائها صباح وعما قرأت في الجرائد المحلية.

"ربما ليس كريم وحده يا كمال بل مئات وربما أكثر من الأطفال. النسيان لم يكن نسيان هوية القتلة والخاطفين فحسب، بل أيضا هوية

تجّار الحرب. أولئك الذين سبحوا بين القتلة والخاطفين. المأساة ليست أنهم غير معروفين، بل أن لا أحد يريد أن يعرف. لا أحد يريد أن يتذكّر. من مات مات، ومن هاجر هاجر. ومن بقي هنا إما اخترع حكاية جديدة لم تحصل أو بقي صامتاً. ضاعت الحكاية بين الطائرات والمقابر والأجهزة. هي في اللامكان. الذاكرة المخترعة عبث، لكن الناس يتشبثون بالعبث. لن يجرأوا. بدون ذاكرة مخترعة سيكتشفون أن الخواء وحده يقيم فيهم".

بقي كمال صامتاً كأنّ ما أخبرته به مايا كثير عليه دفعة واحدة.

كريم موجود في مكان ما من هذا العالم. هو موجود! همس قلبه...

"كمال..." قالت مايا. فقط لتتأكد أنه ما زال هناك... على الخط معها.

مرّ في خياله منظر نورا وهي ممدّدة على شاطئ البحر وطيف استدارة حمل لطيفة برزت على بطنها. كانت سمّاعة الهاتف ما زالت في يده.

"آه يا مايا... لو تعلمين!" جاءها صوته عميقاً مندهشاً. ثم صمت ثانية..

"كمال..." ردّدت مايا. سمعت إيقاع تنفسه. ألصقت أكثر السماعة بأذنها.

كان يصغي إليها هو أيضاً، ويفكر أن باستطاعته إغماض عينيه والاستماع إليها إلى ما لا نهاية. باستطاعته الآن أن يستسلم لهذا الصوت الدافئ الذي يأتيه من بيروت وينام. باستطاعته في هذه

اللحظة بالذات أن يعود سنوات إلى الوراء، إلى ما قبل توقّفه عن اصطياد السعادة.

***

في زيارتها الثانية لأرشيف الجريدة وجدت مايا في بعض الأعداد الصادرة خلال عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ أخباراً عن شابات وشبان أوروبيين وصلوا إلى لبنان للتفتيش عن أهلهم البيولوجيين. حملت مايا ما قامت بتصويره من الصفحات المحلية وجلست في مقهى في شارع الحمرا.

خبر صغير يقول إن شاباً دانمركياً وصل إلى بيروت للبحث عن أهله. يقول إن والديه لبنانيان. خبر آخر يقول إن فتاة سويدية زارت بيروت أيضاً. لا يذكر الخبر عمر الشابين. صورة الشاب تدل على أنه في العشرين من عمره. لكن ابن كمال ونورا في السابعة عشرة الآن. فكرت مايا. ربما هذا الشاب في السابعة عشرة، قالت في نفسها، وإن بدا في الصورة أكبر سناً. خبر ثالث عن مجموعة شبان وصلوا من هولندا للبحث عن هويتهم الحقيقية. تنظر مايا الى صورة كل شاب بينهم وتروح تتفحص الوجه والشعر.

نظرت مايا إلى صورة أحد الشبان الوافدين من هولندا، وتخيلته كريم. لكن كريم بدا في الصورة بشعر كثيف أجعد. "الشعر يتغيّر، ربما كان هو...". قالت لسارة على الهاتف...

"هذا جنون، أنت مجنونة!" أجابت سارة، وأضافت: "لن تتعرفي إليه، لقد أُخرج من لبنان وعمره ستة أشهر ولا صور أخرى له!".

عاد معظم الشبان إلى أوروبا بعد أن فقدوا الأمل في العثور على خيط يهديهم، أو على باب ضوء. أتوا بأوراق ثبوتية، احتفظ بها الأهل الاوروبيون، تظهر أنهم لبنانيّون، لكن ما إن بدأوا التفتيش في الدوائر الرسمية حتى اكتشفوا أن هذه الأوراق مزوّرة وأن من زوّرها جهات في لبنان، ولا وجود لأسمائهم ولا لأسماء الأشخاص المفترض أنهم الأهل البيولوجيون. وَردَ اسم طبيب نسائي، هو نفسه الطبيب الذي حاولت مايا الاتصال به بعد أن زوّدتها صباح برقمه، ولم يردّ أحد. مات الطبيب بداية عام ١٩٩٠.

لا بد أن هناك مئات الأطفال مثل أولئك. خرجوا بطريقة غير شرعية من لبنان في ذلك الوقت.

***

رنّ هاتف مايا. "تعالي لنتناول الغداء معاً قبل أن يحين موعد خروج شادي من المدرسة" قالت لها سارة.

غادرت مايا المقهى. كانت تمطر. وضعت حقيبة يدها على رأسها وهرعت نحو السيارة. بات لديها الكثير لتكتبه، فكرت.

كان الشهر الأخير من السنة، وكان شارع الحمرا يتحضّر لاستقبال عيد الميلاد.

الزينة هذه السنة مختلفة. كم يبدو الشارع مبهجاً رغم المطر الغزير، كأن الحرب لم تمرَّ من هنا. كأنها ذكرى تلاشت واختفت. شعرت مايا أن بإمكانها أن تبقى في بيروت، ألّا ترحل ثانية. عايدة تعلقت بشادي ولا تريدهما أن يسافرا ثانية. ثم إن سارة عرضت عليها

عملاً مريحاً لن يأخذ الكثير من وقتها. لمع في رأسها كمال كفكرة خاطفة وغمرها شعور دافئ.

نزلت عن الرصيف لاجتياز الشارع نحو شارع آخر ركنت فيه سيارتها.

سيارات ثلاث تشقّ الشارع بسرعة جنونية، ورشق ناري واحد يطلق من نافذة إحداها. أحد أمراء الحرب الذي صار نائباً ثم وزيراً يمرّ بموكبه مسرعاً. صرخات من نوافذ سيارات الموكب المرافقة تأمر المشاة المختبئة وجوههم تحت مظلاتهم بفتح الطريق. سيّارات خائفة تتوقف جانباً وتخلي الشارع.

همّت مايا بالركض، وحاولت القفز فوق حُفر الشارع التي حوّلها الشتاء إلى برك صغيرة. إحدى سيّارات الموكب تصدمها. يرتفع جسدها الصغير في الهواء كطائرة من ورق ثم يقع على كومة مرتفعة من الرمل الرطب أمام مبنى يُعاد ترميمه. ضربة قويّة شعرت معها بارتجاج في أطرافها. ألم في الكتف والساق. صور مغبّشة مرّت أمامها، فراشات تساقطت وبهتت ألوانها، أصوات متقطعة. نظرت حولها... سيولة ساخنة تجري على وجهها ورقبتها. تريد أن تقف... أن تحرّك جسدها، لا تستطيع. بعد ذلك ما عادت تسمع شيئاً.

أخبروها في ما بعد أنها، وفيما كانوا ينقلونها بسيارة الأسعاف، سألت سؤالاً واحداً فقط: إن كان المطار مفتوحاً. تمتمت أنها تريد الخروج مع شادي. تريد أن تنجو معه. ثم غابت عن الوعي.

***

"خسرتُ نورا ولا أريد خسارتك".

قال لها كمال حين زارها في المستشفىَ. اتصلت سارة به وأخبرته عن الحادث.

فتحت الظرف الصغير الذي كان معلّقاً على باقة الورد التي أتى بها وقرأت:

مايا،

حين رأيتك أمام باب غرفة الفندق، تردّدتُ طويلاً. كنت خائفاً بشكل مبهم. ربما من خسارة ثانية لا طاقة لي على احتمالها. شعرت انك لحظة تدخلين، ستدخلين حياتي ولن تخرجي منها.

بدت عيناها، وهي تنظر إليه، كعصفورين يطلّان من نافذة صغيرة لسجن أبيض من شاش التفّ حول رأسها وعنقها، وجبس غطّى ذراعها اليمنى وساقها المكسورتين.

"أنا بطلة بالصدفة، لم أقصد أن أكون!" قالت له بسخرية محبّبة.

ابتسم، ثم قال بعد برهة صمت: "سأجد كريم يا مايا... سنجده...!"

في المساء، وهي ممدّدة على سرير المستشفى، استعانت بيدها اليسرى

لكتابة جملة روايتها الأولى:

لم أكن أعلم اننا سنغدو نحن الحكاية التي لم نَرْوِها بعد.

باريس ربيع ٢٠١٥